الشيخ ابراهيم الأميني

تزكية النفس وتهذيبها



دار البلاغة



تزكية النفس

وتهذيبها

الشيخ إبراهيم الأميني

تزكية النفس وتهذيبها

دار البلاغة

الطبعة الرابعة
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع
تلفاكس: 544334 - 1 / 546787 - 1 مكتبة: 544336 - 1
ص. ب. 25/16 بيروت - لبنان - e-mail : balagha@cyberia.net.lb

إهداء

أقدم هذا الأثر القليل إلى الغارقين في خطوط القتال
والسالكين لمسلك الجهاد والشهادة،
حيث يقطعون مسير مئة سنة بليلة واحدة،
ويحترقون من عشق المحبوب بلحظة واحدة،
فيصعدون إلى المقام الشامخ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾
على أمل أن ينظروا إلينا ولو بطرفة عين.

المؤلف



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد ﷺ، الذي بعثه الله رحمة للعالمين ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة والسلام على عترته وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

إلهنا! إهدنا إلى صراط الإنسانية المستقيم وعلمنا طوي مدارج الكمال، وأنر قلوبنا المظلمة بنور المعرفة واليقين. وارفع عن قلوبنا الحجب والعجب والرياء والآمال والميول النفسية، ووقّد بصيرتنا الباطنية لرؤية جمالك الذي لا مثيل له. وأعنا في طريق بناء وتهذيب وتزكية النفس. واخرج كل التفات ومحبة لغيرك من قلوبنا، وارفع أقنعة الغفلة عنها وأشبعها من عين زلال محبتك وأنسك.

إلهنا! إمنح قلوبنا نور الإيمان واليقين وأيقظنا من رقاد الغفلة حتى نعود لأنفسنا فلا نقضي بقية أعمارنا بالبطالة كما في السابق.

وأنا العبد الفقير التائه الحيران، المبتلى بأسر الرغبات والأهواء النفسية الجاهل بدرجات الكمال والمقامات المعنوية، الغافل عن مراتب سير وسلوك أهل الله.

عزمت أن أخطو خطوة في بحث وتزكية وتهذيب النفس. مستفيداً من آيات القرآن النورانية وإرشادات النبي الأكرم والأئمة الأطهار عليهم السلام، لتبيان المبادىء والأصول الكلية لتزكية وتهذيب النفس ولطريق السير والسلوك إلى الله، فأستخرجها وأضعها باختيار الراغبين، عساها أن تكون عوناً للسالكين فيمنُّ الله المنان على هذا

العبد المحروم ويأخذ بيدي ويخرجني من ظلمات الجهل وحب الذات والغفلة ويرشدني إلى وادي الذكر والأُنس والمحبة واللقاء النوراني، لعلي أجبر في ما بقي من عمري (إذا بقي شيء) بعض ما فاتني وخسرته في ماضيَّ. أحبُ الصالحين ولست منهم...

التذكير بأمر مهم:

قبل البدء بالبحث أجد من الضروري التذكير بهذا الأمر وهو أن بناء وتزكية النفس لا يستلزم الاختلاء وترك المشاغل الدنيوية وعدم تقبل المسؤوليات الاجتماعية. بل وكما سيتضح في طي مباحث الكتاب، فإن الانزواء وعدم تقبل المسؤوليات الفردية والاجتماعية ينافي بناء الذات وتكميل وتهذيب النفس. والإسلام يريد من المسلمين أن لا يغفلوا عن أنفسهم في نفس الوقت الذي يعيشون فيه بين الناس ويشتغلون بأداء وظائفهم الفردية والاجتماعية فيهتمون أيضاً ببناء وتربية وتهذيب النفس بعناية كاملة.

قم - إبراهيم الأميني
١٣٦٢/١١/١١

سلام عليكم أيها الجالسون في أعالي الجبال الرابضون على ثغور الوطن الذائدون عن حياض أمة رسول الله بالدم والنار، وهل أغلى منه عطاء؟! . . .

هنيئاً لكم نفوسكم الزكية وقلوبكم البيضاء وسواعدكم الفتية، وهل يمكن لمثلي إهداء ما لا تحتاجون إليه إلا قليلاً . . .

نعم نحن القابعون بين الجدران والمكاتب والصالونات نحتاج إليه لنزكي أنفسنا ونهذبها عسى أن ترتفع بنقاوتها لتصبح كنفوسكم، فتحملنا لنكون معكم في علياء الربوع حيث العروج إلى الملكوت بالأرواح والأنفس، عسى، وليت، ولعل أن يكون نصيبنا معكم.

ودمتم في كنف رعاية صاحب الأمر والزمان عج.

المعرّب

علي محمد زين

١ ذي الحجة ١٤١٣هـ. ق

تزكية النفوس هدف الأنبياء الكبير

كان أكبر أهداف الأنبياء تهذيب وتزكية وتربية النفوس الإنسانية.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

كان موضوع التعليم والتربية مهماً إلى درجةٍ أنه أصبح الهدف من إرسال الأنبياء، وقد منّ الله تعالى على عباده في هذا المجال، إن الشخصية الفردية والاجتماعية، والسعادة أو الشقاء الدنيوي والأخروي للإنسان يرتبط بهذا الموضوع، فكيف يمكنه بناء ذاته. ولهذا السبب يعتبر بناء النفس أمراً حياتياً ومصيرياً للإنسان. جاء الأنبياء كي يرشدوا البشر إلى طريق بناء وتربية وتكميل النفس، وحتى يكونوا عوناً في هذا الأمر الحياتي والمصيري. جاء الأنبياء ليطهروا النفوس الإنسانية من الرذائل والأخلاق السيئة والصفات الحيوانية، وليربوهم على فضائل ومكارم الأخلاق. جاء الأنبياء كي يعلموا الناس درس تزكية النفس وليكونوا سنداً في طريق معرفة الأخلاق السيئة وكبح الميول والرغبات النفسية فينزهوا نفوسهم من المساوىء والمعاصي عبر التحذير والتخويف. جاؤوا لكي ينمّوا بذور الفضائل الأخلاقية ومكارمها في النفوس وليرشدوها، وليكونوا عضداً وساعداً من خلال الإرشاد والتشويق والترغيب لمساعدة الناس في ذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله عز وجل بعثني بها»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى خص الأنبياء بمكارم الأخلاق فمَن كانت فيه فليحمد الله على ذلك ومَن لم يكن فليتضرع إلى الله وليسأله»[3].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كنا نرجو جنة ولا نخشى ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاح»[4].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[5].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[6].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[7].

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من بين يديه فقال: «يا رسول الله ما الدين؟ فقال: حسن الخلق. ثم أتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فقال: حسن الخلق. ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: حسن الخلق. ثم أتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه فقال: أما تفقه؟ هو أن لا تغضب»[8].

إهتم الإسلام بالأخلاق اهتماماً خاصاً، ولهذا السبب نجد أن الآيات التي تتحدث عن الأخلاق هي أضعاف الآيات التي تتحدث عن الأحكام في القرآن. وحتى

---

(١) بحار الأنوار ج٦٩ ص ٣٧٥.
(٢) المستدرك ج٢ ص ٢٨٢.
(٣) المستدرك ج٢ ص ٢٨٣.
(٤) المستدرك ج٢ ص ٢٨٣.
(٥) الكافي ج٢ ص ٩٩.
(٦) الكافي ج٢ ص ٩٩.
(٧) الكافي ج٢ ص ١٠٠.
(٨) المحجة البيضاء ج٥ ص ٨٩.

أن أكثر القصص القرآنية أهدافها أخلاقية. ويمكنكم أن تجدوا في كتب الحديث آلاف الأحاديث الأخلاقية فإذا لم تكن أكثر من الموضوعات الأخرى فليست بأقل منها والثواب والأجر الذي ذكر للأخلاق الحسنة ليس أقل من الثواب الموضوع لسائر الأعمال. والعقاب الذي جاء الوعيد والتهديد به لذوي الأخلاق السيئة ليس أقل من التهديد والوعيد الوارد في حق سائر الأعمال السيئة. لهذا فالأمور الأخلاقية تشكل أساس الإسلام. ولا يمكن تصنيفها في الدرجة الثانية من أحكام الدين، وليست أموراً جمالية وكمالية. إذا كان لدينا أمر ونهي في الأحكام فلدينا أمر ونهي في الأخلاق أيضاً. وإذا كان لدينا ترغيب وثواب وتخويف وعقاب في الأحكام، فلدينا مثل ذلك في الأخلاق. فما الفرق بينهما؟ إذن إذا كنا طالبي سعادة وكمال فلا يمكننا عدم إيلاء الأمور الأخلاقية عنايةً. لا يمكننا ترك الواجبات الأخلاقية بحجة كونها أخلاقية، وأن نرتكب النواهي الأخلاقية على أساس أنها محرمات أخلاقية.

إذا كانت الصلاة واجبة وكان لتركها عقاب. فالوفاء بالعهد واجب أيضاً. وخلف الوعد حرام وفيه عقاب. فما الفرق؟ المتدين الواقعي السعيد هو الذي يتقيد بالأحكام والتكاليف ويتقيد أيضاً بالأمور الأخلاقية. بل وأن للأمور الأخلاقية أهمية أكبر في السعادة والكمال المعنوي والنفساني كما سنبين فيما بعد.

معرفة النفس وبناؤها:

صحيح أن الإنسان حقيقة واحدة ليس أكثر، ولكن لديه أبعاد وجهات مختلفة في الوجود. يبدأ وجود الإنسان من تراب لا إدراك له ولا شعور وينتهي بالجوهر الملكوتي.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

إذن الإنسان حقيقة واحدة، لكنها حقيقة تتمتع بدرجات ومراتب مختلفة في

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ٧ ـ ٩.

الوجود، هناك حيث يقول: الغذاء ورشدي ونموي تحكي عن المرتبة الإسمية الجسمية لذاتي، وهناك حيث يقول: الحركة والشهوة والغضب لدي تحكي عن المرتبة الحيوانية للذات، وهناك حيث يقول: الفكر والعقل لدي يحكيان عن المرتبة الإنسانية الراقية للذات. إذن للإنسان تعاريف وذوات مختلفة: الذات الجسمانية، الذات النباتية، الذات الحيوانية، والذات الإنسانية. أما الأصالة والقيمة فهي لنفسه الإنسانية، ذلك الشيء الذي يجعل الإنسان إنساناً ويميزه عن سائر الحيوانات، وهو الروح الملكوتية المجردة والنفخة الإلهية. يصف الله الحكيم خلق الإنسان في القرآن بهذه الطريقة:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1].

وحول خلق الإنسان يقول: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، يصل إلى هذا المقام بواسطة هذه الروح الملكوتية ولهذا يأمر الله ملائكته: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[2].

إذا كان الإنسان يستحق الكرامة فهذا عائد لروحه الملكوتية يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[3].

إذن إذا أراد الإنسان بناء ذاته، فعليه أن يبني ذاته الإنسانية ويربيها، لا أن يبني الذات الحيوانية أو الجسدية، وهذا كان هدف الأنبياء أيضاً، حيث كانوا يريدون توجيه الإنسان لبناء وتقوية الجهة الإنسانية كانوا يقولون للناس: لا تنسوا أنفسكم، يعني الذات الإنسانية فيكم، لأنه لو ضحيتم بذاتكم الإنسانية فداءً لأهوائكم وميولكم الحيوانية، فستلقون ضرراً كبيراً.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات ١٢ ـ ١٤.
(٢) سور الحجر، الآية ٢٩.
(٣) سوزة الإسراء، الآية ٧٠.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «عجبت لمَن ينشد ضالته وقد أضلّ نفسه فلا يطلبها»[2].

ليس من ضرر أكثر وأشد إيلاماً حين يضع الإنسان شخصيته الإنسانية في الدنيا، فلن يبقى غير الحيوانية له.

روح الإنسان والنفس الحيوانية:

الآيات والروايات الواردة حول نفس الإنسان على قسمين: قسم يعتبر الروح جوهراً ثميناً، وأمراً ملكوتياً شريفاً، جاءت من عالم الربوبية، وهي منشأ كل الفضائل والقيم الإنسانية ويوصي الإنسان بالحفاظ عليها وتربيتها وتقويتها، والسعي لعدم فقدان هذا الجوهر الثمين لما لذلك من ضرر. ومثالاً على ذلك يقول:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

يصف الروح في هذه الآية بأنها موجود من عالم الأمر (التجرد) الذي هو أرفع من عالم المادة.

وفي حديث لأمير المؤمنين عليه السلام يتحدث عن النفس فيقول: «إن النفس لجوهرة ثمينة مَن صانها رفعها ومَن ابتذلها وضعها»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً قوله: «مَن عرف نفسه لم يهنها بالفانيات»[5].

وقال عليه السلام: «مَن عرف شرف معناه صانه عن دناءة شهوته وزور مناه»[6].

---

(١) سورة الزمر، الآية ١٥.
(٢) غرر الحكم ص ٢٦٢ حكمة ٢٠.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٥.
(٤) غرر الحكم ص ١٣٩ حكمة ٣١٢.
(٥) غرر الحكم ص ٣٥٢ حكمة ١٠١٤.
(٦) غرر الحكم ص ٣٥٢ حكمة ١٠٠٢.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن شرفت نفسه كثرت عواطفه»[1].

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن شرفت نفسه نزّهها عن ذلة المطالب»[2].

يستفاد من الآيات والروايات الكثيرة التي تتحدث عن هذا الأمر أن نفس الإنسان جوهر ثمين يجب السعي للحفاظ عليها وتربيتها.

ويوجد قسم آخر من الآيات والروايات تصف النفس بأنها موجود شرير وعدو للبشر، وأنها منشأ السيئات يجب محاربتها وتعنيفها، وإلا كانت سبباً لشقاوة وتعاسة الإنسان، ومن باب المثال نذكر هذه النماذج:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[3].

ويقول تعالى نقلاً عن لسان يوسف: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[5].

وقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن النفس لأمّارة بالسوء فمَن ائتمنها خانته ومَن استنام إليها أهلكته ومَن رضي عنها أوردته شر الموارد»[6].

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً: «الثقة بالنفس من أوثق فرص الشيطان»[7].

وقال علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: «إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة ولسخطك متعرضة تسلك بي مسالك المهالك»[8].

---

(١) غرر الحكم ص ٣٤٧ حكمة ٨٣٣.
(٢) غرر الحكم ص ٣٤٧ حكمة ٨٣٤.
(٣) سورة النازعات، الآيتان ٤٠ ـ ٤١.
(٤) سورة يوسف، الآية ٥٣.
(٥) البحار ج ٧٠ ص ٦٤.
(٦) غرر الحكم ص ١٣٩ حكمة ٣١١.
(٧) غرر الحكم ص ٢٤ حكمة ٤٣٦.
(٨) مفاتيح الجنان، مناجاة الشاكين.

ويوجد الكثير من هذه الآيات والروايات، ويستفاد منها أن النفس موجود شرير، ويجب قمعها بالجهاد والسعي الدؤوب.

يمكن أن يتصور البعض أنه يوجد تزاحم وتعارض بين هذه الآيات أو أن يتخيلوا أن للإنسان نفسين، إحداهما النفس الإنسانية التي هي منشأ كل الأمور الحسنة، والأخرى السيئة وهي النفس الحيوانية التي هي منشأ السيئات. لكن هذا التصور خاطىء. أولاً: لأنه لا يوجد تعارض بين الآيات والروايات وثانياً: لقد ثبت من خلال العلم أن ليس الإنسان أكثر من حقيقة واحدة، وليس له أكثر من نفس واحدة، والحيوانية والإنسانية ليسا شيئين منفصلين فيه. بل إن لنفس الإنسان مرتبتان وبعدان وجوديان. ففي المرتبة الدنيا هو حيوان يتصف بكل صفات وآثار الحيوان، وهو في المرتبة الرفيعة إنسان، ونفخة إلهية جاءت من عالم الملكوت. ولهذا يقال: النفس شريفة وقيمة وهي منشأ الحسنات فيجب أن تجدّوا في بنائها، وهذه إشارة إلى مرتبتها الرفيعة. أما حينما قيل: نفسك عدوك فاحذرها، واردعها كي لا توصلك إلى المهالك، فهذه إشارة إلى المرتبة الدنيا فيها أي إلى المرتبة الحيوانية، وإذا قيل: احفظ نفسك وربها، فالمراد من ذلك المرتبة الإنسانية. وإذا قيل: إقهرها فالمراد المرتبة الحيوانية. ويوجد تجاذب دائم وخصام وجدال بين هاتين المرتبتين الوجوديتين. الذات الحيوانية تسعى دائماً لإرضاء رغباتها وميولها وتقطع طريق الرقي والتكامل والصعود إلى الله على النفس الإنسانية، بل وتسخرها لتأمين رغباتها. وعلى العكس من ذلك فالذات الإنسانية أو المرتبة الرفيعة لوجود الإنسان، تسعى دائماً لطي المراحل الرفيعة للكمالات الإنسانية حتى تنال مقام القرب الإلهي. ولهذا فهي تسعى للسيطرة على الرغبات والغرائز الحيوانية وتسخيرها لتحقيق الهدف المنشود. إذن يوجد صراع حتى تتغلب الواحدة على الأخرى، فإذا ما تغلبت الذات الإنسانية والملكوتية، أحييت القيم الإنسانية، وارتقى الإنسان وصعد نحو المقام الشامخ القرب من الله، وإذا تغلبت الذات الحيوانية، أطفأت مصباح العقل وأسقطت الإنسان في وادي الضلال والضياع. ولهذا السبب جاء الأنبياء حتى يعينوا وينصروا البشر في هذا الصراع المصيري المقدس.

القيم الإنسانية:

للإنسان ذاتان: ذات حيوانية، وذات إنسانية. أما قيمة الإنسان فهو بذاته الإنسانية لا الحيوانية. الذات الحيوانية طفيلية، وليست شيئاً في الواقع. صحيح أن الإنسان حيوان ويجب أن يهتم بأمور حياته الحيوانية، لكنه لم يأتِ إلى هذا العالم كي يعيش كالحيوان، بل جاء حتى يستفيد من حياته الحيوانية في سبيل تكميل حياته الإنسانية.

للإنسان حاجات في كلتي حياتيه ـ الحيوانية والإنسانية ـ، وهي مدفونة فيه، ولهذه الجهة هو حيوان يحتاج إلى ماء وطعام ومسكن ولباس وهواء، وحتى يبقى حياً لا بد له من الماء والغذاء، وحتى يسعى في تأمينها بجد جعل الله فيه إحساس الجوع والعطش واللذة والرغبة في الطعام والماء، وقد جعل فيه الغريزة الجنسية أيضاً والرغبة بالزوجة حتى يستمر النوع الإنساني ويبقى. الإنسان محب لبقائه وهو مقيد بآثار ولوازم الحياة حتى تستمر حياته، لأنه عندما يرى الطعام ويشعر بالجوع، يحكم في نفسه أنه يجب أن يؤمن الطعام ويأكل. وإذا ما حال بينه وبين ذلك حائل واجهه وحاربه. طبعاً لا إشكال في هذا لأنه يجب أن يعمل الإنسان ويأكل ويشرب حتى تستمر حياته. وليس أن الإسلام لم ينهَ عن هذا وحسب بل ووصى به أيضاً. لكن عليه أن يعلم أن الحياة الحيوانية مقدمة وليست هدفاً، طفيلية لا أصيلة. فإذا جعل أحد للحياة الحيوانية أصالة وسعى بجد ليلاً ونهاراً لتأمين رغباته وحاجاته الحيوانية وجعل هدف حياته الأكل والشرب والراحة واللباس والشهوة وإرضاء غرائزه الحيوانية. يكون قد وقع في الضلالة والضياع. لأنه يكون قد عطل روحه الملكوتية وعقله الإنساني عن الحاكمية وسجنه في بيت النسيان. لا يمكن اعتبار هكذا فرد إنساناً بل هو حيوان بصورة إنسان. لديه عقل، ولكنه منزوٍ إلى حد لا يستطيع معه إدراك الفضائل والمكارم الإنسانية والعمل بها. لديه عينان وأذنان ولكنه لا يرى الحقائق ولا يسمعها. يعتبر القرآن الكريم هذا الإنسان كالحيوان بل وأضل سبيلاً، لأن الحيوان لا عقل له أما هو فإنه ذو عقل ولكنه لا يفهم.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

ويقول أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

ويقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

كم هو سيئوا الحظ مَن يضحون بأنفسهم الملكوتية وسعاداتهم وكمالاتهم الإنسانية في سبيل أهوائهم النفسية وحياتهم الحيوانية؟ يبدلون أنفسهم الإنسانية باللذات الحيوانية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «المغبون مَن شغل بالدنيا وفاته حظه من الآخرة»[4].

وقال أيضاً عليه السلام: «أكرم نفسك من كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبدل من نفسك عوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً وما خيرُ خيرٍ لا ينال إلا بشر ويسر لا ينال إلا بعسر»[5].

وقال أيضاً عليه السلام: «لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ومما لك عند الله عوضاً»[6].

لا يُختصر الإنسان في ذاته الحيوانية، بل لديه ذات إنسانية أيضاً، ولهذا الس... هو جوهر مجرد وملكوتي، جاء من عالم القدس ليسعى خلف قيم غير الرغ...

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.
(٣) سورة الجاثية، الآية ٢٣.
(٤) غرر الحكم ص ٦٤ حكمة ١٩٩٥.
(٥) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٤٠١ كتاب ٣١.
(٦) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٤٠١ خطبة ٣٢.

الحيوانية. إذا التفت الإنسان إلى باطن ذاته وإلى روحه الملكوتية وعرف نفسه بشكل كافٍ، سيشاهد بنفسه أنه جاء من عالم القدرة والكرامة والعلم والرحمة وعطاء النور والإحسان والخير والعدالة، وأنه جاء عموماً من عالم الكمال وأنه يتناسب مع ذلك العالم ومن سنخه. هناك يجد الإنسان رؤية مختلفة، وينتقل إلى عالم آخر. ينتقل إلى الكمال المطلق ويصبح متعلقاً بتلك القيم، ومع تعلقه بهذه القيم يسوق نفسه من مرتبة الحيوانية الدنيا حتى يطوي مدارج الكمال وينال مقام القرب الإلهي. هناك حيث يتضح له مكان القيم الأخلاقية. إذا رغب الإنسان بالقيم من قبيل: العلم، الإحسان، حب الخير، الإيثار، العدالة، العفو، الدفاع عن المحرومين والمستضعفين، الاستقامة، الصدق والأمانة، فذلك لأنه يرى نفسه من عالم الكمال ويجد أن هذه القيم تتلاءم مع مقامه الإنساني الشامخ. ولهذا يحبها، وحتى أنه يصبح جاهزاً للتضحية بذاته الحيوانية وبرغباته في سبيل الوصول إلى هذه القيم.

المكارم والقيم الأخلاقية عبارة عن مجموعة من الكمالات الروحية والمعنوية تدركها روح الإنسان الملكوتية، لأنها تتناسب مع حاجات ذاته الكمالية فيقول: يجب عليَّ القيام بها، الواجبات الأخلاقية تنبع من كرامة النفس وشرافتها، وهي للوصول إلى علو الذات وإلى الكمالات الروحية. عندما يقول: يجب أن أؤثر على نفسي في طريق الحق، فهو يعني: الإيثار مفيد من أجل تعالي وتكامل الذات، ويجب أن أصل إلى هذا الرقي. طريق ووسيلة التكامل المعنوي للبشر واحدة وكلها خُلقت لمعرفة القيم وأضدادها المتشابهة.

إذا رجع الإنسان إلى فطرته الطاهرة، وإلى الكمال المحبب إليه وابتعد عن الأهواء والهوس، استطاع معرفة الفضائل والقيم الأخلاقية ومثلها الرذائل الأخلاقية وأضداد القيم بسهولة ووضوح. كل الناس كذلك وفي كل الأزمنة، وإذا حُرم بعض البشر من هكذا إدراك مقدس فهذا يعود لأن أهواءهم ورغباتهم الحيوانية الملحة أطفأت أنوار عقولهم، وأصبحوا ميداناً لرغبات أنفسهم. والقرآن الكريم أيضاً يعتبر إدراك الفضائل والرذائل من الأمور الفطرية لدى الناس:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ

مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

جاء الأنبياء لهذا السبب، جاؤوا لإيقاظ فطرة الإنسان، ولتحويل شعوره غير العارف بالأخلاق، إلى شعور عارف بها. جاؤوا كي يرشدوا البشر إلى طريق المعرفة والالتفات إلى الفضائل والمكارم، وليعينوهم في طي مدارج الكمال ونيل مقام القرب الإلهي. جاؤوا كي ينبهوا الناس إلى مقام الإنسانية الشامخ وضرورة حفظ وإحياء القيم الإنسانية الراقية. جاؤوا كي ينبهوا الناس: لستم حيوانات بل بشر وأفضل من الملائكة. لا تتلاءم الأمور الدنيوية والمظاهر الحيوانية مع مقامكم الملكوتي الشامخ، فلا تبيعوها بها.

قيل لعلي بن الحسين عليه السلام: «مَن أعظم الناس خطراً؟ قال: مَن لم يرَ الدنيا خطراً لنفسه»[2].

إذا عرف الإنسان شخصيته الإنسانية، وقويت الذات الإنسانية فيه، أحييت فيه الفضائل والمكارم الأخلاقية، وتجنب الرذائل. عندها لا يسمح للإنسان أن يترك القيم الإنسانية ويسعى خلف أضدادها، كأن يترك الصدق ويتبع الكذب، أن يترك الأمانة ويتبع الخيانة، أن يترك عزة النفس ويرمي بنفسه في الذلة، أن يترك الإحسان ويسعى لإيذاء الناس.

قال علي عليه السلام: «مَن كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته»[3].

سعى الأنبياء دائماً لإيقاظ فطرة البشر حتى يتعرفوا على جوهر وجودهم، ويمتّنوا علاقتهم وارتباطهم بالله، ولكي يصرفوا كل ما لديهم من أجل تحصيل مقام الرضا والقرب من رب العالمين، ولكي يصل بهم الأمر إلى درجة يجعلون معها الأكل والشرب والنوم والنظر والتكلم والعمل والحياة والموت وكل ذلك أموراً أخلاقية مقدسة، وعندما يصبح الإنسان عبداً لله، ولا يكون لديه هدف إلا تحصيل رضاه، تصبح كل أعماله عبادة وأخلاقاً وقيماً:

---

(١) سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ١٠.

(٢) تحف العقول ص ٢٨٥.

(٣) غرر الحكم، ص ٣٦١ حكمة ١٣٢٣.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

ولهذا السبب فإن لمعرفة النفس قدراً مهماً في الإسلام.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «معرفة النفس أنفع المعارف»[٢].

وقال أيضاً عليه السلام: «مَن عرف نفسه جلّ أمره»[٣].

ليس المراد من معرفة النفس معرفة الهوية. بل بمعنى أن يعرف الإنسان مقامه الواقعي في عالم الخلقة فيعلم أنه ليس حيواناً ترابياً بل منحة من الروح الإلهية وأنه كان لائقاً ليكون خليفة لله وحامل الأمانة. هو موجود ملكوتي خلق عارفاً ومختاراً وحراً حتى يسير نحو الكمال اللامتناهي. ومع خلقه المميز تخمل تربية وبناء نفسه. ونتيجة لهذه المعرفة فهو يشعر بالكرامة والشرف، ويدرك قداسة وقيمة وجوده، ويصبح للفضائل والمكارم الأخلاقية لديه معنى وقيمة.

وبهذه الحال ينجو من اليأس والضياع وتكرار المكررات ويصبح للحياة طعم ومعنى وقداسة وهدف وجمال.

الحياة الباطنية:

للإنسان في هذه الدنيا حياة ظاهرية ترتبط بجسمه وبدنه. يأكل، يشرب، ينام يتحرك يعمل، ولديه في نفس الوقت حياة نفسية في باطن ذاته. فمع كونه يحيا في هذه الدنيا، فإنه يسير بما في باطنه إما نحو السعادة والكمال والنورانية وإما نحو سوء الحظ والشقاء والظلمة. إما يسير ويصعد ويتحرك إلى الله، أو ينحرف عن جادة الإنسانية المستقيمة ويتخبط في وادي الظلمة والرذالة الحيوانية. إما يعبر مدارج الكمال نحو النور والسرور والكمال والجمال، أو يهوي نحو الظلمة والعذاب. صحيح أن أكثر الناس غافلون عن هذه الحياة الباطنية ولكنها واقعية.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) غرر الحكم ص ٣٩٠ حكمة ١٠٤.

(٣) غرر الحكم ص ٣٥٢ حكمة ١٠١٠.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[1].

المعرفة أو عدمها لا يؤثران في الواقع: عندما تزال ستائر الظلمة المادية يوم القيامة عن عين الإنسان، يدرك واقعيته وفعليته.

يقول الله تعالى في القرآن يقال للإنسان يوم القيامة:

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[2].

يستفاد من هذه الآية أن الأمور المتعلقة بالآخرة موجودة في هذا العالم في باطن الذات، لكن الإنسان غافل عنها، وسوف تُزال ستائر الغفلة في عالم الآخرة فيرى الإنسان كل شيء. يستفاد من الآيات والروايات أن نفس الإنسان تكتسب في هذا العالم أشياءً، وما تكتسبه يبقى معها، وهذه الأمور مصيرية لمستقبل الإنسان. ومن باب المثال:

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[3].

ويقول أيضاً: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[4].

ويقول: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[5].

ويقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[6].

ويقول: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾[7].

---

(١) سورة الروم، الآية ٧.
(٢) سورة ق، الآية ٢٢.
(٣) سورة المدثر، الآية ٣٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية ١٦١.
(٥) سورة البقرة، الآية ٢٢٥.
(٦) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.
(٧) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[3].

ويقول: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[4].

ويقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[5].

وقال النبي ﷺ: «يا قيس! لا بدّ لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً ألامك ثم لا يحشر إلا معك، ولا تحشر إلا معه، ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إن صلح آنست، وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك»[6].

يعمل الإنسان في هذه الدنيا لتربية نفسه وتأمين حياته الأخروية. وتنمو النفس تدريجياً بواسطة العقائد، الملكات، المحبة، الارتباطات، التوجهات، والأنس، وبواسطة الأعمال التي تترك أثراً في النفس. ونحو صيرورتها ترتبط بهذه الأمور، المعارف والعقائد الحقة، الفضائل ومكارم الأخلاق، محبة الله والارتباط به، التوجه والأنس بالله، طاعته والسعي لتحصيل رضاه، والقيام بالعمل الصالح الذي أمر الله به، كل هذه الأمور توجه وتسيّر روح الإنسان الملكوتية في مدارج الكمال وتجعلها تسير وتصعد حتى تنال مقام القرب الإلهي. وبواسطة الإيمان والعمل الصالح في هذا العالم يجد الإنسان حياةً جديدةً، تظهر له جلية في عالم الآخرة.

---

(١) سورة الجاثية، الآية ١٥.
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ـ٨.
(٣) سورة النجم، الآيتان ٣٩ـ٤٠.
(٤) سورة البقرة، الآية ١١٠.
(٥) سورة الشعراء، الآيتان ٨٨ـ٨٩.
(٦) جامع السعادات ج١ ص ١٧.

يقول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[1].

وإضافة للنعم التي يمكن أن يتنعم بها الإنسان ويلتذ من خلال جسمه وبدنه فبإمكانه أن يتنعم بالنعم المعنوية، ويستطيع بواسطتها أن يربي روحه ونفسه فيبني حياته المعنوية والأخروية، التي تظهر نتائجها في عالم الآخرة.

قال أبو عبدالله عليه السلام: «قال الله تعالى: يا عبادي الصديقين تنعموا بعبادتي في الدنيا فإنكم تتنعمون بها في الآخرة»[2].

وقال علي عليه السلام: «مداومة الذكر قوت الأرواح»[3].

ونُقل عنه عليه السلام قوله: «عليك بذكر الله فإنه نور القلوب»[4].

تبنى الجنة ونعم الجنة أو تبنى النار وعذاب النار لكلِّ إنسان في هذه الدنيا، وذلك يكون عبر عقائده وأخلاقه وأعماله. حتى ولو كان غافلاً عنها، ولكن ستتجلى الحقيقة في عالم الآخرة وذلك ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾[5].

وفي حديث للإمام السجاد قال عليه السلام ما مضمونه: كونوا يقظين فمَن عادى أولياء الله، واتخذ ديناً غير دين الله، وعصى أمر ولي الله وعمل برأيه، ففي النار لهيب يأكل الأبدان، الأبدان التي فقدت أرواحها وتغلبت عليها شقاوتها. إنهم أموات لا يدركون حرارة النار، ولو كانوا أحياءً لشعروا بالألم وبحرارة النار. فيا أصحاب البصيرة. استعبروا واشكروا الله الذي هداكم[6].

ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[7].

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٥٣.
(٣) غرر الحكم ص ٣٨٧ حكمة ٣٩.
(٤) غرر الحكم ص ٢٥٥ حكمة ٥٨.
(٥) سورة الطارق، الآية ٩.
(٦) قرة العيون تأليف المرحوم الفيض ص ٤٦٦.
(٧) سورة النساء، الآية ١٠.

يهيأ الإنسان في هذا العالم لعالم الآخرة، النور والبصيرة، أو الظلمة والعمى. إذا كان أعمى في هذه الدنيا فسيكون كذلك في عالم الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(١).

يقول الأستاذ العظيم العلاّمة الطباطبائي (رضوان الله عليه): كان في النجف الأشرف شيخ عابد زاهد كان يكنى بـ (الشيخ العبود)، كان من أولياء الله ومن أهل السير والسلوك، لا عمل له إلا الذكر والعبادة، كان يذهب أحياناً إلى مقبرة وادي السلام ويقضي ساعات طوالاً يفكر، وكان يتمشى أحياناً. بين القبور، يدقق النظر في القبور الجديدة. ذات يوم التقاه مجموعة من الطلاّب وهو في طريق عودته من القبر، فسألوه عن أحواله وقالوا: يا شيخ عبود! ماذا وجدت في وادي السلام؟ قال: لم أجد شيئاً جديداً، فأصروا عليه أن يخبرهم، فقال: واجهني اليوم أمر عجيب؟ حاولت أن أدقق في القبور قديمها وجديدها فلم أجد فيها أفاع وعقارب، فسألت أحد القبور (لدينا في الروايات أن الميت يعذب بلسع الأفاعي والعقارب في القبر): لا أرى فيك عقارب وأفاع؟ فأجاب القبر: نعم لا يوجد عقارب وأفاع. بل أنتم الذين تأتون بها من الدنيا وتعذبون بها هنا.

الحياة النفسية والباطنية للإنسان هي حياة حقيقية واقعية. يطوي الإنسان في باطن ذاته مسيراً واقعياً يصل من خلاله إلى السعادة والكمال أو إلى الشقاء والهلاك. للسير والحركة واقعية تستمد قوتها من عقائد وأخلاق وأعمال الإنسان.

يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(٢).

فعلية أنفسنا ومحصول أعمالنا ومساعينا تبنى من خلال عقائدنا وأخلاقنا وملكاتنا وخصالنا وأعمالنا. وتظهر نتيجتها السيئة أو الحسنة في عالم الآخرة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٢.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

كيف نبني أنفسنا؟

ثبت من خلال العلوم أن روح الإنسان جسمانية الحدوث روحانية البقاء، يعني أن الروح الملكوتية هي نفس الصورة الجسمانية السابقة حيث تحركت وتكاملت حتى وصلت إلى المرتبة الدنيا للروح الإنسانية، يعني أنه أصبح إنساناً بالقوة، ولا تتوقف حركته وتكامله في تلك المرحلة، بل تستمر حتى آخر عمره. يكون في البداية مجرداً لكن ليس تاماً وكاملاً، بل مجرد يرتبط بجسمه وبدنه من ناحية مرتبته الوجودية الدنيا. وجود له مرتبتان: الأولى: مادية مرتبطة بالبدن، وتقوم بالأعمال المادية، ولهذا السبب تتصور له الحركة والاستكمال. والثانية: مجردة وأرفع من المادة، ولهذا السبب تؤدي الأعمال غير المادية. أحد جانبيه حيواني وجسماني، والآخر إنساني وملكوتي. ومع أنه ليس أكثر من حقيقة، ولكن لديه غرائز وصفات حيوانية ويقوم بأعمال الحيوانات. ولديه أيضاً غرائز وصفات إنسانية ويؤدي الأعمال الإنسانية.

هـذا المـوجـود العجيـب الـذي يقـول الله فـي حقـه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1]. لا يكون كاملاً في بداية وجوده، ولكنه يبني نفسه تدريجياً. فالعقائد والأفكار والملكات والخصال التي تنشأ من الحركات هي التي تبني هوية ووجود الإنسان وتوصله تدريجياً إلى الكمال. ليست الملكات أموراً عارضةً على وجود الإنسان، بل هي بانية لهويته ووجوده.

والملفت هنا أن الأفكار والعقائد والملكات لا تؤثر في وجود الإنسان فقط، بل وتؤثر في كيفية وجوده، أي وكما أن الأفكار والعقائد الصحيحة والمكارم الأخلاقية والخصال والملكات تنشأ نتيجة للعمل الصالح، وتوجه الإنسان في مراتب الكمال، والسير والصعود تدريجياً حتى توصله إلى مرتبة الإنسان الكامل والقرب من الله، فإن الجهالة، والعقائد الباطلة، والرذائل الأخلاقية، والملكات، والقساوات، التي تنشأ نتيجة للأعمال السيئة، تجر الإنسان نحو الضعف والانزواء، وتسيّره في مراحل الحيوانية تدريجياً، حتى تسقطه في النهاية في وادي الظلامة الحيواني. فيتبدل

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٤.

إلى حيوان نتيجة لاستحكام ونفوذ الملكات والصفات الحيوانية وتراكم الجهالات والقساوات في باطن الذات. نعم تصبح ذاته حيواناً وتظهر فيه الشخصية الحيوانية، فلا يعود إنساناً ويكون حيواناً بل وأسوأ من الحيوانات. لأنه صار كذلك عن طريق الإنسانية، وإن كان يحيا بصورة إنسان بحسب الظاهر، لكنه صار حيواناً في الباطن دون أن يعلم. حيوانية الحيوانات لا تختص بأشكالها فقط بل بواسطة النفوس الحيوانية واتباع الغرائز والأهواء الحيوانية بدون قيد أو شرط. لا يكون الذئب ذئباً لشكله فقط، بل نتيجة لتوحشه واتباع هذه الغريزة دون قيد أو شرط وعدم الإدراك والتعقل، ولهذا يُعدُّ ذئباً. إذا تغلبت الوحشية على شخص وأعمت عين العقل والإدراك، تحول هذا الشخص إلى ذئب واقعي في باطنه. وسيكون ذئباً أكثر افتراساً من الذئاب الوحشية، لأنه يستخدم عقله وإدراكه لمعونة صفته الوحشية. بعض الأشخاص يرتكبون جرائم لا ترتكبها الذئاب المفترسة، أليسوا ذئاباً؟ بلى إنهم ذئاب حقيقيون وإن كانوا لا يعلمون، ولو كان الآخرون يسمونهم أناساً. يوم القيامة وحيث تبلى السرائر عندما تزال الحجب عن العيون، تتضح بواطنهم، وليست الجنة مكاناً للذئاب، لا يمكن للذئب أن يكون ظهيراً لأولياء الله والعباد الإلهيين الصالحين. يجب أن يحيا هكذا ذئب في محيط مظلم أليم، فيعيش في النار وسط العذاب والألم.

إذن، فالإنسان في هذا العالم موجود غير متعين. يبني بنفسه شخصيته المستقبلية، فإما يصير إنساناً أفضل من الملائكة الإلهيين المقربين، أو يتبدل في الباطن ليصبح حيواناً مختلفاً؛ وهذا أمر ثبت في العلوم الرفيعة، ويدعي أولياء الله أنهم كاشفوه وشاهدوه، وقد أخبر به أيضاً النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام الذين هم العارفون الحقيقيون بالإنسان.

في الحديث النبوي: «يحشر بعض الناس على صور يحسن عندها القردة والخنازير»[1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في حق العالم الفاسد: «فالصورة صورة إنسان

(١) قرة العيون ص ٤٧٩.

والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه ولا باب العمى فيصد عنه وذلك ميت الأحياء»[١].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذر، يتوطؤهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب»[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[٣].

وقد فسر بعض المفسرين هذه الآية بقولهم: إن المراد من الوحوش قسم من الناس يحشرون يوم القيامة على صورة الحيوانات، إذ أن ليس للحيوانات تكليف وحشر ونشر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا* يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٤].

وقد فسر بعض المفسرين هذه الآية فقالوا: ينفصل الناس يوم القيامة عن بعضهم البعض ويحشر كل واحد مع صورته الباطنية.

وقد نُقل حديث جميل عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية.

وفي الحديث عن البراء بن عازب قال: كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله صلى الله عليه وآله في منزل أبي أيوب الأنصاري فقال معاذ: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا..﴾ الآيات، فقال صلى الله عليه وآله: «يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر» ثم أرسل عينيه ثم قال: «يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله من المسلمين وبدل صورهم، بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ٨٧.

(٢) بحار الأنوار ج٧ ص ٢٠١.

(٣) سورة التكوير، الآية ٥.

(٤) سورة النبأ، الآيتان ١٧ ـ ١٨.

من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم، فأما الذين على صورة القردة فالقتات (النماMون) من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السمت، وأما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصم والبكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون بألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء»[1].

إذن لا يمكننا اعتبار الأمور الأخلاقية أموراً جانبية وغير مهمة، بل هي أمور مهمة جداً ومصيرية تبني الحياة النفسية والباطنية للإنسان، وحتى أنها تؤثر في كيفية وجوده، فليس علم الأخلاق علم كيفية الحياة، بل هو علم كيفية الصيرورة أيضاً.

(١) تفسير مجمع البيان ج١٠ ص ٤٢٣ ـ روح البيان ج١٠ ص ٢٩٩ ـ نور الثقلين ج٥ ص ٤٩٣

القلب في القرآن

استعملت كلمة القلب في القرآن والأحاديث كثيراً ولها أهمية خاصة. ولكن لا تتخيلوا أن المراد بالقلب هذا الجسم الصنوبري الشكل الموجود في الجانب الشمالي من الجسد، والذي يرسل الدم إلى أنحاء الجسم بواسطة خفقانه المستمر وبذلك تستمر الحياة الحيوانية. لأنه تنسب في القرآن الكريم للقلب أمور لا تتناسب مع هذا الجسم الصنوبري الشكل. مثلاً:

١ ـ الفهم والتعقل: يقول تعالى في القرآن:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾[١].

٢ ـ عدم التعقل والفهم، يقول تعالى:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾[٢].

ويقول: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[٣].

٣ ـ الإيمان: يقول تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُ ﴾[٤].

٤ ـ الكفر وعدم الإيمان، يقول تعالى:

﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[٥].

ويقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[٦].

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.
(٣) سورة التوبة، الآية ٨٧.
(٤) سورة المجادلة، الآية ٢٢.
(٥) سورة النحل، الآية ٢٢.
(٦) سورة النحل، الآية ١٠٨.

٥ ـ النفاق، يقول تعالى:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[1].

٦ ـ الهداية، يقول تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

ويقول: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[3].

٧ ـ الغفلة يقول تعالى:

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[4].

٨ ـ الطمأنينة والسكينة، يقول تعالى:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[5].

ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾[6].

٩ ـ الاضطراب والشك، يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[7].

١٠ ـ الرحمة والرأفة، يقول تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾[8].

ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[9].

---

(١) سورة التوبة، الآية ٦٤.

(٢) سورة التغابن، الآية ١١.

(٣) سورة ق، الآية ٣٧.

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٨.

(٥) سورة الرعد، الآية ٢٨.

(٦) سورة الفتح، الآية ٤.

(٧) سورة التوبة، الآية ٤٥.

(٨) سورة الحديد، الآية ٢٧.

(٩) سورة الأنفال، الآيتان ٦٢ ـ ٦٣.

١١ ـ الفظاظة وغلظة القلب، يقول تعالى:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[١].

إذن يتمتع القلب بمكانة مميزة في القرآن الكريم، وتنسب أكثر الأعمال النفسية له من قبيل: الإيمان، الكفر، النفاق، التعقل، الفهم، عدم التعقل، التقوى، قبول الحق، عدم قبول الحق، الهداية، الضلالة، الخطأ، العمد، الطهارة، الخباثة، الرأفة، الغلظة، الألفة، الذكر، الغفلة، الرعب، الغيظ، الشك، الترديد، الرحمة، القساوة، الحسرة، السكينة، التكبر، الحسد، العصيان، الاضطراب. كما تنسب أمور أخرى له من هذا القبيل. مع أنه جسم صنوبري الشكل، فلا يمكنه أن يكون منشأ كل هذه الآثار، آثار نفس وروح الإنسان.

إذن يجب أن نقول: المراد من القلب ذلك الجوهر الملكوتي المجرد، الذي ترتبط به إنسانية الإنسان.

مقام القلب في القرآن موجود في مرتبة رفيعة جداً إلى درجة أنه عندما يتطرق الحديث إلى الوحي الذي هو ارتباط الإنسان بربه يأتي على ذكر القلب، يقول الله تعالى مخاطباً نبيه في القرآن:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٣].

مقام القلب رفيع إلى درجة يمكنه رؤية ملك الوحي وسماع كلامه. يقول تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[٤].

سلامة ومرض القلب:

ترتبط حياتنا بالروح والقلب، وهو الذي يدير البدن. كل الجوارح والأعضاء مسخرة له وكل الأعمال والحركات تنبع من القلب. إذن ترتبط سعادة الإنسان ويرتبط

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ٩٧.

(٤) سورة النجم، الآيتان ١٠ ـ ١١.

شقاؤه بأوضاع القلب، ويستفاد من الآيات والروايات أنه وكما يكون جسد الإنسان سالماً أحياناً ومريضاً أحياناً أخرى فهكذا يكون القلب أيضاً. يقول الله تعالى في القرآن:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

ويقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[2].

ويقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[3].

وكما تلاحظون تُنسب السلامة في هذه الآيات للقلب، حيث تعتبر السعادة الأخروية للإنسان منوطة بذلك حين يعود الإنسان إلى ربه بقلب سليم خاشع. ومن جهة ثانية فهو يعرّف بعض القلوب بالقلوب المريضة، ومن باب المثال يقول تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[4].

ويقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[5].

ويقول: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[6].

ويقول: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[7].

فقد عرَّف الكفر والنفاقَ والاستقامة في هذه الآيات بعنوان مرض القلب.

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ٨٨-٨٩.
(٢) سورة ق، الآية ٣٧.
(٣) سورة ق، الآيات ٣١-٣٣.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٠.
(٥) سورة التوبة، الآية ١٢٥.
(٦) سورة الأحزاب، الآية ١٢.
(٧) سورة المائدة، الآية ٥٢.

يستفاد من هذه الآيات ومن مئات الأحاديث والروايات الواردة عن النبي الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام أن قلب وروح الإنسان مثل بدنه لديهما سلامة ومرض وما من داعٍ كي نحمل مرض وسلامة القلب على المجاز. فالله خالق القلوب والنفوس، والنبي والأئمة عليهم السلام العارفون بالبشر والقلب، وهم مَن يخبر بمرض بعض القلوب، فلماذا لا نحمل الأمر على الحقيقة؟ إنهم العارفون الحقيقيون بالإنسان. يعرفون بأمور من قبيل: الكفر، النفاق، عدم قبول الحق، التكبر، الحقد، الغضب، الوشاية، الخيانة، العجب، الخوف، سوء الظن، التهمة، قول السوء، الغيبة، العجلة، الظلم، الغلو، الغرور، البخل، الحرص، الاستعابة، الكذب، حب الجاه، الرياء، الحيلة، سوء الظن، القساوة، ضعف النفس وغيرها من الصفات السيئة، وقد عدوا كل هذا أمراضاً قلبية وروحية. الذين يحدثون وقلوبهم هكذا لا يقتربون بقلب سليم من الله، حتى تشملهم الآية: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

لا يمكننا استصغار أمراض القلب والنفس وعدم الاعتناء بها، بل هي أخطر بكثير من أمراض الجسم ويصعب علاجها أكثر. في الأمراض الجسمية، يختل توازن البدن ويصاب الجسد بالألم والتعب، حتى أنه قد يفقد الإنسان عضواً من أعضاء بدنه، ولكن هذه الأشياء محدودة على كل حال ولا تستمر أكثر من مدة العمر، لكن الأمراض القلبية والنفسية فيها الشقاء والعذاب الأُخروي، الألم والعذاب الذي يدخل إلى أعماق القلب ويحرق الروح. القلب الغافل عن الله في هذا العالم، والذي لا يرى العلامات الإلهية، والإنسان الذي يقضي عمره في الضلالة والكفر والمعصية ويعيش في العمى، فإنه يبعث يوم القيامة بهذا العمى، ولن يكون مصيره إلا العذاب الأليم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2].

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) سورة طه، الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

ويقول أيضاً: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

ويقول: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

ويقول: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ ﴾[3].

وقد تتعجبون من هذا الكلام فتقولون: كيف يمكن أن تكون عين الباطن للإنسان عمياء يوم القيامة؟ وهل لدينا أذن وعين وغير هاتين الظاهرتين؟ نعم. فقد أخبر خالق البشر والعارفون بهم بأن لقلب وروح الإنسان عيناً وأذناً أيضاً. ولكن عين ولسان وأذن من سنخه. نفس الإنسان موجود مرموز، ولديه حياة خاصة في باطنه، وللنفس عالم خاص بها، وفي ذلك العالم نور وظلمة أيضاً؛ يوجد صفاء وطهارة كما يوجد كدورة وقذارة. يوجد نظر وسمع ويوجد عمى وصمم. لكن نور وظلمة ذلك العالم ليس من سنخ وظلمة عالم الدنيا. الإيمان بالله والمعاد والنبوة والقرآن هو نور عالم النفس. يقول الله تعالى في القرآن: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

ويقول: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[5].

ويقول: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[6].

لقد أخبرنا الله أن الإسلام والقرآن والإيمان والأحكام والقوانين الإسلامية نور وأن اتباع هذه الأمور ينير القلب، ينير القلب في هذا العالم وتظهر نتائج ذلك في

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٩٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.
(٥) سورة المائدة، الآية ١٥.
(٦) سورة الزمر، الآية ٢٢.

عالم الآخرة، وقد أخبرنا الله أن الكفر والنفاق والمعصية والامتناع عن الحق ظلمة، وأن ذلك يظلم القلب ويلوثه، وتظهر نتائج ذلك في الآخرة. لقد بُعث الأنبياء لهذا السبب، بُعثوا كي يخرجوا الناس من ظلمات الكفر وليدخلوهم في دائرة الإيمان والنور. يقول الله تعالى في القرآن:

﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(1).

تصبح نفوس وقلوب المؤمنين نورانية في هذا العالم وذلك من خلال نور الإيمان وتزكية النفس ومكارم الأخلاق وذكر الله والعمل الصالح، يرون ويسمعون الحقائق بأعين وآذان بواطنهم، ويتحركون في مدارج الكمال نحو القرب إلى الله. عندما تذهب هذه النفوس من هذا العالم فسيكونون كتلة من النور والحبور والسرور والجمال في عالم الآخرة، وسيستفيدون في عالم الآخرة من هذا النور الذي هيأوه لأنفسهم في الدنيا. يقول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(2).

نعم نور عالم الآخرة يُهيأ في هذا العالم، ولهذا السبب ليس من نور للكفار والمنافقين في عالم الآخرة:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾(3).

القلب في الأحاديث:

ذكر أئمة الدين العارفون الحقيقيون بالبشر أموراً لافتة في حق قلوب البشر نشير إلى بعضها:

قُسمت القلوب في بعض الأحاديث إلى ثلاثة أقسام. يقول الإمام محمد

---

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.

(2) سورة الحديد، الآية 12.

(3) سورة الحديد، الآية 13.

الباقر عليه السلام: «القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعتبر على شيء من الخير وهو قلب الكافر وقلب فيه نكتة سوداء، فالخير والشر يعتلجان، فما كان منه أقوى غلب عليه وقلب مفتوح فيه مصباح يزهر فلا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن»[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أبي يقول: «ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال حتى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه وأعلاه أسفله»[2].

وعن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «ألا إن للعبد أربع أعين: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه وعينان يبصر بهما أمر آخرته. فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته، وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه»[3].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: إن للقلب أذنين، روح الإيمان يساره بالخير، والشيطان يساره بالشر فأيهما ظهر على صاحبه غلبه»[4].

وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «شر العمى عمى القلب»[5].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء. فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى الخير أبداً وهو قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[6]»[7].

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥١.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥٤.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥٣.
(٤) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥٣.
(٥) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥١.
(٦) سورة المطففين، الآية ١٤.
(٧) الكافي ج٢ ص ٢٧٣.

وقال علي عليه السلام: «ومَن قل ورعه مات قلبه ومَن مات قلبه دخل النار»[1].

وفيما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام ابنه قال: «يا بني إن من البلاء الفاقة، وأشد من ذلك مرض البدن، وأشد من ذلك مرض القلب. وإن من النعم سعة المال، وأفضل من ذلك صحة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب»[2].

قال أنس بن مالك: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ناجى داوود ربه فقال: إلهي لكل ملك خزانة فأين خزانتك؟ قال جل جلاله: لي خزينة أعظم من العرش وأوسع من الكرسي وأطيب من الجنة وأزين من الملكوت. أرضها المعرفة، وسماؤها الإيمان، وشمسها الشوق، وقمرها المحبة، ونجومها الخواطر، وسحابها العقل، ومطرها الرحمة، وأثمارها الطاعة، وثمرها الحكمة، ولها أربعة أبواب: العلم، والحلم، والصبر، والرضا. ألا وهي القلوب»[3].

ذكر عارفو القلب الإلهيون في هذه الأحاديث أموراً ملفتةً جداً تتعلق بالقلب نشير إلى بعضها. ومن جملة ما ذكروه أن القلب ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ القلب الكافر: حول القلب الكافر قالوا إنه منحرف ولا خير فيه أبداً، انحرف هذا القلب عن فطرته الأساسية، فلم يعد يهتم بأمور العالم العلوي، فغدا جل اهتمامه بأمور العالم السفلي، ولهذا السبب فهو لا يرى الله والعالم الأخروي، ولا يتصور الخير والصلاح والفلاح، لأن مكان أعمال الخير في مدارج الكمال والقرب إلى الله، حيث أنها في جهة الله ولجلب رضاه. لكن الكافر انقلب قلبه حتى لا يرى الله، وليس له من هدف من كل أعماله إلا الدنيا، فهو يريد الوصول إلى الدنيا، لا الوصول إلى الله والقرب منه. كان لهذا القلب عين في فطرته الأصلية لكنه أعماها فلم يعد يرى أوضح الحقائق أي خالق العالم. هو أعمى دون إيمان في الدنيا وسيحشر أعمى يوم القيامة. متعلق بأمور الدنيا في هذا العالم، وسيبقى تعلقه بأمور الدنيا في عالم الآخرة، ولكنه لن ينالها وسيفارقها في النار. لا يبزغ نور الإيمان في

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥١.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥٩.

هذا القلب، بل هو في ظلام داكن.

٢ ـ وحول قلب المؤمن، فإن قلبه كامل وصالح. باب قلب المؤمن مفتوح على العالم العلوي وعلى عالم الغيب. أضيء فيه مصباح الإيمان ولن ينطفىء أبداً. عينا قلبه مبصرتان يرى بهما عالم الغيب وأمور الآخرة، ويكون توجه هكذا قلب دائماً نحو الكمال والجمال والخير المطلق، يعني الله المتعال، يرغب بالقرب منه. يريد الله، ويتحرك نحوه بمكارم الأخلاق والعمل الصالح. هكذا قلب هو أوسع من العرش والكرسي وأفضل من الجنة، ويمكنه أن يكون الخزينة الإلهية ومركز سطوع النور الإلهي. أرض هذا القلب معرفة الله وسماؤها الإيمان وشمسها شوق لقاء الله وقمرها محبة الله. العقل حاكم في جسد المؤمن، حيث ينزل مطر الرحمة الإلهية نحو القلب وثمره العبادة والطاعة. لا مكان في هذا القلب لغير الله وملائكته المقربين. هو نور وشوق وبهجة وصفاء، وسيحشر هكذا في عالم الآخرة «طوبىٰ لأهله».

٣ ـ قلب المؤمن يتلوث أحياناً بالمعصية، ولكنه ليس مظلماً ومغلقاً، بل هو مضيء بنور الإيمان ومفتوح لتلقي الكمال والإفاضات الإلهية. لكن تظهر فيه نقطة سوداء نتيجة للمعصية، وبهذه الوسيلة يجد الشيطان لنفسه منفذاً. لم تعمَ عين باطنه، لكنها مرضت نتيجة للمعصية وأصبح في معرض العمى، للملائكة طريق في هذا القلب وللشياطين أيضاً. تدخل الملائكة من باب الإيمان وتدعوه إلى الخير، ويدخل الشيطان من النقطة السوداء ويدعوه للسوء، وتكون الملائكة والشيطان فيه في نزاع وجدال دائم. تريد الملائكة السيطرة على كل قلبه بالعمل الصالح وطرد الشيطان، ويسعى الشيطان لزيادة الظلمة في القلب من خلال المعصية ويسعى لطرد الملائكة، يسعى للسيطرة على كل القلب ولسد باب الإيمان، يبقى هذان الإثنان في نزاع دائم حتى يتغلب الواحد منهما على الآخر، أما ما هو مقدار الانتصار؟ على هذا تتوقف الحياة الباطنية، وعليه يتوقف المصير الأخروي للإنسان، ومن هنا تنشأ ضرورة مجاهدة النفس. وسنبحث هذا الأمر قريباً.

قساوة القلب:

يتمتع القلب في بداية وجوده بالصفاء والنورانية والرحمة والرأفة الخاصة. ينزعج لآلام الآخرين وحتى لآلام الحيوانات، يرغب أن يحيا الآخرون بسعادة وهناء، ويلتذ بالإحسان للآخرين، متوجه لله بفطرته الطاهرة، يلتذ بالدعاء والتضرع والعبادة والتوسل وأعمال الخير، ويتأثر مباشرة من ارتكاب المعصية ويندم.

لو لبّى دعوة الفطرة لأصبح يوماً بعد يوم أكثر نورانية وصفاءً ورحمة ورأفة. يأنس بعبادة الله أكثر يوماً بعد يوم وبالدعاء. أما لو تجاهل أحاسيسه وعواطفه الداخلية وخالفها، فإنه سيسير نحو النقصان تدريجياً إلى درجة أنه قد يقضي عليها نهائياً. إذا تألم لما يصيب الآخرين دون أن يبذل لهم شيئاً أنس بهذه الأمور شيئاً فشيئاً حتى لا يعود يتأثر بها أبداً، بل قد تصل به الحال إلى الالتذاذ بفقر وجوع واستضعاف الآخرين، بل وحتى بسجنهم وعذابهم وقتلهم.

يندم الإنسان وينزعج في البداية من ارتكاب المعاصي، ولكنه إذا ارتكب المعصية مرة فإنه يصبح في المرة الثانية أكثر استعداداً لها، وللثالثة أكثر، وإذا استمر في المعصية وصل إلى درجة لم يعد معها يشعر بالندم من ارتكاب المعصية، بل ويعتبرها نصراً يفرح به. تصبح قلوب هكذا أشخاص سوداء منحرفة وتقسو بحسب تعبير القرآن، يسيطر الشيطان على قلوبهم ويُخرج الملائكة الإلهيين المقربين، ويغلق أبواب النجاة عليهم فلا يبقى أمل في توبتهم ورجوعهم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

ويقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإن

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٣.
(٢) سورة الزمر، الآية ٢٢.

أذنب وثنى خرج من تلك النكتة سواد، فإن تمادى في الذنوب اتسع ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما جفت الدموع إلا لقساوة القلوب وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من علامات الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وشدة الحرص في طلب الرزق، والإصرار على الذنوب»[3].

ولهذا كان الأئمة عليهم السلام يستغيثون بالله من قساوة القلب في أدعيتهم ومن باب المثال:

قال علي بن الحسين عليه السلام في دعائه: «إلهي إليك أشكو قلباً قاسياً، مع الوسواس متقلباً، والرين والطبع متلبساً، وعيناً عن البكاء من خوفك جامدة، وإلى ما تسرُّها طامحة»[4].

إذن مَن كان راغباً بسلامة قلبه وسعادته، فعليه أن يتجنب ارتكاب الذنوب وحتى الصغيرة منها، وأن يعود نفسه على أعمال الخير من قبيل: العبادة، والدعاء، والتوسل، والتضرع لله، والرحمة، والرأفة، والإحسان، وعون الآخرين، والدفاع عن المحرومين والمظلومين، حب الخير والتعاون في أمور الخير والرغبة بالعدالة، حتى يعتاد على أعمال الخير تدريجياً، فيتكامل نور وصفاء الباطن ويصبح قلبه مكاناً خاصاً بملائكة القرب الإلهيين.

أطباء القلب:

عرفنا في ما سبق أن القلوب كالأجسام لديها مرض وسلامة، وأن السعادة الأخروية للإنسان ترتبط بهذا الأمر، وهي تتحقق عندما يغادر الإنسان الدنيا بقلب

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٣٦١.

(٢) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٣٥٤.

(٣) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٣٤٩.

(٤) مفاتيح الجنان، المناجاة الثانية.

سليم. المهم لنا الآن أن نطلع ونتعرف على سلامة القلب ومرضه، أن نتعرف على علائم المرض، حتى ندرك أمراضه المختلفة، أن نتعرف على علل وعوامل المرض حتى نتجنبها، وحتى نسعى للحفاظ على سلامة أنفسنا. ولكن السؤال الذي يُطرح هنا، هو هل يمكننا أن نكون مكتفين في هذا المجال، أو أنه نحتاج إلى الأنبياء؟

لا مجال للشدة هنا في كوننا غير مطلعين بشكل كافٍ على خصائص النفس والأسرار والرموز الموجودة في هذا الموجود الملكوتي. لسنا مطلعين على الحياة النفسانية والباطنية لأنفسنا، لا نعرف عوامل مرض النفس، ولا نشخص علامات المرض بشكل جيد، لسنا مطلعين بشكل كافٍ على الأنواع المختلفة والمتفرقة للأمراض وطرق علاجها، ولهذا السبب نحن بحاجة إلى الأنبياء حتى يرشدونا في طريق الهداية ويقودونا. الأنبياء هم الأطباء والعارفون الواقعيون بالأرواح، ويعلمون آلام وطرق علاج النفوس بشكل جيد، وذلك من خلال التأييدات والإفاضات الإلهية. تعلموا في مدرسة الوحي كيف يكونون عارفين بالبشر وبالأرواح، وهم مطلعون بشكل كاملٍ على أسرار ورموز هذا الموجود الملكوتي، يعرفون الصراط المستقيم للتكامل والسير والصعود إلى الله، وهم مطلعون بشكل كافٍ على عوامل وعلل الانحراف، ولهذا فهم قادرون على معونة البشر لطي هذا الطريق، وقادرون على منعهم من الوقوع في الانحرافات.

نعم، الأنبياء أطباء إلهيون، قدّموا الدعم اللازم طوال التاريخ للبشر، وهو دعم أهم وأكثر قيمة من خدمات أطباء الأجسام. الأنبياء، هم الذين اكتشفوا الجوهر الملكوتي للروح وعرفوه للناس وأحيوا شخصياتهم الإنسانية. هم الذين عرفوا البشر على المعارف والمعنويات وعلموهم مكارم الأخلاق، وأرشدوهم إلى طريق السير والسلوك والقرب من الله. هم الذين عرفوا البشر على الله وعلى عالم الغيب، وبذلوا كلّ جهودهم في سبيل تزكية وتهذيب وتربية النفوس. وإذا استطعنا أن نجد بين البشر عاطفة ومحبة ومكارم أخلاق ومعنويات وصفات حسنة، فذلك يعود لبركة السعي الدؤوب والجهد المستمر للأطباء الإلهيين، وخصوصاً خاتم الأنبياء. لو لم يكن الأنبياء لما كان وضع البشر كما هو عليه حتماً.

نعم، الأنبياء أطباء صادقون، وهم قيمة البشر، ولهذا فقد عرفوا في الأحاديث بأنهم أطباء.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حق نبي الإسلام: محمد صلى الله عليه وآله «طبيب دوارٌ بطبه قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي وآذان صم وألسنة بكم، متبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة والصخور القاسية»[1].

عرّف القرآن بأنه الدواء الشافي، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

ويقول أمير المؤمنين أيضاً في حق القرآن الكريم:

«وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور»[4].

ويقول عليه السلام في مكان آخر: «واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والغي والضلال»[5].

نعم، نبي الإسلام أفضلَ أطباء النفوس، يعرف آلامنا وعلاجنا، وهو الذي أتى بالقرآن الذي هو أفضل علاج لشفاء الأمراض النفسية وقد جعله بيننا، إضافة إلى هذا فقد بيّن لنا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام أنواع الأمراض وطرق الوقاية

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٠٨.
(٢) سورة يونس، الآية ٥٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٢.
(٤) نهج البلاغة، خطبة ١١٠.
(٥) نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

منها وكيفية معالجتها، وأبقوا لنا ذلك في أحاديث. إذن إذا كنا نرغب بسلامة أنفسنا وسعادتها، فعلينا أن نستفيد من القرآن والأحاديث، وأن نسعى في مراعاة النظافة الداخلية والحفاظ على سلامة النفس. وأن نعرف أمراضنا النفسية بالاستفادة من القرآن ومن إرشادات النبي والأئمة الأطهار، وأن نسعى لعلاجها بجد ودأب. وإذا قصرنا في هذا الأمر الحياتي والمصيري خسرنا خسراناً مبيناً، سيظهر لنا في عالم الآخرة.

تهذيب وتكميل النفس:

علمنا فيما مرّ أن تزكية وتهذيب النفس من أكثر الأمور ضرورة وإلحاحاً، لأن سعادة الدنيا والآخرة ترتبط بهذا الأمر. وقد أرسل الأنبياء الإلهيون للاستمرار في الحث على اتباع هذا الهدف.

يجب علينا أن نقوم بتهذيب النفس في مرحلتين:

المرحلة الأولى: تهذيب النفس من السيئات، أي تصفية القلب من الأخلاق السيئة واجتناب المعاصي، ويسمى هذا العمل تصفية وتخلية أيضاً.

المرحلة الثانية: تربية وتكميل النفس، وهذا يتم من خلال تحصيل العلوم والمعارف الحقة، والفضائل والمكارم الأخلاقية، والقيام بالعمل الصالح. ويقال لهذا العمل تحلية أيضاً.

لا بد من الأمرين لعمليةِ بناء النفس، لأنه إن لم تكن أرضية النفس منزهة عن السيئات، فلن يكون لديها قابلية لتنمية العلوم والمعارف الحقة والمكارم الأخلاقية والعمل الصالح. كيف يمكن للقلب الملوث الذي هو مستقر الشيطان أن يكون مكان سطوع الأنوار الإلهية؟ وكيف يستطيع ملائكة القرب الإلهيون أن يجدوا طريقاً إلى هذا القلب. ومن ناحية ثانية، إذا لم يكن الإيمان والمعرفة والفضائل الأخلاقية والأعمال الصالحة، فكيف ستتكامل نفس الإنسان؟ لهذا يجب اجتياز المرحلتين في عملية بناء الذات، وأن يجتازا معاً. فيُطهّر وينظف القلب من ناحية، ويغرس العمل الصالح فيه من ناحية ثانية. يُخرج الشيطان منه ويُدخل الملك إليه. يطرد غير الله منه، ويجذب الإفاضات والإشراقات الإلهية إليه. كلا المرحلتين لازمتان وتجب

الواحدة منهما للأخرى. لا يمكن البدء بتصفية القلب وترك آداء العمل الصالح لما بعد، تماماً كما أنه لا يمكن غض الطرف عن السيئات الخارجية والاشتغال بالعمل الصالح، بل يجب القيام بكلا الأمرين في زمان واحد. ترك السيئات والأخلاق السيئة يدعو الإنسان إلى الحسنات، والقيام بالعمل الصالح يبعث على ترك المعصية والأخلاق السيئة أيضاً. لكننا مضطرون خلال البحث لتفكيك المرحلتين عن بعضهما البعض. ولهذا نقدم بحث تهذيب النفس.

القسم الأول

التخلية أو تهذيب النفس



تهذيب النفس

يجب علينا في هذه المرحلة القيام بثلاثة أمور:

ألف: تهذيب النفس من العقائد الباطلة والأفكار الخاطئة والخرافات.

ب: تهذيب النفس من الرذائل والأخلاق السيئة.

ج: ترك المعاصي والذنوب.

العقائد الباطلة وخرافات الجهالة والضلالة أمور تسبب ظلامة النفس، وتحرف المرء عن صراط التكامل المستقيم والقرب من الله. لا يعرف أصحاب العقائد الباطلة طريق التكامل، فهم يتيهون في أودية الضلالة والضياع، ولن يصلوا حتماً إلى أهدافهم. كيف يمكن للقلب المظلم أن يكون مكان انبعاث الأنوار الإلهية القدسية؟ كما أن الأخلاق السيئة تقوي الملكات والغرائز الحيوانية، وتجر روح الإنسان تدريجياً نحو الانزواء والظلمة. لن يصل هكذا إنسان إلى هدف الإنسانية الذي هو الكمال والقرب إلى الله. لأن ارتكاب المحرمات والمعاصي يلوث النفس ويزيد في ظلامها، ويحرفها عن مسير التِكامل والتقرب إلى الله. لن يصل هكذا فرد إلى الهدف النهائي والغاية. إذن تهذيب النفس أمر مصيري بالنسبة لنا، وهو يعتبر من أشد الأمور ضرورةً ووجوباً، إذن لا بد لنا أن نتعرف في البداية على الأخلاق السيئة والذنوب، ثم نبدأ بالعمل، فنطهر نفوسنا منها، ولحسن الحظ ليس لدينا إشكال في القسم الأول، لأن أطباء النفوس العارفين الإلهيين الحقيقيين، أي الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام، قد عرفوا ووصفوا الأخلاق السيئة بل وبيّنوا لنا سبل العلاج منها. عددوا لنا المعاصي والذنوب وعلمونا كيفية تركها. كلنا يعرف الأخلاق السيئة، ونحن عارفون بمساوئها. نحن نعلم أن النفاق، الاستكبار، الحسد، الحقد، الغضب، الخيانة، العجب، سوء الظن، الفتنة، التهمة، الكذب، الشتم، الفحش،

الظلم، قلة الثقة، الخوف، البخل، الحرص، الغيبة، التجسس، حب الدنيا، حب الجاه والمقام، الرياء، الخداع، قساوة القلب، التكبر، ضعف النفس، وغيرها من الصفات المشابهة، أمور سيئة ووضيعة. وإضافة إلى أننا ندرك مساوئها بالفطرة يوجد مئات الآيات وآلاف الأحاديث التي تشهد على سوئها وقبحها. أحاديثنا غنية في هذا المجال إلى درجة لا يمكن أن نشعر معها بأي نقص. ونفس الأمر ينطبق على سائر المحرمات، فقد ورد شرحها وتفصيلها في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، كما وردت الإشارة إلى عقوباتها وحدودها، ونحن نعلم بأكثرها. إذن لا مشكلة لدينا في معرفة الأخلاق السيئة والذنوب الصغيرة والكبيرة. ومع هذا فغالباً ما نكون أسرى للشيطان والنفس الأمّارة، ولا نوفق في تهذيب نفوسنا من الأخلاق السيئة. ويشكل هذا بالنسبة لنا مشكلةً أساسية لا بد لنا من إيجاد حلٍ لها.

بحسب وجهة نظري فإن أهم عامل في هذه القضية أمران: الأول: إننا لا نعرف أمراضنا الأخلاقية، ولا نعترف بكوننا مرضى. الثاني: إننا نستصغر الأمراض الأخلاقية حيث نحن غافلون عن نتائجها وعواقبها السيئة والأليمة. ولهذا السبب فنحن لا نجدّ في علاجها. هذان العاملان المهمان هما اللذان جعلانا غافلين عن إصلاح وتهذيب أنفسنا، ولا بد لنا من البحث في هذا الأمر وإيجاد سبل العلاج.

الغفلة عن المرض:

نحن غالباً لا ندرك الأمراض الأخلاقية في أنفسنا، ولكن لو رأينا خلقاً سيئاً في الآخرين لا في ذواتنا أدركنا سوءه بشكل جيد، مع أنه يمكن أن يكون لدينا نفس الخلق بل وأسوأ منه، ولكننا لا نلتفت إليه. مثلاً، نعتبر تضييع حقوق الآخرين أمراً سيئاً فننفر من المعتدي، ولكننا لا نلتفت إلى كوننا كذلك. لا نعتبر ما نقوم به تعدياً بل وقد نصوره عملاً حسناً، وهكذا نقنع أنفسنا، وهكذا بالنسبة لسائر الصفات السيئة. ولهذا لا نسعى لإصلاح أنفسنا أبداً، لأن المريض إذا لم يدرك أنه مريض فلن يسعى للعلاج، ولأننا لا نعتبر أنفسنا مرضى فلسنا في وارد علاجها، وهذا أكبر مشاكلنا. إذن لو أردنا أن نكون سعداء فعلينا أن نسعى لحل هذا الإشكال، فنبذل أقصى الجهد وبأي وسيلة ممكنة للتعرف على أمراضنا النفسية.

سبل معرفة أمراض النفس:

من الأفضل أن نشير هنا إلى السبل والوسائل التي تمكننا من التعرف إلى الأمراض النفسية المختلفة إذا ما أحسنا الاستفادة منها.

وسائل تشخيص الأمراض النفسية:

هنا من الأفضل أن نشير إلى الأساليب والوسائل التي يمكننا الاستفادة منها في معرفة الأمراض النفسية المختلفة:

١ - تقوية العقل: وهو مرتبة الإنسان الملكوتية الرفيعة، وأكمل جذور وجوده، وبه يمتاز الإنسان عن سائر المخلوقات، ويسمى بحسب مصطلحات القرآن والأحاديث بأسماء مختلفة: الروح، النفس، القلب، والعقل، وكل هذه الأسماء تكشف عن حقيقة واحدة، ولكن يسمى بأسماء مختلفة باعتبار الجهات، ويسمى عقلاً لأنه منشأ التعقل والتفكر.

يتمتع العقل في كتب الأحاديث بموقعية ممتازة، وحتى أنه قد خُص بفصل خاص به. ويُعرَّف العقل في الأحاديث بأنه أشرف الموجودات ومنشأ تكاليف العقاب والثواب، ومن باب المثال نذكر:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أحب إليَّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحِب، أما إني إياك آمر وإياك أنهي وإياك أعاقب وإياك أثيب»[١].

يفكر الإنسان بواسطة عقله ويدرك الحقائق به، وبه يشخص الحسن والسّيىء، المفيد والمضر، يعرف ربه بواسطة عقله، ويعرف نفسه، يشخص وظائفه، ولو لم يكن لدى الإنسان عقل لما كان بينه وبين الحيوان أي فرق، ولهذا يؤكد الله سبحانه على التعقل والتفكر والتأمل والتفقه في القرآن الكريم، ويطلب من الإنسان أن يفعّل عقله. نذكر من باب المثال:

---

(١) الكافي ج١ ص١٠.

يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾[2].

ويقول: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

يعتبر الله مَن لديه عقل ولسان وأذن دون أن يستفيد منها في سبيل التعرف على الواقعيات في مرتبة الحيوانات، بل وأسوأ منها، لأنه لا يستعمل عقله.

يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

إذا كان للإنسان من حُسن فهذا يعود لعقله. يعرف ربه بواسطة عقله، وبذلك يعبده، يعتقد بالمعاد ويتجهز له، يعتقد بالأنبياء ويطيعهم، يتعرف على مكارم الأخلاق ويربي نفسه عليها، يعرف الرذائل ويتجنبها، ولهذا السبب جُلل العقل وأُعطي أهمية خاصة في القرآن الكريم والأحاديث نذكر منها:

عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه لسائل: «قلت له ما العقل؟ قال عليه السلام: ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان»[5].

وعنه عليه السلام أيضاً: «مَن كان عاقلاً كان له دين ومَن كان له دين دخل الجنة»[6].

وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام (في حديث): «يا هشام! إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة: فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة. وأما الباطنة فالعقول»[7].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «العقل دليل المؤمن»[8].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٢.
(٢) سورة الحج، الآية ٤٦.
(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٢.
(٤) سورة يونس، الآية ١٠٠.
(٥) الكافي ج١ ص ١١.
(٦) الكافي ج١ ص ١١.
(٧) الكافي ج١ ص ١٦.
(٨) الكافي ج١ ص ٢٥.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «أكمل الناس عقلاً أكملهم خلقاً»[1].

وقال الرضا عليه السلام: «صديق كل امرىءٍ عقله وعدوه جهله»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله»[3].

وقال موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام مَن أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد والسلامة في الدين، فليتضرع إلى الله في مسألته بأن يكمل عقله، فمَن عقل قنع بما يكفيه، ومَن قنع بما يكفيه استغنى، ومَن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً»[4].

وقال عليه السلام: «يا هشام: إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب، وترك الدنيا من الفضل وترك الذنوب من الفرض»[5].

وقال عليه السلام: «يا هشام: إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه»[6].

وقال عليه السلام: «يا هشام لا دين لمَن لا مروة له، ولا مروة لمَن لا عقل له، وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً، أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها»[7].

يتضح لنا من هذه الأحاديث قيمة وأهمية العقل ودوره المهم في كسب المعارف والعلوم، وتحصيل الإيمان، وعبادة الله ومعرفته، والاستفادة من مكارم الأخلاق، وتجنب الذنوب والرذائل. الآن لا بد من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أن صرف وجود العقل لا يكفي في تأمين هذه الأهداف المهمة، بل يجب استخدام

---

(١) الكافي ج١ ص٢٣.
(٢) الكافي ج١ ص١١.
(٣) الكافي ج١ ص٢٧.
(٤) الكافي ج١ ص١٨.
(٥) الكافي ج١ ص١٧.
(٦) الكافي ج١ ص١٩.
(٧) الكافي ج١ ص١٩.

العقل والاستفادة منه. العقل في البدن كالقاضي العادل، ولكن إنما يمكنه الحكم بعدل عندما يكون المحيط الأمني مناسباً، وعندها يُقبل حكمه، يكون حاكماً عالماً مدبراً قادراً راغباً بالخير، لكن هذا مشروط بأن تكون حاكميته مثبتة ومقبول بها، يكون مشاوراً عارفاً يعتمد عليه يسعى للخير لكن بشرط أن يكون مورداً للمشورة وأن يُستمع لكلامه.

إذا حكم العقل على البدن فسيطر على الغرائز والأهواء النفسية وعدلها، استطاع إدارة بلد البدن على أحسن وجه، وأوجد تعادلاً بين الغرائز والقوى، وجعلها كلها في مسير التكامل والسير والصعود إلى الله، ولكن، هل تقبل الغرائز والأهواء حاكمية العقل بهذه السهولة فتسلِّم لأوامره؟ لا، بل تثير الاضطرابات والمشاكل حتى تخرجه من الساحة، وليس من وسيلة لمواجهة ذلك إلا عبر تقوية العقل، لأنه كلما كان العقل أقوى وأقدر كلما تعرف على أعدائه الداخليين بصورة أفضل، وكان أقدر على مواجهتهم والقضاء عليهم، ومن واجبنا أن نقوي عقولنا ونُفعّلها.

٢ ـ **التفكر قبل العمل**: لتقوية العقل يجب أن نصمم بجد على التفكير في أي عمل قبل القيام به، فنفكر في نتائجه وآثاره وعواقبه الدنيوية والأخروية. نصمم على أن لا نقوم بأي عمل قبل التفكر في عاقبته، حتى نعتاد على التفكر بالعاقبة تدريجياً، ولهذا يدعونا الإسلام للتفكر والتدبر.

فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «نبه بالتفكر قلبك»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن التفكر يدعو إلى البر والعمل به»[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «التدبير قبل العلم يؤمنك من الندم»[٣].

... إن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أوصني. فقال له: فهل أنت مستوصٍ إن أوصيتك؟ حتى قال ذلك ثلاثاً في كلها يقول الرجل: نعم يا رسول

---

(١) الكافي ج٢ ص ٥٤.
(٢) الكافي ج٢ ص ٥٥.
(٣) البحار ج٧١ ص ٣٣٨.

الله، فقال له رسول الله: فإني أوصيك إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك رشداً فامضه وإن يك غياً فانته عنه»[1].

قال رسول الله ﷺ: «إنما أهلك الناس العجلة ولو أن الناس تثبتوا لم يهلك أحد»[2].

وقال أيضاً ﷺ: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان»[3].

وروي عن المعصوم عليه السلام أنه قال: «التفكر مرآتك تريك سيئاتك وحسناتك»[4].

تتّبع الحيوانات أهواءها وغرائزها فلا تتأمل ولا تتدبر، ولكن الإنسان يجب أن يفكر في أعماله لأن لديه عقلاً، وأن يفكر في العاقبة. لدى الإنسان نفس الغرائز والأهواء التي لدى الحيوان، لناحية أنه بمجرد أن يواجه طلباً حيوانياً ينجذب نحوه فوراً فلا تعطيه الغرائز إجازة للتفكر والتدبر، تخاف أن يتدخل العقل فيها فيمنعها. إذن إذا تمكنا أن نعتاد على التفكر في الشيء قبل الإقدام عليه، نكون قد فتحنا طريق العقل وجعلناه في ساحة العمل. وعندما يعمل يستطيع أن يدرك المصالح والمفاسد الواقعية، فيعدل الغرائز والأهواء الحيوانية، ويرشدنا إلى الصراط المستقيم للتكامل الإنساني. عندما يقوى العقل ويصبح حاكماً في بلد البدن يتعرف على أعداء الإنسانية الداخليين وعلى الأمراض النفسية في باطنه، ويسعى إلى دفعها وعلاجها. ولهذا جرى التأكيد كثيراً في القرآن الكريم والأحاديث على التفكر والتعقل والتدبر والتفقه. لأنه بذلك يقوى العقل الذي ترتبط به إنسانية الإنسان وتُعدَّل الغرائز الحيوانية.

٣ ـ سوء الظن بالنفس:

إذا انتبه الإنسان لباطن نفسه بشكل جيد وحلّل صفاته النفسية بعدل وإنصاف استطاع اكتشاف عيوبه وأمراضه النفسية غالباً، لأن الإنسان أكثر معرفة بنفسه من

---

(١) بحار الأنوار ج٧١ ص٣٣٩.
(٢) بحار الأنوار ج٧١ ص٣٤٠.
(٣) بحار الأنوار ج٧١ ص٣٤٠.
(٤) بحار الأنوار ج٧١ ص٣٢٥.

الآخرين، يقول الله تعالى في القرآن:

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[1].

لكنّ مشكلتنا الأساسية هي أننا عند الحكم لا نستطيع أن نحكم بدون تحيز، بل غالباً ما نكون حسني الظن بأنفسنا. نعتبر أنفسنا بدون عيوب ونواقص في القول والفعل، فقد زينت لنا أنفسنا الأمّارة أمورنا الحيوانية بشكلٍ أصبحنا معها نعتبر أعمالنا السيئة حسنة، ونجد أن القرآن الكريم يقول:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[2].

لهذا لا نستطيع اكتشاف عيوبنا حتى نسعى لإصلاحها، وسبيل علاج هذا الإشكال هو أن نسيء الظن بأنفسنا دائماً وأن نحتمل بل نوصل أنفسنا إلى حد اليقين بأن لدينا الكثير من المساوىء والأمراض، وهكذا نحلل أنفسنا وهي على هذه الحال.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها ومستزيداً لها»[3].

ويقول عليه السلام: «فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون وإذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري وربي أعلم مني بنفسي»[4].

إحدى الموانع الكبرى التي لا تدع الإنسان يكتشف عيوبه وأمراضه النفسية فيصلحها هي صفة حسن الظن بالنفس، إذن لو أزلنا هذا المانع الكبير وحللنا أنفسنا بعدل مع احتمال وجود العيب-لاستطعنا اكتشاف الأمراض وسعينا لعلاجها.

٤ ـ مراجعة الطبيب الروحي:

يستطيع الإنسان أن يراجع عالماً أخلاقياً استطاع تهذيب نفسه وتخلق بالأخلاق

---

(١) سورة القيامة، الآيتان ١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة فاطر، الآية ٨.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

(٤) نهج البلاغة، خطبة ١٩٣.

الحميدة لمساعدته في معرفة عيوبه. فيشرح له كل أحواله الداخلية ويطلب منه أن يُعرفه على عيوبه النفسية وعلى صفاته السيئة. بحيث يكون طبيباً روحياً وعالماً نفسياً أيضاً ملماً بالأخلاق الإسلامية، ويكون كذلك من أهل العمل بحيث تتجسم فيه مكارم الأخلاق، وهذا مؤثر جداً في طريق تهذيب النفس والسير والسلوك إلى الله. وإذا وجد الإنسان هكذا فرداً فعليه أن يشكر الله على هذه النعمة، فمع الأسف هكذا أشخاص قليلون لا بد من إلفات النظر إلى أن تشخيص أمراض النفس أمر صعب جداً. لهذا يجب على المريض أن يفعَّل ويبيّن أفعاله وصفاته الداخلية دون أن يكتم شيئاً عنه حتى يستطيع أن يشخص أمراضه. إذا لم يساعد المريض في هذا المجال وتجنب إظهار الواقعيات فلن يصل إلى النتيجة المطلوبة.

٥ ـ مراجعة الصديق العالم والمحب للخير:

الصديق العالم المحب للخير إحدى النعم الإلهية الكبرى التي يمكن أن تساعد في طريق تهذيب النفس وتعريف الصفات السيئة. ولكن يشترط أن يكون عالماً يميز بين الصفات الحسنة والسيئة إضافة إلى حبه للخير وكونه ممن يعتمد عليه، لأنه إن لم يميز بين الصفات الحسنة والسيئة فلن يستطيع مساعدة الإنسان، بل يمكن أن يقوم بخلاف ذلك، فيظهر الحسن قبيحاً ويظهر القبيح حسناً. وإذا لم يكن ممن يعتمد عليه وممن يحب الخير، فقد يكتم عيوب صديقه لجهة حفظ صداقته وعدم أذيته، بل ويمكن أن يزين له عيوبه حتى يفرحه فيمدحه ويثني عليه.

إذا وجد الإنسان شخصاً كهذا، فإنه يطلب منه أن يذكره بأي عيب أو نقص يراه فيه، فيسر من نصائحه، ويستفيد منها لإصلاح نفسه، ومن خلال الاهتمام بنصائحه والقيام بها، يظهر له عملياً أنه لا ينزعج من ذكر عيوبه بل ويفرح أيضاً.

يجب على هذا الصديق أن يثبت إخلاصه وصداقته عملياً من خلال تحليل صفات صديقه بعدل وإنصاف، فيخبر صديقه بمحبة وإخلاص ورغبة بالخير دون حب أو بغض بالعيوب التي يجدها فيه، وأن يكون ذلك في الخفاء، فيتجنب ذكر عيوبه في حضور الآخرين. فيكون هدفه إظهار الواقع فلا يبالغ، لأن المؤمن بالنسبة لأخيه المؤمن كالمرآة يرشده إلى محاسنه ومساوئه بدون زيادة أو نقصان.

بالطبع قلة هم الأصدقاء الذين ينصحون بإشفاق وبقصد إصلاح عيوب الإنسان. ولكن إذا وجد شخص صديقاً هكذا فقد نال سعادة كبرى، وعليه أن يعرف قيمته، فيفرح بنصائحه ويشكره، وأن يتنبه إلى كون الصديق الذي يذكره بعيوبه كي يقوم بإصلاحها هو من أفضل وأكثر الأصدقاء فائدة. فلا تنزعج وتتأثر من نصائحه فتسعى للانتقام أو الدفاع، لو ذكرك أحد بوجود مجموعة عقارب لاسعة في ثيابك فهل تنزعج من تذكيره وتسعى للانتقام أو تفرح وتقدر له ذلك؟ الصفات السيئة كالعقارب، بل وأسوأ. تلسع الإنسان، وتتخذ لها مستقراً دائماً في باطن الإنسان. ومَن يعيننا على دفعها وإزالتها يكون قد أدى لنا خدمات جليلة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أحب أخواني إليّ مَن أهدى إليّ عيوبي»[1].

٦ ـ أخذ العبرة من عيوب الآخرين:

غالباً ما يكون الإنسان غافلاً عن عيوبه، ولكنه يرى عيوب الآخرين ويدرك سوءها، وبحسب المثل المعروف في الفارسية «يرى النقطة في عين الآخر جبلاً ولا يرى الجبل في عينه». إذن إحدى وسائل معرفة العيوب النفسية، مواجهة عيوب الآخرين. عندما يرى الإنسان عيباً في إنسان آخر يسعى مباشرة لاكتشاف عيبه دون أن يعتمد على ذاك العيب ويسعى لانتقاده، ولهذا يقوم بتحليل نفسه. يراجع نفسه، فإذا ما وجد العيب فيها سعى لإصلاحه، وهنا يمكنه أخذ العبرة من رؤية عيوب الآخرين فيسعى لتهذيب نفسه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «السعيد مَن وعظ بغيره»[2].

٧ ـ الاستفادة من النقد:

غالباً ما يمتنع الأصدقاء عن ذكر عيوب الإنسان، ولكن الأعداء على خلاف ذلك فهم ينتقدون غالباً، وليسوا مخلصين في انتقاداتهم طبعاً، بل غالباً ما يكون ذلك من قبيل الحسد والحقد والرغبة في الانتقام، لكن يمكن للإنسان أن يستفيد من انتقاداتهم لمصلحته.

يمكن أن يتصرف الإنسان أمام انتقادات الأعداء بنحوين: الأول: أن يدافع عن

---

(١) تحف العقول ص ٣٨٥.

(٢) بحار الأنوار ج٧١ ص ٣٢٤.

نفسه، فيحتج بكون النقد ورد من الأعداء فيدافع عن نفسه بأية وسيلة ممكنة لإسكاتهم. هكذا إنسان ليس أنه لم يصلح عيبه فقط، بل ويبتلى غالباً بأخطاء واشتباهات أخرى. النحو الثاني: أن يستمع جيداً لنقد الأعداء، ثم يراجع نفسه باحثاً عن الحقيقة ويحللها بشكل منصف. فإذا وجد انتقاد العدو صحيحاً ونفسه معيوبة سعى مباشرة لإصلاحها. وإذا وجد من مصلحة فيمكنه أن يشكر عدوه الذي كشف له عيبه وأصبح وسيلةً لتهذيب نفسه. وسيكون هذا العدو يقيناً أفضل من الأصدقاء الكتومين الذين يبقون الإنسان غارقاً في الجهل وانعدام المعرفة من خلال كتمان عيوبه ومدحه والتملق له. أما لو لم يجد فيه ذاك العيب بعد البحث والتدقيق فعليه أن يشكر ربه وأن يراقب نفسه حتى لا يبتلي فيما بعد بهكذا صفة سيئة. في هذه الحال يستفيد من انتقادات الأعداء. وهذا التصرف لن يمنع الإنسان عن إخماد مؤامرات الأعداء وخيانتهم من خلال طرق عقلائية مشروعة.

٨ ـ علائم مرض القلب:

أحد أفضل سبل معرفة المرض وجود علائمه. تعرف أمراض أعضاء وجوارح البدن من خلال طريقين: إما بوساطة الإحساس، أو من خلال عدم تمكن عضو عن القيام بالوظائف الموكلة إليه في جهاز البدن، لكل واحد من الأعضاء والجوارح وظيفة في إدارة البدن بحيث يؤدي وظيفته بأحسن وجه حال السلامة. فإذا عجز عضو عن آداء وظيفته، ذلك يعني أنه مريض. مثلاً العين ترى الأشياء عندما تكون سليمة في ظل شروط خاصة. أما إذا لم تستطع الرؤية مع وجود الشرائط أو لم ترها بشكل جيد، فهذا يعني أنها مريضة، ونفس الأمر ينطبق على سائر الأعضاء والجوارح مثل: الأذن، اللسان، اليد، الرجل، القلب، الكلية، الكبد. لكل واحدة من هذه الأعضاء وظائف خاصة تؤديها عندما تكون سالمةً وإذا لم تتمكن من ذلك فهذا يعني أنها مريضة.

قلب الإنسان ونفسه كذلك، على عاتقهما وظائف وتكاليف يجب أن يؤدياها بحسب خلقتهما الخاصة. جاءا من عالم الملكوت ولديهما سنخية وارتباط مع العلم، والرحمة، والقدرة، والإحسان، والعدل، والمحبة، والمعرفة، والنورانية، وغير ذلك من الفضائل ومن مكارم الأخلاق. هما بالفطرة باحثان عن العلة وراغبان

بالله، الإيمان والتوجه إلى الله والعلاقة والأنس به، عبادته والتضرع إليه والدعاء في محضره، كل ذلك من علامات سلامة النفس والقلب، وهكذا حب العلم والمعرفة، الإحسان، خدمة خلق الله في سبيل الله، الإيثار والفداء وحب العدالة وغير ذلك من مكارم الأخلاق، التي تُعد من علامات سلامة النفس؛ إذا وجد الإنسان في نفسه هذه الصفات فذاك يعني أنه يتمتع بسلامة النفس، أما لو أحس أنه غير متوجه إلى الله، ولا يلتذ بالعبادة والدعاء والمناجاة بل يتحاشاها، وأنه لا يحب الله، بل عاشق للجاه، والمقام، والثروة، والأملاك، والزوجة، والأبناء، وأنه يرجح الشهوات واللذات الحيوانية على تحصيل رضا الله، وأنه ليس لديه من هدف في الدنيا إلا تأمين منافعه الشخصية، ولا يلتذ من خدمة الخلق، ولا يتأثر بضيقهم ومعاناتهم. على هكذا شخص أن يعلم أن نفسه مريضة فعلاً. وإذا كان راغباً بسعادته فعليه أن يسارع لإصلاحها وعلاجها.

التصميم على العلاج:

بعد أن نتعرف على أمراض أنفسنا ونتيقن من أننا مرضى، علينا أن نبدأ فوراً بالعلاج، وأهم موضوع في هذه المرحلة التصميم والإرادة. لو أردنا بحق تهذيب أنفسنا من السيئات والأخلاق السيئة وصممنا على ذلك نجحنا، أما لو استصغرنا الأمر ولم نصمم بصدق، فلن تكون السلامة ممكنة. هنا يدخل الشيطان وتدخل النفس الأمّارة ويشرعان بالعمل، ويتوسلان بأنواع الحيل، حتى يحرفونا عن تصميمنا، ولكن علينا أن لا ننخِدع بهما.

يمكن لهما أن يبررا لنا صفاتنا السيئة فيقولان: أنت تريد أن تحيا مع الناس، والآخرون لديهم نفس الصفة، أنظر إلى فلان وفلان وفلان، لديهم هذه الصفة بل وأكثر. هل يمكن أن تكون لوحدك حسناً وحيداً؟ كن كما الآخرين.

ولكن يجب أن نقف بثبات أمام هذا الخداع فنقول: حتى لو كان الآخرون مبتلين بهذا المرض فما علاقتنا بذلك؟ ابتلاء الآخرين بالعيب لا يبرر عيوبنا النفسية، على كل حال هذا العيب موجود فيَّ وإذا مت وأنا على هذه الحال فسأبتلى بالشقاء الأبدي، إذن يجب علينا أن نسعى لعلاج أنفسنا وتهذيبها.

يمكن للشيطان من خلال الحيل ومبررات التأخير وانقضاء الوقت أن يدخل إلى الساحة ويصرفنا عن إرادتنا، يقول للشخص: صحيح أن فيك ذلك العيب ويجب أن تصلحه، ولكن ما زال الوقت باكراً لِمَ تستعجل؟ إنته من ذلك العمل ثم الجأ لتهذيب النفس عندما تكون خالي الوفاض، لا زلت شاباً وهذا وقت الفرح والسرور، عندما تكبر تتوب وتعمل على تهذيب نفسك..

علينا أن نلتفت إلى كون هذا أيضاً نوعاً من الخداع الشيطاني، من أين لنا أن نعلم أننا سنحيا حتى ذلك الوقت؟ يمكن أن نموت قبل ذلك، يأتي الموت فنغادر الدنيا حاملين تلك الأمراض النفسية. فكيف سيكون مصيرنا؟ ولو افترضنا أننا سنبقى إلى ذلك الزمان، ولكن هل سيكف الشيطان عن حيله وخدعه؟ وهل ستكف النفس الأمّارة عن ذلك؟ هل سيتركانا نتفرغ لتزكية وتهذيب النفس؟ سيحرفانا ويمنعانا عن ذلك التصميم. إذن من الأفضل أن نبدأ بالعمل من الآن فنعطل النفس الأمّارة ونواجهها.

يمكن أن تخاطبك النفس الأمّارة أحياناً فتقول: لقد اعتدت على المعصية وعلى الصفة الفلانية، ولا يمكنك ترك العادة. أنت أسير النفس. فكيف يمكنك أن تنجي نفسك من الأسر؟ أظلمت نفسك بالمعصية وليس من طريق للعودة.

يجب أن نعلم أن هذا نوع آخر من الخداع أيضاً، يجب أن نقول للنفس الأمّارة: ليس ترك العادة غير ممكن، بل هو ممكن. طبعاً هو صعب ولكن يجب أن نبدأ بالعمل ونسعى لتهذيب أنفسنا. لو كان ترك المعصية والصفات السيئة غير ممكن لما ذكر الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام كل هذه الأحكام الأخلاقية، لا يُغلق باب التوبة، بل هو مشرع أبداً؛ لذا يجب أن نصمم ونبدأ بتهذيب النفس.

يمكن أن يستصغرا الصفات السيئة والأمراض النفسية فيقولا: إنك تؤدي الواجبات الفلانية والمستحبات الكثيرة، فسيغفر الله لك ويجعلك في الجنة، والصفات السيئة التي لديك ليست مهمة وكثيرة، وسوف تعوض وتُغفر لك من خلال آداء المستحبات.

وهنا يجب أن نلتفت إلى كون هذه التبريرات أيضاً من تسويلات النفس الأمّارة والشيطان. يجب أن نقول للنفس الأمّارة: العمل الصالح يُقبل من المتقين، ولا

تحصل التقوى إلا من خلال تهذيب النفس. إذا لم تهذب النفس من السيئات فلن تكون مكاناً لنمو الحسنات، إذا لم يخرج الشيطان فلن يدخل الملك، إذا لوثت وأظلمت بواسطة الذنوب والرذائل الأخلاقية فلن تكون مكاناً لانبعاث النور في الآخرة.

يجب علينا أن نلتفت دائماً إلى العواقب الخطرة للأمراض النفسية، وقد أشرنا لذلك سابقاً بنحو إجمالي. كما علينا أن ندقق في الآثار السيئة والعواقب الأخروية الواضحة لكل واحد من الأمراض النفسية، وذلك من خلال الرجوع إلى الكتب الأخلاقية والأحاديث، وهكذا نقف في وجه تسويلات وخداع النفس الأمّارة والشيطان، وأن نصمم بجد على إصلاح وتهذيب أنفسنا، فإذا عبرنا مرحلة الإرادة فسنقترب من مرحلة العمل.

السيطرة والتغلب على النفس:

النفس منشأ كل الأعمال والحركات والأقوال والحسنات والسيئات لدى الإنسان. إذا أصلحت النفس، تأمنت حياة الإنسان الدنيوية والأخروية وعمرت. وإذا أُفسدت كانت منشأ السيئات والهلاك الدنيوي والأخروي. إذا خطا الإنسان خطوة في طريق الإنسانية استطاع أن يتجاوز ملائكة القرب الإلهي، أما إذا أهمل جوهر الإنسانية الشريف وخطا خطوة في طريق الحيوانية سقط إلى مقام أوضع من مقام الحيوانات، بل وإلى مقام الشيطنة، يوجد في باطن الإنسان قدرة على طي كلا الطريقين. لديه عقل وفطرة تدفعه إلى الفضائل والمكارم الإنسانية، وهو حيوان يتمتع بالغرائز والقوى الحيوانيَة. ولكن هذا لا يعني أن هذه الغرائز والأهواء باطلة بالمطلق، وأنها تجر الإنسان نحو السقوط، كلا فوجودها ضروري لحياة الإنسان، وإذا استطاع أن يستفيد منها إستفادةً صحيحة، استطاع أن يسير في طريق التكامل الإنساني والسير والصعود إلى الله.

ولكن الإشكال هو في أن الغرائز والأهواء الحيوانية لا تتوقف عند حد معين، ولا تأخذ الآخرين في الاعتبار. لا تلتفت إلى الرغبات الإنسانية، ولا تلتفت إلى سائر الغرائز، بل ليس لها هدف إلا الإشباع الكامل. ليس للغريزة الجنسية من هدف إلا الإشباع الكامل والوصول إلى الهدف، وسائر الغرائز الحيوانية الأخرى مثل:

الالتذاذ بالمأكولات والمشروبات، حب الجاه والمقام والرئاسة والشهرة، حب المال والثروة والمنزل ومزينات الحياة، وأيضاً قوى الغضب والانتقام وكل الصفات التي تنبع منها، لا تتوقف عند حد معين. بل كل واحدة منها ترغب بالإشباع الكامل. ولهذا تكون نفس الإنسان ساحة صراع وجدال، وتنازع بين الغرائز المختلفة، ولا تهدأ أبداً حتى تنتصر واحدة على الأخرى، فتأسر النفس أسراً كاملاً لها.

ووسط كل ذلك يتمتع العقل بقدرة وموقعية مهمة جداً، يستطيع من خلال الاستعانة بإرشادات الشرع أن يسيطر على الغرائز والأهواء النفسية، وأن يحول دون حصول الإفراط والتفريط، وأن يسيطر على مقام الحاكمية، فيوجد تعادلاً وتوازناً بين الرغبات والغرائز، وبهذا ينجّي بلد النفس من الهرج والمرج والاضطراب والتطرف، ويهديه إلى صراط الإنسانية المستقيم والسير والسلوك إلى الله.

لكن حاكمية العقل ليس عملاً سهلاً، لأنه يواجه عدواً قوياً مخادعاً، هذا العدو الغدار الذي يُسمى «النفس الأمّارة» لديه أعوان وأنصار يدافعون عنه.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾[1].

ويقول النبي ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[2].

وقال علي عليه السلام: «العقل والشهوة ضدان، ومؤيد العقل العلم ومؤيد الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما. فأيهما قهر كانت في جانبه»[3].

وقال علي عليه السلام أيضاً: «الشرّ كامن في طبيعة كل أحد، فإن غلبه صاحبه بطن، وإن لم يغلبه ظهر»[4].

إذن العقل حاكم جيد، ولكنه يحتاج إلى تعاون ونصرة. إذا أخذنا جانب العقل في هذا الصراع وواجهنا الرغبات والشهوات والأهواء النفسية، وسلمنا زمام إدارة بلد البدن للعقل حققنا نصراً مبيناً، وهذا ما أراده لنا أئمة الدين المرشدون الأدلاء

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥٣.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٦٤.
(٣) غرر الحكم ص ٤٨ حكمة ١٤١٧.
(٤) غرر الحكم ص ٣٨ حكمة ٩٨١.

على الشريعة والطريقة والحقيقة، وقد أكدوا عليه كثيراً.

قال علي عليه السلام: «إياكم وغلبة الشهوات على قلوبكم فإن بدايتها ملكة ونهايتها هلكة»[1].

وقال أيضاً عليه السلام: «مَن لم يملك شهوته لم يملك عقله»[2].

وقال عليه السلام: «غلبة الشهوة أعظم هلك وملكها أشرف ملك»[3].

وقال الصادق عليه السلام: «مَن ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرم الله جسده على النار»[4].

وقال علي عليه السلام: «غالبوا أنفسكم على ترك المعاصي يسهل عليكم مقادتها إلى الطاعات»[5].

إذن السيطرة على النفس وضبط الرغبات والأهواء أمر ضروري وحياتي لتهذيب النفس، ولا يحصل ذلك بغير هذا الطريق. نفس الإنسان كفرس جموح غير مروض، إذا هدأ بالرياضة وسيطرت على لجامه وامتطيته استفدت منه. وإذا بقي على اضطرابه وتحرك في أي اتجاه أراد سيودي بك إلى الهاوية. ولكن ترويض النفس الجموح أمر صعب. ستقاومك في البداية، ولكن لو صبرت وبقيت يقظاً فستسلم لك في النهاية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا صعبت عليك نفسك فاصعب لها تذل لك وخادع نفسك عن نفسك تنقد لك»[6].

وقال عليه السلام أيضاً: «الشهوات أعلال قاتلات، وأفضل دوائها اقتضاء الصبر عنها»[7].

---

(١) غرر الحكم ص ٩٨ حكمة ١١٧.
(٢) غرر الحكم ص ٣٦٦ حكمة ١٤٧١.
(٣) غرر الحكم ص ٢٧٠ حكمة ٤٥.
(٤) وسائل الشيعة ج٦ ص ١٢٣.
(٥) غرر الحكم ص ٢٦٩ حكمة ٨.
(٦) غرر الحكم ص ١٥٩ حكمة ١٢٣.
(٧) غرر الحكم ص ٣٩ حكمة ١٠٣٥.

جهاد النفس

النفس أكبر أعدائنا. هي دائماً في صراع وحرب مع العقل، تستلهم حركتها من وسوسات الشيطان، وتهاجم العقل مع جنوده حتى تزويه وتطفئه، لتكون لها الكلمة الفصل في ساحة المعركة، هدفها أن تخرج لملائكة من بلد النفس لتمكن الشياطين من السيطرة عليه كلياً. ليس من السهل القضاء على هذا العدو الغدار، يحتاج إلى عزم وصلابة وثبات ومقاومة وحتى إلى الجهاد. وليس ذلك في معركة أو اثنتين، في يوم أو يومين، في سنة أو سنتين، بل يحتاج إلى جهاد دائم ومستمر وحتى آخر العمر، يحتاج إلى معركة صعبة وجدية ومستمرة. يجب أن نحارب بصلابة حتى نروض النفس ونسيطر على الغرائز، أن نستلهم السبل والوسائل من إرشادات النبي ﷺ والأئمة الأطهار ونطلق بمساعدة العقل وجنوده، أن نقف في وجه تجاوزات النفس وتعدياتها، وأن نحاصر جنودها ونقضي عليهم، حتى يحكم العقل على بلد البدن ويوجهنا بالاستفادات من أحكام الشرع في مسيرة الكمال الإنساني والسير والارتقاء إلى الله. لا يمكن مسالمة النفس وإقامة صلح معها، بل يجب مواجهتها والتغلب عليها، وإجلاسها في موضعها حتى تمتنع عن الخداع والتآمر. ولا يوجد من سبيل آخر للوصول إلى السعادة غير هذا السبيل، ولهذا السبب عُبّر بالجهاد عن مواجهة النفس في الأحاديث، أذكر لكم مجموعة من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص كأمثلة:

قال علي عليه السلام: «إملكوا أنفسكم بدوام جهادها»[1].

وقال عليه السلام: «إغلبوا أهواءكم وحاربوها فإنها إن تقيدكم توردكم من الهلكة أبعد غاية»[2].

---

(١) غرر الحكم ص ٩٠ حكمة ١٠١.

(٢) غرر الحكم ص ٨٩ حكمة ٧٩.

وقال: «ألا وإنّ الجهاد ثمن الجنة فمَنْ جاهد نفسه ملكها وهي أكرم ثواب الله لِمَن عرفها»[1].

وقال: «جاهد نفسك على طاعة الله مجاهدة العدو عدوه، وغالبها مغالبة الضد ضده، فإن أقوى الناس مَن قوي على نفسه»[2].

وقال: «إن الحازم مَنْ شغل نفسه بجهاد نفسه فأصلحها، وحبسها عن أهويتها ولذاتها فملكها، وإن للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً»[3].

الجهاد للنفس حربٌ مهمة ومصيرية، حرب يعتمد عليها مصيرنا في الدنيا والآخرة. إذا لم نتمكن من التغلب على النفس والسيطرة على زمامها من خلال الجهاد، غلبتنا وساقتنا كما تشاء، إذا لم نأسرها أسرتنا وجعلتنا مطيةً لها. إذا لم نعودها على الأخلاق الحسنة والسلوك الحسن، عودتنا على الأخلاق السيئة والسلوك السيّىء. إذن مجاهدة النفس أهم وأصعب الواجبات، وهذا في عهدة السالكين إلى الله، فمهما بذلوا وصرفوا في هذا الباب لم يكن ذلك دون قيمة.

الجهاد الأكبر:

جهاد النفس مهم إلى درجة عرَّفه الرسول الأكرم بالجهاد الأكبر. هو مهم إلى درجة أنه أهمَ من الجهاد المسلح.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل: يا رسول الله! وما الجهاد الأكبر؟ فقال: جهاد النفس»[4].

وقال علي عليه السلام: «إن أفضل الجهاد مَن جاهد نفسه التي بين جنبيه»[5].

وفي وصية النبي لعلي عليه السلام قال: «يا علي! أفضل الجهاد مَن أصبح لا يهم

---

(١) غرر الحكم ص ٩٩ حكمة ٢١.
(٢) غرر الحكم ص ١٨٦ حكمة ١٨.
(٣) غرر الحكم ص ١٢٦ حكمة ١٠٠.
(٤) وسائل الشيعة ج١١ ص ١٢٤.
(٥) وسائل الشيعة ج١١ ص ١٢٤.

بظلم أحد»[1].

عُرّف جهاد النفس في هذه الأحاديث بعنوان الجهاد الأكبر والجهاد الأفضل. جهاد له الأفضلية حتى على الجهاد في سبيل الله. ومع الالتفات إلى أهمية وفضل الجهاد في سبيل الله. حيث يعتبر من أفضل العبادات نلتفت إلى أهمية الجهاد للنفس، ولو حاولنا تبرير أفضلية جهاد النفس عليه لتمكنا من ذلك بثلاثة وجوه:

الوجه الأول: كل عبادة ـ وحتى الجهاد المسلح ـ تحتاج إلى جهاد النفس:

أولاً: إن نفس أداء العبادة بنحو كامل مع جميع الشرائط يحتاج إلى جهاد للنفس. فهل يمكن أداء الصلاة مع حضور القلب ورعاية جميع الشرائط بحيث تكون معراج المؤمن والناهية عن الفحشاء والمنكر، بدون الجهاد والسعي؟! وهل من الممكن أداء الصيام بنحو كامل بحيث يكون مطفئاً لنار جهنم بدون الجهاد؟ أليست مجاهدة النفس لدى الإنسان المجاهد تقوي عزيمته في ساحة الوغى فيتمكن من مواجهة أعداء الإسلام بشكل أفضل؟ وهكذا في سائر العبادات.

ثانياً: إنما تقع أي عبادة مورد قبول الحق وأسباب قرب منه إذا أديت خالصة لكسب رضاه، وذلك بأن تكون خالية من أي نوع من الشرك والرياء والعجب والأغراض النفسية، ولا يمكن تحقق هذا الأمر أيضاً بدون مجاهدة النفس. وحتى الجهاد المسلح فإنما يكون له قيمة وسبب للتكامل والتقرب عندما يكون خالصاً لرضا الله وإعلاء كلمة التوحيد. لو أُديت نفس العبادة الكبرى لكسب الشهرة، أو الانتقام من العدو، أو الحفاظ على الاسم، أو حباً بالظهور والرياء، أو لكسب المقام والمال، أو للهرب من ابتلاءاتَ الحياة، أو لغير ذلك من الأغراض النفسية، لم تكن لها قيمة معنوية ولا تكون سبباً للتقرب من الله، إذن جهاد النفس له أفضلية على سائر العبادات وأعمال الخير وحتى الجهاد في سبيل الله، لأن صحة وكمال كل هذه الأعمال متوقف على الجهاد للنفس، ولهذا السبب سُمّي جهاد النفس بالجهاد الأكبر.

الوجه الثاني: إنما يجب الجهاد المسلح في زمان خاص ومع اجتماع شرائط خاصة، وليس واجباً عينياً بل كفائياً، ويسقط عن بعض الأفراد أيضاً، ولا يجب

---

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص١٢٣.

الجهاد أصلاً في بعض الأزمنة الخاصة، وإذا صار واجباً فإنما يصير واجباً كفائياً، يسقط عن الآخرين إذا قام به العدد الكافي، إضافة إلى أنه غير واجب على النساء والكهول والأفراد العاجزين غير القادرين والمرضى. وهذا على خلاف جهاد النفس الذي يجب أن يقوم به الجميع في كل الأزمنة والأوضاع والأحوال والشرائط، ووجوبه عيني، ويجب أن يقوم به الفرد حتى آخر لحظات حياته، ولن يستغني عنه أحد غير المعصومين في أي مكان.

الوجه الثالث: جهاد النفس أصعب من كل العبادات، وحتى من الجهاد المسلح الذي يضحي فيه المجاهد بروحه، فيضع نفسه في معرض الشهادة، لأن التسليم المحض للحق، ومواجهة الأهواء والرغبات النفسية طوال العمر، وطي صراط التكامل المستقيم أصعب بكثير من أن يجاهد الإنسان عدة أيام في ساحة الوغى أمام الأعداء لينال فيض الشهادة في النهاية. جهاد النفس صعب إلى درجة أنه لا يمكن أن يحصل إلا بجهاد صعب مستمر، مع تحمل الكثير من الآلام والحاجة إلى التسديدات الإلهية، ولهذا نقرأ باستمرار في الصلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ طي صراط التكامل المستقيم، صعب ودقيق، إلى درجة يقول معها الرسول الأكرم ﷺ: «إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً».

الجهاد والتأييدات الإلهية:

صحيح أن جهاد النفس أمر صعب ويحتاج إلى الاستقامة، اليقظة، الوعي والمراقبة الدائمة، لكنه على كل حال أمر ممكن وضروري لسعادة الإنسان، فإذا ما صمم الإنسان وبدأ فسيؤيد من قبل الله.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «طوبى لعبد جاهد لله نفسه وهواه، ومَن هزم جند هواه ظفر برضا الله ومَن جاور عقله نفسه الأمّارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الرب من النفس والهوى، وليس لقتلهما في قطعهما سلاح

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

وآلة مثل الافتقار إلى الله والخشوع والجوع والظمأ بالنهار والسهر بالليل. فإن مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أدّاه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وإذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد فوبخ نفسك ولمها وعيّرها على الازدياد عليه. واجعل لها زماماً من الأمر وعناناً من النهي وسقها كالرائض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة إلا وقد صحح أولها وآخرها. وكان رسول الله يصلي حتى يتورم قدماه ويقول: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ أراد أن يعتبر به أمته: فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وأنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها. واستضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة، ولو قطعت إرباً إرباً، فما أعرض مَن أعرض عنها إلا بحرمان فوائد السبق من العصمة والتوفيق»[1].

جهاد النفس هو تماماً كالجهاد المسلح. مع كل ضربة يُضرب بها العدو، ومع كل متراس يفتحه جند الإسلام، بنفس المقدار الذي يضعف العدو ويقوي جند الله ويصبحون أكثر قدرة واستعداداً لفتوحات أخرى، وهذه سنّة الله حيث يقول: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾. نفس الأمر ينطبق على جهاد النفس، فمع كل ضربة تتلقاها النفس الأمّارة. فيخالف المرء أهواءها ورغباتها غير المشروعة، بنفس المقدار تضعف ويصبح هو قوياً وأكثر استعداداً للفتوحات التالية. وعلى العكس كلما ضعف وسلم للنفس، أصبحت أقوى وأكثر استعداداً للفتوحات التالية. إذا خطونا خطوة في طريق تهذيب النفس أُيدنا من قبل الله أصبحنا يوماً فيوماً أكثر قدرة على السيطرة عليها، ولكن لو ضعفنا أمام أهواء النفس وجنودها، أصبحت وجنودها أقوى وسيطرت علينا أكثر.

الإنسان طبيب نفسه:

صحيح أن الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام هم مربو البشر وأطباء النفوس. ولكن مسؤولية الطبابة والتهذيب والإصلاح للنفس ملقاة على عاتق نفس البشر. كان الأنبياء والأئمة المعصومون عليهم السلام يعطون البشر دروساً في الطبابة، كانوا يبينون

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص٦٩.

للناس الأمراض النفسية وعلائمها وآثارها السيئة وطرق علاجها والأدوية الممكن استخدامها في ذلك، حتى يصبح الناس عارفين بآلامهم وسبل علاجها ويتحملون أعباء إصلاح نفوسهم. لأنه لا يمكن لأي شخص أن يشخص الأمراض كنفس الإنسان فيسعى لعلاجها. يسمع الإنسان بالأمراض النفسية وسبل علاجها من ألسنة الوعّاظ أو يقرأها في الكتب، ولكن على هذا الشخص أن يكتشف أمراض نفسه بنفسه فيستعمل الأدوية الخاصة لعلاجها. يشعر الإنسان بالألم أكثر من غيره وهو أكثر معرفة بباطن ذاته. إذا لم يكن الإنسان مراقباً لنفسه فكيف يمكن لنصائح الآخرين أن تكون مفيدة له؟.

للإسلام عقيدة بأنه يجب أن تبدأ الإصلاحات من داخل وجود الإنسان، يجهز النفوس للتهذيب ويراعي الوقاية الصحية الداخلية ثم يأمرها كي تراقب ذاتها. وهذا بنفسه يُعد من الأصول التربوية الإسلامية المهمة.

يقول الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[١].

وقال أبو عبد الله عليه السلام لرجل: «إنك قد جعلت طبيب نفسك وبيّن لك الداء وعرفت آية الصحة ودُلّلت على الدواء فانظر كيف قيامك على نفسك»[٢].

وقال أيضاً: «مَنْ لم يجعل له من نفسه واعظاً فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً»[٣].

وكان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «ابن آدم! لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك»[٤].

وقال علي عليه السلام: «أعجز الناس مَن عجز عن إصلاح نفسه»[٥].

وقال أيضاً: «ينبغي أن يكون الرجل مهيمناً على نفسه مراقباً قلبه حافظاً لسانه»[٦].

---

(١) سورة القيامة، الآيتان ١٤ ـ ١٥.
(٢) الكافي ج٢ ص ٤٥٤.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٧٠.
(٤) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٧٠.
(٥) غرر الحكم ص ١١٠ حكمة ٢٢٩.
(٦) غرر الحكم ص ٤٣٩ حكمة ٤.

طرق تهذيب النفس

١ ـ الوقاية: مراعاة النظافة الداخلية، والوقاية من المعصية والأخلاق السيئة هي أفضل وأسهل مراحل تهذيب النفس. عندما لا تكون النفس قد تلوثت بارتكاب الذنب تكون في حالة تتمتع معها بصفاء ونورانية فطرية، وتكون أكثر استعداداً لأداء الأعمال الصالحة والتخلق بالأخلاق الحسنة. لا تكون قد أظلمت، ولا يكون الشيطان قد وجد لنفسه إليها سبيلاً بعد، ولم تعتد بعد على السيئات، ولهذا تكون أكثر استعداداً لترك المعصية. إذا صمم الفتى والشاب على تهذيب نفسه وتجنب ارتكاب الذنب والرذائل الأخلاقية كان ذلك سهلاً عليه نوعاً ما، لأن لديه جنبة وقاية، والوقاية أسهل من ترك العادة بمراتب. إذن مرحلة الصبا والشباب بل والطفولة، هي أفضل مراحل تهذيب النفس، وما دام الإنسان لم يرتكب معصية خاصة، فهو أكثر استعداداً لتركها. إذن يجب على الفتيان والشباب وعلى الذين لم يرتكبوا بعض الذنوب اغتنام هذه الفرصة المهمة جداً والسعي لعدم ارتكابها أصلاً، وحفظ النفس طاهرة كما هي، لأن الوقاية ستكون أسهل من ترك المعصية. ومن المفيد أن يلتفتوا لهذه النقطة وهي أنه إذا ارتكبوا المعصية وأسسوا للأخلاق السيئة، فهذا يعني أنهم فتحوا الطريق للشيطان كي يدخل إلى نفوسهم، وسيكون ترك الذنب أصعب بعد ذلك. يسعى الشيطان وتسعى النفس الأمّارة لارتكاب الذنب مرة واحدة أو مرتين كأمر بسيط غير ذي أهمية، وذلك حتى يدخلا إلى النفس ويعوداها على ارتكاب الذنب، وعندها سيكون ترك المعصية صعباً جداً. إذن يجب على الإنسان الذي يسعى لتحقيق السعادة أن يقاوم أهواءه النفسية وأن يتجنب ارتكاب المعصية حتى ولو لمرة واحدة.

قال علي عليه السلام: «لا ترخص لنفسك في شيء من سيّىء الأقوال والأفعال»[1].

وقال أيضاً: «غالب الشهوة قبل قوة ضراوتها، فإنها إن قويت ملكتك واستقادتك لم تقدر على مقاومتها»[2].

وقال عليه السلام: «العادة عدو متملك»[3].

وقال عليه السلام: «العادة طبع ثانٍ»[4].

وقال عليه السلام: «غالب الهوى مغالبة الخصم خصمه وحاربه محاربة العدو عدوه لعلك تملكه»[5].

وقال عليه السلام: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، والموت فضح الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً»[6].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «اقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك، واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإن نفسك رهينة بعملك»[7].

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[8].

على كل حال... فالوقاية أفضل وأسهل الطرق، وكلما جد الإنسان في سلوك هذه الطريق لم يكن ذلك دون فائدة، هنيئاً للشبان الذين يروضون أنفسهم منذ مطلع شبابهم فلا يمنحونها فرصة كيَ تعصي، ويستمرون طاهرين منزهين في طريق السير

---

(١) غرر الحكم ص ٤١٤ حكمة ٦٣.
(٢) غرر الحكم ص ٢٦٨ حكمة ٥.
(٣) غرر الحكم ص ٤٤ حكمة ١٢٣٤.
(٤) غرر الحكم ص ٤٤ حكمة ١٢٣٣.
(٥) غرر الحكم ص ٢٦٨ حكمة ٦.
(٦) الكافي ج٢ ص ٤٥١.
(٧) الكافي ج٢ ص ٤٥٥.
(٨) سورة النازعات، الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

والسلوك إلى الله حتى أواخر أعمارهم إلى أن ينالوا مقام القرب من الحق.

٢ ـ الترك المباشر: إذا تجاوز مرحلة الوقاية ولُوثت النفس بالمعصية، يأتي دور عملية إعادة البناء. ويمكن البدء بذلك عبر عدة طرق، وأفضلها الثورة الداخلية والترك المباشر والكلي. الإنسان الذي تلوث بالمعصية وبالرذائل الأخلاقية يستطيع أن يتوب إلى الله منيباً دفعة واحدة، فيغسل قلبه من الذنوب والرذائل ويجعله طاهراً مطهراً، يطرد الشياطين من القلب بتصميم قاطع ويسد أبوابه أمامها نهائياً، ويفتح قلبه لنزول ملائكة القرب الإلهيين ولإشعاع الأنوار الإلهية. يتغلب على الشيطان والنفس الأمّارة بحملة واحدة، ويسيطر على زمام النفس بإحكام ويبقيه في يده للأبد، كم من الأفراد تغلبوا على أنفسهم بهذه الوسيلة، ووفقوا بإعادة البناء المباشر والتزموا بعهودهم حتى أواخر أعمارهم. تتم هذه الثورة الداخلية عبر أمور عدة، فقد يكون السبب سماع كلمة مختصرة من واعظ وأستاذ أخلاق مُهَذِب، أو عبر إشارة من مرشد إلهي، أو عبر حدوث أمر غير عادي، أو من خلال المشاركة في مجلس الدعاء والذكر، أو من خلال الاستماع إلى آية أو رواية، أو بمجرد التفكير لعدة دقائق. أحياناً يمكن أن تتسبب حادثة بسيطة بتغير القلب وانبعاث النور في داخله. كثيرون هم الذين وفقوا لتهذيب أنفسهم بواسطة هذه الطريقة وأصبحوا في طريق السالكين. وكمثال على ذلك ألفت انتباهكم إلى هذه القصة:

كان بشر الحافي أحد عباد الله الخاصين، كان زاهداً عابداً متقياً، يقال أنه كان سابقاً من الأشراف، يقضي أيامه ولياليه بالفسق والفجور، وكان منزله مركز فساد ورقص وغناء وقد اشتهر بذلك، ولكنه تاب بعد ذلك وتغير ودخل سلك العبّاد والزهّاد، يُقال أن سبب توبته يعود لحادثة حصلت معه: ذات يوم كان خادمه خارجاً من المنزل لرمي النفايات، فالتقى بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي كان ماراً بالمكان فسمع صوت الغناء، سأل الإمام: منزل مَن هذا؟ أعبد هو أم حر؟ أجابه الخادم: حر وسيد. فقال الإمام: صحيح إذ لو كان عبداً لخجل من سيده ولما غرق في المعاصي كما هو حاله الآن، عاد الخادم إلى داخل المنزل، سأله بشر الذي كان جالساً على طاولة شراب: لماذا تأخرت؟ فذكر له القصة دون أن يعرف شخصية الإمام، سأله بشر عن آخر عبارة قالها، فذكرها الخادم، فوقعت على قلب بشر

كالسهم، وأنارت قلبه وحولته، فترك طاول الشراب وخرج حافياً مسرعاً ليلحق بالرجل، بعد برهة لحق بالإمام عليه السلام فقال: سيدي أطلب العفو من الله ومنك، نعم كنت عبد الله ولا أزال، لكني كنت قد نسيت عبوديتي ولهذا غرقت في المعاصي، الآن عدت لتذكر عبوديتي وتبت من أعمالي السابقة، أتُقبل توبتي؟ قال الإمام عليه السلام: نعم يقبل الله توبتك فاخرج من ذنوبك واترك المعاصي أبداً.

تاب بشر ودخل في سلك العبّاد والزهاد وأولياء الله، وبقي يسير حافياً طوال عمره شكراً لهذه النعمة»[1].

يقول أبو بصير: كان أحد أعوان وعمال السلاطين جاراً لي، كانت كل أمواله من الحرام، ومنزله مركز فساد ولهو لعب ورقص وغناء، كنت أتأذى من جيرته، نصحته مراراً دون فائدة، ذات يوم أصريت عليه كثيراً فقال: لقد أصبحت أسيراً للشيطان، اعتدت على اللهو والمعصية ولا أستطيع تركها، مريض ولكني لا أستطيع معالجة نفسي. أنت جار جيد ولكني لك جار سيِّىء، ماذا أفعل، أنا أسير الهوى ولا أستطيع أن أجد طريقاً للنجاة، إذا زرت الإمام الصادق عليه السلام أخبره بحالي لعله يرشدني إلى طريق النجاة، يقول أبو بصير: تأثرت لكلامه، صبرت برهة حتى قصدت الإمام الصادق عليه السلام في المدينة، عندما تشرفت بلقائه ذكرت له القصة، فقال له الإمام: إذا ما رجعت إلى الكوفة قل له: يقول لك جعفر بن محمد: «أخرج مما أنت فيه وأنا أضمن لك الجنة». يقول أبو بصير: بعد أن انتهيت من كل أعمالي رجعت إلى الكوفة. كان الناس يأتون لزيارتي إلى أن جاءني زائراً، بعد سؤاله عن أحوالي اعتذر هاماً بالانصراف أشرت له بالبقاء لوجود أمر أريد التحدث بشأنه، عندما فرغ المنزل من الزائرين قلت له: ذكرت قصتك للإمام الصادق، فطلب مني إيصال سلامه إليك وأن أبلغك بعبارته: اخرج مما أنت فيه وأنا أضمن لك الجنة.

دخل كلام الإمام عليه السلام إلى قلبه فبدأ بالبكاء، ثم أقسم عليّ للتأكد من صحة الحديث فأقسمت. قال: هذا كاف ثم خرج ولم أسمع عنه شيئاً لأيام خلت.

بعدها أرسل خلفي فذهبت إليه وطرقت الباب فأجابني من خلف الباب: يا أبا

---

(١) منتهى الآمال ج٢ ص ١٢٦.

بصير أعدت كل الأموال الحرام لأصحابها، وحتى الألبسة التي كانت لدي وأنا الآن عارٍ، يا أبا بصير لقد عملت بحسب أمر الإمام الصادق وتركت كل المعاصي، يقول أبو بصير تأثرت لكلامه وتوبته وتعجبت لمدى تأثير كلام الإمام فيه، عدت إلى منزلي وجهزت له شيئاً من الطعام وبعض اللباس وأخذتها له. بعد مدة أرسل خلفي فذهبت، لأجده مريضاً عليلاً، بقيت أعوده مدة من الزمن، لم ينفع العلاج معه في شيء، حتى اشتد المرض عليه وبدأت علامات الاحتضار واضحة عليه. جلست بقربه وكان غائباً عن الوعي، وفجأة فتح عينيه وقال: يا أبا بصير لقد وفى الإمام الصادق عليه السلام بوعده. قال هذا وفارق الدنيا. بعد مدة وفقت للحج وزرت الإمام الصادق، مجرد أن وطأت عتبة داره ناداني سلام الله عليه وقال: يا أبا بصير لقد وفيت وعدي لجارك وأعطيته الجنة التي وعدت[1].

كان يوجد مثل هؤلاء ولا يزال، فبلفتة واحدة وإقدام شجاع تغلبوا على النفس الأمّارة، وسيطروا على زمامها وطهروها بثورة داخلية وهذبوها من السيئات، يتضح إذن أنه من الممكن لنا طي هذه الطريق أيضاً.

قال علي عليه السلام: «غالبوا أنفسكم على ترك العادات، وجاهدوا أهواءكم تملكوها»[2].

وقال عليه السلام: «أفضل العبادة غلبة العادة»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله»[4].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: فيما ناجى الله عز وجل موسى عليه السلام: «يا موسى! ما تقرب إلي المتقربون بمثل الورع عن محارمي. فإني أبيحهم جنات عدن لا أشرك معهم أحداً»[5].

---

(١) منتهى الآمال ج٢ ص ٨٦.
(٢) غرر الحكم ص ٢٦٩ حكمة ٧.
(٣) غرر الحكم ص ١١٤ حكمة ٣٦٦.
(٤) الكافي ج٢ ص ٨٠.
(٥) الكافي ج٢ ص ٨٠.

طبعاً أنا أقر بأن ترويض النفس الأمّارة وترك المعصية عموماً ليس بالأمر السهل، لكن إذا وجد التأمل والمعرفة والتفكير بالعاقبة والهمة والإرادة، لن يكون أمراً صعباً، لأنه سيكون ملازماً للتأييدات الإلهية: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

٣ ـ **الترك التدريجي**: إذا لم تكن فينا تلك الهمة وتلك القدرة بأن نترك كل الذنوب دفعة واحدة، يمكننا أداء هذا العمل تدريجياً، فنبدأ أولاً بترك ذنب أو مجموعة ذنوب على نحو التجربة، ونستمر في ذلك حتى ننتصر في تركها على أنفسنا ونقطع دابرها، ثم نبدأ بنفس الأمر في ذنب آخر أو مجموعة ذنوب أخرى، ونستمر في ذلك حتى يتحقق النصر النهائي، وعلينا أن نراقب أنفسنا بدقة وعناية حتى لا نعود لارتكاب الذنب المتروك مرة ثانية، ومع كل ذنب يترك يضعف الشيطان والنفس الأمّارة بنفس المقدار، وتزداد قدراتنا وتتضاعف على ترك المعصية وتهذيب النفس، وكلما خرج شيطان من النفس حلّ مكانه ملك، وكلما زالت نقطة سوداء من صفحة القلب زيد من نورانيته وبياضه بنفس المقدار.

ونستمر في ترك الذنوب بهذا النحو حتى نصل إلى تهذيب النفس الكامل والنصر النهائي، وترويض كل الرغبات النفسية، ويمكننا خلال ذلك أن نصل إلى درجة من القدرة تخولنا ترك كل الذنوب تركاً مباشراً، وعندما يجب علينا الاستفادة من هذه الفرصة الثمينة فنترك كل الذنوب، ونروض النفس الأمّارة من خلال طرد الشيطان، ونخصص القلب لله ولملائكته المقربين. إذا سعينا وجاهدنا في هذا المجال فسنوفق حتماً. جهاد النفس تماماً كجهاد العدو، حيث يجب على المجاهد أن يراقب عدوه بصورة دائمة، وأن يزن قدراته في مقابل قدرات الأعداء، ويسعى لتقوية قواه بأي نحو ممكن من خلال الاستفادة من الفرص، فيحمل على العدو ويهلك جنوده، أو يطرده من بلد النفس.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

الأمور التي تساعد على تهذيب النفس

١ ـ التفكر:

الغفلة هي إحدى الموانع المهمة لتهذيب النفس. إذا كنا منشغلين بالأمور الدنيوية ليلاً ونهاراً، إذا كنا نتهرب من ذكر الموت ولا نكون مستعدين للتفكير بالموت ولو لساعة، فإذا ما خطر على بالنا نهرناه بسرعة، إذا كنا غافلين عن الآثار الخطيرة للأخلاق السيئة، إذا كنا لا نفكر في حد الذنوب وعذاباتها الأخروية، وإذا لم يكن الإيمان بالمعاد قد نفذ إلى أعماق نفوسنا، فلم يتجاوز كونه مفهوماً ذهنياً، كيف يمكننا التصميم على تهذيب نفوسنا وإعادة بنائها مع هكذا غفلة؟ وأن نروضها ونسيطر عليها؟ وهل بهذه البساطة يمكن مواجهة النفس الأمّارة؟ الغفلة، بنفسها أحد أمراض النفس الكبرى، ومنشأ الكثير من الأمراض، ودواء هذا المرض: التفكر، تخيل العاقبة، وتقوية قوى الإيمان. يجب على الإنسان أن يراقب نفسه دائماً، أن لا ينسى الموت أبداً، أن يفكر بالعواقب السيئة للأمراض النفسية وبعقاب الذنوب، وعذابات القبر الشديدة، عليه أن يضع نصب عينيه الحساب والكتاب والقيامة وبصورة دائمة، وعندها يصبح جاهزاً لتهذيب النفس، يصبح قادراً على العزم بجد، فيطهر نفسه من الأخلاق السيئة والذنوب.

قال علي عليه السلام: «مَن عمر قلبه بدوام الفكر حسنت أفعاله في السر والجهر»[1].

٢ ـ التأديب والمجازاة:

متى ننتصر في تهذيب النفس يمكننا الاستفادة من التنبيه والتأديب والمجازاة. في البداية نخاطب أنفسنا ونهددها، كأن يقول المرء لنفسه: لقد صممت على ترك الذنوب، إذا لم تساعديني وعصيتني فارتكبت الذنب الفلاني فسأعاقبك بكذا. مثلاً

---

(١) غرر الحكم ص ٣٥٣ حكمة ١٠٥٠.

إذا استغاب يصوم يوماً، أو لا يتحدث طوال أسبوع إلا عند الضرورة، أو يتصدق بالمبلغ الفلاني، أو لا يشرب الماء يوماً كاملاً، أو يحرم نفسه من وجبة طعام، أو يبقى تحت أشعة شمس الصيف الحارة حتى لا تنسى حرارة جهنم وأمثال هذه الأمور.

ثم نراقب أنفسنا بدقة حتى لا تغتاب، فإذا اغتابت نقف في وجهها بحزم وجد وننفذ ما هددناها به. عندما تشعر النفس الأمّارة أننا مصممون على ترك المعصية، وأننا نجازيها دون رفق نستسلم أمام رغباتنا المشروعة، وإذا استمرينا على هذا البرنامج مدة ما دون توقف استطعنا إغلاق سبل نفوذ الشيطان، فنكون قد روضنا النفس الأمّارة تماماً، ولكن يشترط في ذلك أن نصمم بجد فنؤنب ونجازي النفس دون أدنى رفق، الأمر الذي يثير العجب، وهو أننا نسارع إلى تأنيب المخطئين مع أقل خطأ يصدر منهم، ولكننا لا نطبق نفس الأمر مع أنفسنا لتهذيبها وإعادة بنائها. مع أن السعادة والنجاة الأخروية ترتبط بهذا الأمر! . لقد وُفق الكثير من عباد الله الصالحين لتهذيب أنفسهم من خلال استخدام هذه الوسيلة.

قال علي عليه السلام: «نعم العون على أسر النفس وكسر عادتها الجوع»[١].

وقال علي عليه السلام: «مَن استدام رياضة نفسه انتفع»[٢].

وفي المحجة البيضاء روي عن ليث بن سليم قال: سمعت رجلاً من الأنصار يقول: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله مستظل بظل شجرةٍ في يوم شديد الحر إذ جاء رجلٌ ينزع ثيابه ثم جعل يتمرغ في الرمضاء يكوي ظهره مرة وبطنه مرة وجبهته مرة ويقول: يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك، ورسول الله ينظر إلى ما يصنع، ثم إن الرجل لبس ثيابه ثم أقبل فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وآله بيده ودعاه. فقال له: يا عبد الله لقد رأيت صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟

فقال الرجل: حملني على ذلك مخافة الله، وقلت لنفسي يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك، فقال النبي صلى الله عليه وآله: لقد خفت ربك حق مخافته وإن ربك

---

(١) غرر الحكم ص ٣٩٤ حكمة ٤٧.
(٢) غرر الحكم ص ٣٢٧ حكمة ١٢٣.

ليباهي بك أهل السماء، ثم قال لأصحابه: يا معشر مَن حضر إدنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم فدنوا منه فدعا لهم وقال: اللهم اجمع أمرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا والجنة مآبنا[1].

وقال علي عليه السلام: «تولوا من أنفسكم تأديبها واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة: طوبى لعبدٍ جاهد لله نفسه وهواه، ومَن هزم جند هواه ظفر برضا الله، ومَن جاوز عقله نفسه الأمّارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله والخشوع، والجوع، والظمأ بالنهار، والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر. قال الله عز وجل: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾**[3].

٣ ـ الالتفات إلى قيم الذات وتقوية القيم الإنسانية:

ذكرنا فيما سبق أن نفس الإنسان جوهر ثمين، أُفيضت وظهرت إلى الوجود من عالم الحياة والعلم، والكمال، والجمال، والرحمة، والإحسان. ومن الطبيعي أنها من سنخ تلك الأمور؛ ولو التفت الإنسان إلى مقامه الشامخ وقيمة وجوده، لاعتبر الأخلاق السيئة وارتكاب المعصية دون شأنه، ولتجنبها. عندما يفهم أنه إنسان، وأن الإنسان نفخة إلهية جاءت من العالم العلوي، لا يبقى للشهوات وللرغبات الحيوانية في نظره أي قيمة، وتحيا الرغبة بمكارم الأخلاق في وجوده.

قال علي عليه السلام: «مَن كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته»[4].

وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام: «مَن أعظم الناس خطراً؟ قال: مَن لم يرَ الدنيا

---

(١) المحجة البيضاء ج٧ ص٣٠٨.
(٢) غرر الحكم ص١٧٨ حكمة ١٢٩.
(٣) المحجة البيضاء ج٨ ص ١٧٠.
(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم ٤٤٤.

خطراً لنفسه»[1].

إذن، الالتفات إلى كرامة الروح الإنسانية، وإدراك الإنسان لقيمته الوجودية ولمقامه الشامخ يمكنه أن يكون عاملاً مساعداً في تهذيب النفس من الرذائل والمعاصي. لو خاطبنا نفوسنا فقلنا لها: لقد جئت من عالم القدس، والعلم، والحياة، والكمال، والإفاضة، والرحمة، والإحسان، أنتَ خليفة الله، أنتَ إنسان، وقد خلقت للحياة الأخروية الخالدة والتقرب إلى الله، أنت أفضل من الحيوان، قيمتك الوجودية ليست في اتباع الأهواء الحيوانية. عندها تصبح مسألة تهذيب النفس بالنسبة لنا أسهل، ولا بد في مرحلة تهذيب النفس من كل رذيلة، أن يقوي الراغب الصفة المعاكسة حتى لا تزول صفة الرذيلة تدريجياً، وتحل مكانها صفة حسنة لتصبح تدريجياً عادة وتخرج بصورة طبع ثانوي. مثلاً: لو كنا نكن الحسد والبغضاء لشخص فنكره له النعمة والفرح ونرضي عقدنا الداخلية من خلال ذكره بسوء وتوهينه ومشاكسته وإهماله، يجب أن نسعى للتصرف معه خلاف ذلك، فنمدحه ونمجده ونحترمه ونحسن إليه، ونتعاون معه، ونتمنى له الخير. عندما تصبح تصرفاتنا مغايرة لمقتضى الحسد تزول صفة الرذيلة تلك تدريجياً لتحل مكانها صفة حب الخير.

إذا كنا مبتلين بمرض البخل، فيجب علينا أن نفرض على أنفسنا صرف المال في الموارد المشروعة والضرورية حتى تزول رذيلة البخل تدريجياً ونعتاد على الإنفاق والجود والإحسان.

إذا كان لدينا بخل في دفع الحقوق الإلهية الواجبة، علينا أن نقف أمام نفوسنا بحزم، فلا نعتني بوسوستها وندفع الحقوق المالية الواجبة. إذا كنا نبخل في صرف الأموال لتأمين مصاريف عوائلنا، يجب علينا أن نفرض ذلك على أنفسنا حتى نعتاد عليه؛ وإذا كنا نمتنع عن المشاركة في أمور الخير بسبب البخل، علينا أن نبدأ بهذا العمل بأي طريقة ممكنة، فننفق مقداراً من أموالنا في سبيل الله ولمساعدة المساكين حتى نعتاد تدريجياً على هذا العمل، وطبعاً يمكن أن نستصعب الأمر في البداية، لكن إذا ثبتنا واستقمنا يصبح الأمر مع الوقت سهلاً.

---

(١) تحف العقول ص ٢٨٥.

إذا أردنا تهذيب نفوسنا ومواجهة الأخلاق السيئة، فلا بد لنا من القيام بأمرين:

الأول: عدم الاستجابة لرغبات وطلبات تلك الإرادة السيئة حتى ييبس جذعها بالتدريج.

الثاني: أن نقوي صفة الضد الحسنة لها، وأن نفرض على أنفسنا العمل بها حتى نعتاد عليها تدريجياً، لتصبح ملكة وصفة ثابتة فينا ويُقطع دابر الرذيلة.

قال علي عليه السلام: «أكره نفسك على الفضائل، فإن الرذائل أنت مطبوع عليها»[1].

وقال أيضاً عليه السلام: «عوّد نفسك فعل المكارم وتحمل أعباء المغارم تشرف نفسك وتعمر آخرتك ويكثر حامدوك»[2].

وقال: «الشهوات أعلال قاتلات وأفضل دوائها اقتناء الصبر عنها»[3].

وقال: «لا ينبغي للمرء المسلم أن يواخي الفاجر، فإنه يزين له فعله، ويحب أن يكون مثله ولا يعينه على أمر دنياه ولا أمر معاده ومدخله ومخرجه من عنده شين عليه»[4].

٤ ـ ترك معاشرة صحبة السوء:

الإنسان موجود يتأثر ويقلد، يتعلم الكثير من الصفات والآداب والعادات من أقرانه الذين يرافقهم، لا بل ويصبح مثلهم، يترك الأصحاب والرفاق أثراً أكبر عليه. مصادقة الفاسدين ذوي الأخلاق السيئة تؤدي إلى سوء الخلق، ومصادقة الصالحين ذوي الأخلاق الحسنة تدعو الإنسان نحو الصلاح والفلاح. إحدى خصائص الإنسان، أنه يحب أن يجعل من نفسه كالآخرين. إذا كان صحابته سيئي الأخلاق عاصين استأنس بالأخلاق السيئة وبالمعصية، فلا يعود يدرك سوءها، بل وغالباً ما يتصورها أموراً حسنة. أما لو كان أصحابه حسني الأخلاق صالحين استأنس بمكارم

---

(١) غرر الحكم ص ٨٣ حكمة ٢٢٣.
(٢) غرر الحكم ص ٢٦١ حكمة ٢٦١.
(٣) غرر الحكم ص ٣٩ حكمة ١٠٣٥.
(٤) الكافي ج٢ ص ٦٤.

الأخلاق وبالسلوك الحسن، ورغب في أن يصبح مثلهم. إذن فالخليل الحسن من النعم الإلهية الكبرى، ويعتبر من عوامل رقي وسعادة الإنسان؛ أما رفيق السوء فهو من عوامل سوء حظ الإنسان وانحرافه، لا يمكننا اعتبار انتخاب الصديق أمراً ثانوياً غير ذي أهمية، بل هو أمر أساسي ومصيري.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا ينبغي للمرء المسلم أن يواخي الفاجر فإنه يزين له فعله ويحب أن يكون مثله، ولا يعينه على أمر دنيا ولا أمر معاده ومدخله ومخرجه من عنده شين عليه»[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا ينبغي للمرء المسلم أن يواخي الفاجر، ولا الأحمق ولا الكذاب»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المرء على دين خليله وقرينه»[3].

وقال علي عليه السلام: «إياك ومصاحبة الفسّاق فإن الشر بالشر يلحق»[4].

وقال علي عليه السلام: «إياك ومعاشرة الأشرار فإنهم كالنار مباشرتها تحرق»[5].

وقال أيضاً عليه السلام: «احذر مجالسة قرين السوء فإنه يهلك مقارنه ويردي مصاحبه»[6].

إذن يجب على الراغب بتهذيب نفسه أن يترك مصاحبة أصحاب السوء إذا كان لديه منهم، لأنه يصعب ترك المعصية مع الاحتفاظ بأصحاب السوء. أصحاب السوء يضعفون إرادة الإنسان في تهذيب النفس، ويرغبونه في المعصية والفساد. ارتكاب المعصية عادة، وإنما يمكن تركها إذا تجنّب الإنسان معاشرة سائر المعتادين على ارتكابها.

---

(١) الكافي ج٢ ص ٦٤.
(٢) الكافي ج٢ ص ٢٤٠.
(٣) الكافي ج٢ ص ٢٤٢.
(٤) غرر الحكم ص ٩٧ حكمة ٩٢.
(٥) غرر الحكم ص ٩٧ حكمة ٩٦.
(٦) غرر الحكم ص ٩١ حكمة ١٩.

٥ ـ الابتعاد عن الموارد التي يحتمل أن يضعف فيها:

تهذيب النفس وترك المعصية نهائياً ليس بالأمر السهل بل صعب. الإنسان معرض للضعف دائماً ولارتكاب المعصية، والنفس الأمّارة تدعوه للسيئات، والقلب الذي هو مركز القيادة في حال تغيير وتحول دائماً، يتأثر بالحوادث الخارجية ويأمر بحسبها، يأمر بحسب الشروط التي تحيط به، بحسب ما يرى مَن يسمع. عندما يكون الإنسان في مجالس العبادة والإحسان لا بد أن يميل القلب نحوها ويرغب بها، وعندما يكون في مجالس ومراكز الفسق والفجور والمعصية ينجر حتماً نحو المعصية. عندما يرى ساحات المعنويات، يرغب بالمعنويات، وعندما يرى المناظر المثيرة تتحرك شهوته. إذا شارك في مجالس الفجور، مال للفجور، وإذا شارك في مجالس الدعاء والذكر، توجه نحو الله. إذا جلس مع أهل الدنيا المبهورين بالمال والمنال، انجر نحو اللذات الحيوانية، وإذا عاشر عباد الله الصالحين، غلب عليه حب الصلاح والفضل؛ لهذا يصبح من اللازم والضروري على الذين هم في صدد تهذيب النفس وترك المعصية أن يمنعوا عيونهم عن رؤية المناظر المثيرة للشهوة وعن الفساد والانحراف والمعصية، أن لا يشاركوا في هكذا مجالس، وأن لا يختلطوا بهكذا أفراد، وإلا كانوا دائماً عرضةً للوهن والضعف والخطأ والمعصية. لهذا ينهى الإسلام عن المشاركة في مجالس الحرام من قبيل مجالس القمار والشراب وسائر مجالس المعصية، ويمنع النظر إلى غير المحرم والخلوة بالمرأة الأجنبية ومصافحتها وممازحتها... بل ويعد هذا الأمر من الحكم الأساسية لتشريع الحجاب، يريد الإسلام أن يكون المحيط جاهزاً لترك المعصية وتهذيب النفس. وفي غير هذه الحالة لن يكون بالإمكان السيطرة على النفس الأمّارة، لأن المحيط الفاسد يجر الإنسان نحو الفساد. وحتى التفكير بالمعصية يمكن أن يدعو الإنسان نحوها، لهذا يقول لنا الإسلام: لا تفسحوا في المجال أمام فكر المعصية في الدخول إلى عقولكم.

قال علي عليه السلام: «إذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن العاقبة»[1].

وقال علي عليه السلام: «فكرك في المعصية يحدوك على الوقوع فيها»[2].

---

(١) غرر الحكم ص ١٥٥ حكمة ٤.

(٢) غرر الحكم ص ٢٧٧ حكمة ٧٥.

حب النفس أم الفساد

يعتبر علماء الأخلاق صفة حب النفس أمّ الفساد وأساس كل الرذائل والذنوب، ويجب مواجهتها بجدٍ مع تهذيب النفس. في البداية لا بدّ لنا من تفسير معنى حب النفس، ثم ننتقل فيما بعد لبيان آثارها السيئة وشرح أسلوب مواجهتها، وفي نفس الوقت لا بد لنا أن نعرف أن كل موجود حي يحب صفاته وآثاره وأفعاله وكمالاته، يعني أن حب الذات من طبعه؛ لهذا لا يمكننا ذم حب النفس كلياً بالمطلق، بل هذا يحتاج إلى تفصيل وشرح.

سبق لنا أن بيّنا أن للإنسان بعدين وجوديين، لديه نفسان أو ذاتان: الذات الإنسانية والذات الحيوانية.

ذاته الإنسانية نفخة إلهية نزلت من عالم الملكوت حتى تكون خليفة الله على الأرض، وهذا البعد في سنخية العلم، والحياة، والقدرة، والرحمة، والإحسان، والإفاضة، والكمال، والحسن، ومن الطبيعي أن يكون راغباً بها. إذن إذا عرف الإنسان ذاته وأدرك قيمته الوَجودية وكرمها، اقترب أكثر من منبع كل الكمالات والحسنات، وأحييت فيه الفضائل والمكارم والحسنات، ولهذا لا يمكننا ذم هذا النوع من حب الذات، بل هو حسن وممدوح، لأن هذه الصفة ليست حباً للذات، بل هي حب لله في الواقع، كما سبق وذكرناه وسنبحث لاحقاً في الموضوع بتفصيل أكبر.

البعد الآخر من وجود الإنسان، البعد الحيواني، وهو في هذه المرحلة حيوان واجد للغرائز والميول والأهواء الحيوانية. حتى يحيا الإنسان في هذا العالم لا بد له من تأمين حاجاته الحيوانية في حدها المعقول، في هذا الجانب لا يوجد أي مانع أو

ذم أيضاً، لكن النقطة المهمة والمصيرية هي في جواب هذا الاستفسار: هل أن حاكمية البدن هي تحت سيطرة العقل والروح الملكوتية الإنسانية، أم تحت سيطرة النفس الأمّارة أو الذات الحيوانية؟

إذا حكم العقل والذات الإنسانية عُدلت النفس الحيوانية ورغباتها، وجُعلت في مسير إحياء الفضائل والمكارم الإنسانية والسير والسلوك إلى الله. هنا تتأصل الذات الإنسانية التي هي الوجود المرتبط بالله. يصبح إحياء الفضائل والمكارم الأخلاقية والاستكمال والقرب إلى الله هدفاً، ويصبح تأمين الحاجات الحيوانية شيئاً تبعياً وطفيلياً. إذن ليس أن حب الذات وإكرامها غير مذموم وحسب، بل وسيكون ممدوحاً.

أما إذا تحكمت النفس الأمّارة والذات الحيوانية بالبدن، تغلبت على العقل والذات الإنسانية وجعلتهما منزويين، وسيطرت على كامل البدن. عندها يبتعد الإنسان تدريجياً عن الله والكمالات الإنسانية ويسقط في وادي الحيوانية المظلم. الذات الواقعية تعني نسيان الإنسانية، وترك الذات تعني إجلاس الحيوانية في مجلسها، وهذا هو المعنى المذموم لحب الذات وهو منشأ كل السيئات.

الإنسان المحب لذاته هو الذي يريد ذاته الحيوانية. حيث يكون تأمين رغباته الحيوانية محور كل الحركات والأفعال والتصرفات والأقوال، يعتبر نفسه حيواناً عملياً لا هدف له في الحياة إلا تأمين الرغبات والأهواء الحيوانية، يعتبر نفسه حراً لتأمين أهدافه الحيوانية الوضيعة، ويبرر كل عمل وفعل؛ لديه شيء وحيد مقدس وأصيل وهو النفس الحيوانية؛ يرغب بكل شيء وحتى بالحق والعدالة من أجل ذاته فقط؛ يرغب بالحق والعدالة اللذين يكونان مسخرين لمسير رغباته، أما إذا كانا ضد مصلحته رفضهما، بل ويعطي نفسه الحق لمواجهتهما، ويصل به الأمر إلى تأويل وتوجيه قوانين وأحكام الدين بحسب رغباته. أي أنه يؤصِّل أفكاره وآراءه ويطبق أحكام وقوانين الدين معها.

يشغل الإنسان المحب لذاته نفسه بأمور كاذبة وموهومة من قبيل: الشهرة، الجاه، عبادة المقام، الفخر، التجمل، الحرص والطمع، التكبر والرئاسة، الطعام

والنوم واللذات الجنسية، لأنه محروم من المكارم والفضائل والكمالات الحقيقية، ويبقى غافلاً عن ذكر الله وعن تربية وتنمية وتكامل نفسه.

ولكون الإنسان المحب لذاته غارقاً في طاعة النفس الأمّارة، فليس لديه من هدف في الحياة أكثر من تأمين رغبات النفس وإرضائها، لا يتورع عن ارتكاب أي سوء للوصول إلى أهدافه الحيوانية، ويجوز لنفسه أي فعل مهما كان سيئاً ويبرره، ولا يتورع عن الظلم، الكذب، التهمة، إخلاف الوعد، التزوير، الخيانة، وأي معصية أخرى في سبيل الوصول لأهدافه. إذن حب الذات أم الفساد وهي مَن يبرر ويوجه أي عمل، بل ويمكن القول: إن كل معصية هي في الحقيقة نوع من حب الذات تظهر بهذه الصورة. مثلاً: ظلم الآخرين والاعتداء عليهم ليس شيئاً آخراً غير حب الذات. وهكذا الكذب، الغيبة، سوء القول، الإعابة، الحسد، الانتقام. كل هذا من رذائل حب الذات، تتجلى بهذا المظهر، ولهذا فإن حب الذات أمّ الفساد.

حب الذات له مراتب ودرجات مختلفة، أعلى درجاته تصل إلى عبادة الذات. إذا لم يواجه الإنسان هذه الصفة السيئة اشتدت تدريجياً حتى تصبح لديه النفس الأمّارة معبودة وواجبة الطاعة، فيصبح عابداً لرغباته. يقول الله تعالى في حق هكذا أفراد:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

وهل العبادة غير أن يتواضع العابد أمام معبوده فيركع أمامه ويستجيب له دون سؤال أو استفهام؟ المحب لذاته هكذا، يعتبر نفسه واجبة الطاعة، يتواضع أمامها ويسجد لها ويطيعها دون سؤال، لهذا لا يمكن للمحب لذاته أن يكون موحداً.

حب الدنيا رأس كل خطيئة:

شددت الآيات والروايات كثيراً على ذم الدنيا وتسميتها باللهو واللعب ومتاع الغرور؛ والاستغراق فيها ليس من شيم المؤمنين، بل يجب تجنبها بجد، ومن باب المثال نذكر مجموعة منها:

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٤٣.

يقول تعالى في القرآن: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

ويقول أيضاً: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

ويقول: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[3].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم جرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرارة، ضرارة، حائلة، زائلة، نافذة، بائدة، أكالة، غوّالة»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً: «والدنيا دار منى لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضراء، وقد عجبت للطالب والتبست بقلب الناظر»[5].

لدينا الكثير من الآيات والروايات التي تؤكد على مذمة الدنيا وتحذر الناس منها، خصوصاً في كتاب نهج البلاغة الثمين، وفيها تشديد كبير على ذم الدنيا وأهلها، وتطلب من الناس تركها والتفكير بالآخرة، وتقسم الناس إلى قسمين: أهل الدنيا وأهل الآخرة، ولكل قسم برنامج خاص.

يقول تعالى في القرآن: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[6].

ويقول أيضاً: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٢.
(٣) سورة الحديد، الآية ٢٠.
(٤) نهج البلاغة، خ١١١.
(٥) نهج البلاغة، خ٤٥.
(٦) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

ما هي الدنيا؟:

على كل حال، الإسلام يذم الدنيا ويطلب من الناس أن يزهدوا فيها، والآن لا بد لنا من توضيح ماهية الدنيا وكيف يجب تجنبها.

هل الدنيا عبارة عن موجودات هذا العالم من الأرض، والشمس، والكواكب، والحيوانات، والنبات، والأشجار، والمعادن، والبشر؟ في مقابل الآخرة والعاقبة، أي الدار الآخرة؟ إذن الحياة الدنيا عبارة عن العمل، والأكل، والشرب، والاستراحة، والزواج، وغير ذلك من الأمور المرتبطة بالحياة في هذا العالم؛ هل يذم الإسلام هذه الأمور؟ هل السماء والأرض والحيوانات والنباتات سيئة، ويجب على الإنسان تجنبها؟ هل يذم الإسلام الكسب والعمل وتحصيل الرزق والإنتاج والتوالد؟ طبعاً ليس الأمر كذلك، كلها مخلوقات الله ولو كانت سيئة لما خلقها؛ فالله يعتبرها جميعاً نعماً إلهية جميلة سخرها للإنسان حتى يستفيد منها. لم يذم الإسلام الثروة والمال، بل وعرّفها على أنها خير في القرآن الكريم.

يقول تعالى في القرآن: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2].

لم يذم الإسلام العمل وتحصيل الرزق الحلال، بل عدّه من أفضل العبادات في كثير من الروايات:

قال رسول الله ﷺ: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَن طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس، وتوسيعاً على أهله، وتعطفاً على جاره، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٦.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٠.
(٣) الكافي ج٥ ص٧٨.
(٤) الكافي ج٥ ص٧٨.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[1].

أكدت الروايات كثيراً على الكسب والعمل والزراعة والتجارة، بل وحتى على النكاح، وهكذا كانت سيرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار الذين كانوا يعملون. كان علي بن أبي طالب إمام الزاهدين يجد في عمله ويسعى... إذن ما هي الدنيا المذمومة؟

قال البعض: الدنيا ليست مذمومة، بل المذموم التعلق بالدنيا، وقد ورد ذم التعلق بالدنيا في بعض الآيات والروايات، مثلاً:

يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2].

وقال علي عليه السلام: «إياك وحب الدنيا فإنها أصل كل خطيئة ومعدن كل بلية»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «رأس كل خطيئة حب الدنيا»[4].

يستفاد من هذه الآيات والروايات أن التعلق بأمور الدنيا أمر مذموم وسيّىء، لا أن نفس تلك الأمور مذمومة.

وهنا ينشأ هذا السؤال، وهو هل أن مطلق التعلق والمحبة لأمور الدنيا مذموم، بحيث أنه يجب على الإنسان أن لا يتعلق بزوجته وأبنائه والمنزل والأموال والطعام؟ هل يمكن قول هذا؟ مع أن التعلق بهذه الأمور أمر فطري طبيعي، والله خلق الإنسان هكذا، هل يمكن أن لا يحب الإنسان زوجته وأبناءه؟ وهل يمكنه أن لا يحب أطعمة وألبسة ومحاسن هذه الدنيا؟ لو كان حب هذه الأشياء مذموماً لما خلق الله الإنسان

---

(١) الكافي ج٥ ص٥٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤.
(٣) غرر الحكم ص ٩٥ حكمة ٤٧.
(٤) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٧.

هكذا. فهو يحتاج لهذه الأمور كي يبقى صاحياً، وهكذا خلق، خلق ليكون ميالاً لها بالطبع.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس أبناء الدنيا، ولا يلام الرجل على حب أمّه»[1].

وأكدت الروايات على ضرورة أن يحب الرجل زوجته وأبناءه؛ كان النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام يظهرون حبهم لزوجاتهم وأبنائهم؛ كانوا يحبون بعض الأطعمة ويظهرون ذلك. إذن لا الأرض ولا السماء ولا النبات ولا الشجر ولا المعادن ولا الحيوانات ولا سائر النعم الإلهية مذمومة وسيئة، ولا الزوجة والأبناء ولا المال والمنال، ولا محبتهم ومحبة الحياة في الدنيا، بل قد ورد مدح الدنيا في بعض الروايات.

في جواب أجابه أمير المؤمنين عليه السلام لسائل قال: «إن الدنيا دار صدق لمَن صدقها، ودار عافية لمَن فهم عنها، ودار غنى لمَن تزود منها، ودار موعظة لمَن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة»[2].

وعن أبي جعفر عليه السلام أنه كان يقول: «نعم الصوت الدنيا على الآخرة»[3].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «لا خير في مَن لا يحب جمع المال من حلال، يكف به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه»[4].

إذن ما هي الدنيا المذمومة؟ وما هو حب الدنيا والتعلق بها الذي جعل على رأس كل الخطايا والذنوب؟

استطعت أن أستنتج من جميع الآيات والأحاديث أن الاستغراق في الدنيا والتعلق الشديد بها مذموم، لا موجودات الدنيا وحياتها، ولا مجرد التعلق بالأمور

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٣.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ١٣٠.
(٣) بحار الأنوار ج٧٣ ص ١٢٧.
(٤) الكافي ج٥ ص ٧٢.

الدنيوية. يريد الإسلام من الناس أن يتعرفوا إلى الدنيا كما هي، وأن يقيّموها بالمقدار الذي تستحقه لا أكثر؛ أن يعرفوا سبب خلقتهم وخلقة العالم، وأن يتحركوا بصدق في نفس المسير؛ إذا كانوا كذلك كانوا من أهل الآخرة، وإذا كان فعلهم وسلوكهم يخالف هذا الهدف كانوا أهل الدنيا.

حقيقة الدنيا:

لتوضيح الأمر نبين حقيقة وماهية الدنيا بحسب وجهة نظر الإسلام في البداية ثم نأخذ النتجية.

يعتقد الإسلام بوجود عالمين: الأول: هذا العالم المادي الذي نحيا فيه ويسمى الدنيا، والآخر العالم اللاحق الذي ننتقل إليه بعد الموت، ويسمى عالم الآخرة، أو العاقبة. يعتقد بأن حياة الإنسان لا تنتهي في هذا العالم، بل ينتقل بعد الموت إلى عالم الآخرة؛ يعتبر الإسلام هذا العالم عالماً فانياً، ممراً يعبره الإنسان في طريقه فيقر فيه قليلاً، ثم يصل إلى الدار الآخرة والمكان الأبدي.

لم يأتِ الإنسان إلى هذه الدنيا كي يحيا قليلاً ثم يموت وينتهي الأمر، بل جاء ليربي نفسه ويزكّيها ويكملها، ثم يحيا حياة سعيدة في الدار الآخرة، إذن.. الدنيا مزرعة الآخرة، ومحل التجارة ومكان تحصيل الزاد. وإن كان لا بد للإنسان من الاستفادة من النعم التي خلقها الله له حتى يبقى حياً في هذه الدنيا، لكن الاستفادة من النعم مقدمة لا هدف. لم يكن الهدف من خلقة الإنسان أن يحيا بهناء وراحة، ورفاه فيتمتع باللذائذ والمتع أقصى ما يمكنه، بل أريد له هدف أهم وأرفع وهو بناء جوهره الإنساني الشريف والسر والصعود إلى الله. ونشير إلى مجموعة من الأحاديث في هذا المجال، من باب المثال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام، بل خلقت لكم مجازاً لتزودوا منها الأعمال إلى دار القرار، فكونوا منها على أوفاز وقربوا الظهور للزيال»[1].

---

(١) نهج البلاغة، خ ١٣٢.

وقال عليه السلام أيضاً: «أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم؛ إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ لله آباؤكم! فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم»[1].

وقال أيضاً: «ألا وإن هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم، ولا منزلكم الذي خلقتم له، ولا الذي دُعيتم إليه. ألا وإنها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها، وهي وإن عرتكم منها فقد حذرتكم شرّها. فدعوا غرورها لتحذيرها وأطماعها لتخويفها، وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم إليها، وانصرفوا بقلوبكم عنها»[2].

وكما لاحظتم فقد عُرفت الدنيا في هذه الأحاديث على الشكل التالي:

فانية، زائلة، عابرة، مجاز، ومعبر لا مستقر، دار غرور وخداع، لم يخلق الناس لها بل خلقوا للآخرة، جاء الإنسان إلى هذه الدنيا كي يربي نفسه ويهذبها بالعلم والعمل وكي يجهز زاد الآخرة.

أهل الآخرة:

يريد الإسلام أن يعرف العالم للناس بهذا الشكل الذي هو عليه، ليتصرفوا طبق هذه الرؤية؛ الذين يعرفون الدنيا هكذا لن ينخدعوا أو يتعلقوا بها؛ يعيشون فيها ويستفيدون من نعمها ولذاتها المشروعة دون أن يصبحوا أسراها وعبيدها؛ لن ينسوا الله أو عالم الآخرة أبداً، فيسعون دائماً لتجهيز زاد الآخرة بالعمل الصالح؛ يحيون في هذه الدنيا ولكن أعينهم معلقة بالأفق الأعلى والأرفع؛ لا يقومون بعمل دون رعاية حضور الله تعالى؛ يشعرون بوجوده في كل لحظة ومع كل حال يكونون عليها؛ يستفيدون من كل شيء لمصلحة الآخرة؛ يعتبرون الدنيا مزرعة ومحلاً للتجارة

(١) نهج البلاغة، خ ٢٠٣.
(٢) نهج البلاغة، خ ١٧٣.

ويسعون لتهيئة الزاد للدار الآخرة؛ يستخدمون كل موجودات هذه الدنيا في سبيل الآخرة وحتى من العمل وتناول الطعام والشرب والنكاح وسائر الأعمال الدنيوية؛ ليسوا أهل الدنيا بل أهل الآخرة.

ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إنا لنحب الدنيا فقال لي: تصنع بها ماذا؟ قلت أتزوج منها وأحج وأنفق على عيالي وأنيل إخواني وأتصدق. قال: ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ والمتجر الرابح، أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة»[2].

إذن الاشتغال بالعمل والكسب والصناعة والتجارة والزراعة، ومثله أيضاً قبول المناصب والمسؤوليات الاجتماعية لا يتعارض مع الزهد وأهل الآخرة، بل يمكن استخدام هذه الأمور في سبيل الآخرة وتحصيل رضا الله تعالى. لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام من أزهد الناس وأتقاهم، مع أنه كان جاداً في عمله وسعيه للكسب؛ عندما تسلم الحكم صار ولياً على الناس، كان يقضي لياليه في الدعاء والتضرع والذكر، ومما كان يقول: «يا دنيا يا دنيا! إليك عني، أبي تعرضت؟ أم إليّ تشوقت؟ لا حان حينك؟ هيهات! غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها! فعيشك قصير وخطرك يسير وأملك حقير. آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد»[3].

ويقول في مكان آخر: «إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من

---

(١) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٦٣.
(٢) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٧.
(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٧٧.

مخالبك، وأفلت من حبائلك، واجتنبت الذهاب في مداحضك»[1].

عندما جهز أمير المؤمنين عليه السلام جيشه الجرار وتحضر للمسير على رأسه، نظر إلى ابن عباس وأشار إلى حذائه المهترىء وقال: «ما قيمة هذا النعل؟ فقال ابن عباس لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»[2].

هكذا كان عباد الله الخاصين، وهكذا هم، يحيون في هذه الدنيا، ولكن أبصارهم شاخصة نحو أفق أعلى، هم أهل الآخرة، يعملون كسائر الناس في الكسب والعمل، يجدون ويسعون، يقبلون الحكم والقيادة والولاية، ويشتغلون في إدارة أمور حياتهم، لكن يسخرون كل ذلك في سبيل إرضاء الحق وأداء واجبهم الشرعي، يستفيدون من النعم الإلهية في الحد المشروع، لكنهم طلقوا الدنيا ثلاثاً وأخرجوا مهرها من قلوبهم، يحاربون من أجل تولي السلطة والحكم، لكن للدفاع عن الحق ولإجراء العدالة، لا للرئاسة والزعامة.

أهل الدنيا:

أما الذي لم يعرف الدنيا كما هي، فهو ينشغل بالدنيا وما فيها وكأنها الهدف من خلقته، لا يحسب حساب شيء في ذلك، بل يستغرق في حب المال والمنال والنساء والأبناء والجاه والمقام؛ تعلق بالحياة الدنيا وتاه قلبه في الهيام بها، ناسياً الله والحياة والأخرى؛ غض بصره عن القيم المعنوية، وتفرغ لتأمين رغباته الحيوانية وإشباع رغباته من لذائذ الدنيا ما أمكن؛ يعتبر هذا الشخص من أهل الدنيا، حتى لو كان فقيراً محتاجاً منزوياً، يتجنب قبول المسؤوليات الاجتماعية.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[3].

---

(1) نهج البلاغة، كتاب رقم ٤٥.
(2) نهج البلاغة، خطبة ٣٣.
(3) سورة الروم، الآية ٧.

ويقول تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾[1].

ويقول: ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2].

ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أبعد ما يكون العبد من الله إذا لم يهمه إلا بطنه وفرجه»[4].

وقال علي عليه السلام: «حرام على كل قلب متوله بالدنيا أن يسكنه التقوى»[5].

وقال عليه السلام أيضاً: «ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ومما لك عند الله عوضاً»[6].

إذا ذُمت الدنيا فلأنها متاع غرور خداعة شاغلة، تظهر نفسها جميلة حلوة، تُشغل الإنسان وتمنعه عن ذكر الله وتجهيز زاد عالم الآخرة؛ ذُمت الدنيا وقُبحت كي يكون الإنسان منها على حذر، فلا يخدع بها ولا تأسره وتغرقه في أحابيلها. الشيء الذي ذُم هو التعلق بها ونسيان هدف الخلقة والغفلة عن الحياة الخالدة، لا النعم الإلهية.

أهل الدنيا وأهل الآخرة:

إذن الذي يعمل في الدنيا من أجل الآخرة هو من أهل الآخرة، والذي يعمل للدنيا هو من أهل الدنيا.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٦.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣٨.
(٣) سورة يونس، الآيتان ٧ـ٨.
(٤) بحار الأنوار ج٧٣ ص١٨.
(٥) غرر الحكم ص ١٩٢ حكمة ٣٢.
(٦) نهج البلاغة، خ ٣٢.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس في الدنيا عاملان: عامل عمل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على مَن يخلفه الفقر ويأمنه على نفسه، فيفني عمره في منفعة غيره، وعامل عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل، فأحرز الحظين معاً وملك الدارين جميعاً، فأصبح وجيهاً عند الله لا يسأل الله حاجة فيمنعه»[1].

وقال عليه السلام: «الدنيا دار ممر لا دار مقر، والناس فيها رجلان: رجل باع فيها نفسه فأوبقها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها»[2].

ليس الفارق بين أهل الدنيا وأهل الآخرة في أن يكون الشخص غنياً أو فقيراً، أن يكون مشغولاً بأمور الدنيا أو يكون عاطلاً، أن يقبل بالمسؤوليات الاجتماعية أو لا يقبل، أن يحيا بين الناس أو يتجنبهم، أن يكون مشغولاً بالكسب والعمل، أو بتحصيل العلم والتدريس، وتأليف الكتب، والوعظ والإرشاد، والخطابة، أن يستفيد من نعم الدنيا أو لا، أن يكون لديه مقام دنيوي أو لا يكون. الفرق الأساسي في إعطائه قيمة للأمور الدنيوية أو لأمور الآخرة، أن يكون قلبه متعلقاً بالحياة الدنيا أو بحياة الآخرة، أن يكون توجهه نحو الدنيا أو نحو الله، أن يعتبر تأمين الرغبات والأهواء الحيوانية هدفاً لحياته، أو يعتبر تربية الفضائل والمكارم الإنسانية هدفاً...

إن كل أمر يشغل الإنسان ويمنعه عن ذكر الله والسعي في تأمين سعادة عالم الآخرة يعتبر أمراً دنيوياً، حتى لو كان تحصيلاً للعلم، أو تدريساً، أو تأليفاً للكتب، أو الاشتغال بالإمامة والوعظ والخطابة. ولو كان الزهد في الدنيا والاشتغال بالعبادة لغير الله، لعُدَّ أيضاً من الدنيا.

إذن، اتضح لنا عدم كون كل أهل الدنيا في مرتبة واحدة، كما أنه ليس كل أهل الآخرة في مرتبة واحدة، بل إن بعض أهل الدنيا مستغرقين بالدنيا استغراقاً كاملاً،

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٦٩.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ١٣٣.

غافلين تماماً عن الله وعن عالم الآخرة، وهؤلاء يسمّون أهل الدنيا وعابديها، ووسط هذه الفئة يوجد عباد إلهيون خالصون، ليس لديهم من هدف إلا الله وعالم الآخرة وجلب رضا الله الكامل؛ ويوجد بين هاتين الفئتين مراتب ودرجات كثيرة؛ كلما كان الإنسان متعلقاً بالدنيا كلما كان من أهلها وكان بعيداً عن القرب من الله؛ وبالعكس فكلما اشتغل بذكر الله وعالم الآخرة، كان تاركاً للدنيا بنفس المقدار؛ وبعبارة أخرى كون الشخص من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة فهذان أمران إضافيان ونسبيان.

التقوى عامل مهم للتزكية

تتمتع التقوى في الإسلام بموقعية ممتازة جداً ويعتبر المتقي مؤمناً مميزاً، وقد تكررت كلمة التقوى ومشتقاتها كثيراً في القرآن ونهج البلاغة وكتب الأحاديث ـ وخصوصاً في نهج البلاغة ـ فالقرآن يعتبر ملاك الكرامة والقيم الإنسانية في التقوى حيث يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وعرفت التقوى بأنها أفضل زاد الآخرة، وأفضل وسائل السعادة:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[2].

ويقول: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

ويقول: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

ويقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

ويقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۞ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[6].

وقد عرفت التقوى في نهج البلاغة بأنها رئيسة الأخلاق وأفضل وسيلة لنيل السعادة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٧٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٣٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية ١٣٣.
(٦) سورة الطور، الآيتان ١٧ ـ ١٨.

قال علي عليه السلام: «التقى رئيس الأخلاق»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خصلة مَن لزمها أطاعته الدنيا والآخرة وربح الفوز بالجنة. قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التقوى، مَن أراد أن يكون أعز الناس فليتق الله عز وجل ثم تلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾»[٢].

وقال علي عليه السلام: «عليكم بتقوى الله فإنها تجمع الخير، ولا خير غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها من خير الدنيا والآخرة»[٣].

وقال السجاد عليه السلام: «شرف كل عمل بالتقوى، وفاز مَن فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾»[٤].

وقال علي عليه السلام: «واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ والمتجر الرابح، وأصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة»[٥].

وقال عليه السلام أيضاً: «فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصرُ عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم»[٦].

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٨٥.
(٣) بحار الأنوار ج٧٧ ص ٣٨٦.
(٤) بحار الأنوار ج٧٨ ص ١١٠.
(٥) نهج البلاغة، كتاب رقم ٢٧.
(٦) نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

التقوى هدف تشريع الأحكام:

عرفت التقوى في الإسلام بأنها قيمة أخلاقية أصيلة وهدف لتشريع الأحكام:

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

ويقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

ويقول: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3].

ويقول: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[4].

ويقول: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[5].

وكما لاحظتم كان هو الهدف من تشريع بعض العبادات، بل كان أصل العبادة أن يصبح الناس أتقياء من خلال أدائها. بل إن للتقوى أهمية بحسب نظر الإسلام إلى درجة عرفت معها بأنها ملاك قبول الأعمال، بحيث يُرد العمل الذي يكون بلا تقوى فلا فائدة فيه.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[6].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر! كن بالعمل بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل، فإنه لا يقل عمل بالتقوى، وكيف يقل ما يتقبل بقول الله: إنما يتقبل الله من المتقين»[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٣.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٩.
(٤) سورة الحج، الآية ٣٨.
(٥) سورة البقرة، الآية ١٩٧.
(٦) سورة المائدة، الآية ٢٧.
(٧) بحار الأنوار ج٧٧ ص ٨٩.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «لا يغرنكم بكاؤهم، إنما التقوى في القلب»[1].

وكما لاحظتم، يكفي للدلالة على أهمية التقوى التي عُرِّفت في القرآن والأحاديث على أنها قيمة أصيلة، وأفضل زاد للآخرة، وأهم دواء شافٍ لأمراض القلب، وأكبر وسيلة لتزكية وتهذيب النفس، إنها الهدف من جعل أحكام وقوانين الشرع.

والآن ننبري لشرح معنى التقوى:

تعريف التقوى:

غالباً ما يعرِّفون التقوى بصيغة النفي فيقولون: هي تعني تجنب المعصية والابتعاد عنها، ويضيفون؛ المحافظة على التقوى مع المشاركة في الأمور الاجتماعية أمر صعب بل ومتعذر، لأن نفس الإنسان ميّالة إلى المعصية بالطبع، فإذا ما قبل الإنسان المسؤوليات الاجتماعية، جرى للمعصية بحسب طبيعته. إذن إما أن يتجنب الأمور الاجتماعية فيحافظ على التقوى، أو يقبل بتولي المسؤوليات الاجتماعية فيفقدها، لأنه لا يمكن الجمع بين كل هذا.

الذي ينتج بالملازمة من هذا الطرح: كلما كان الإنسان أكثر انزواءً كلما كان ذا تقوى أكبر.

وقد عرفت التقوى في بعض آيات القرآن وبعض الأحاديث وفي نهج البلاغة بأنها قيمة مثبتة، لا منفية. ليس معنى التقوى ترك المعصية، بل هي عبارة عن قوة داخلية وقدرة ضبط نفسية تتأتى للنفس من خلال تمارين ورياضيات مستمرة، فتجعل النفس قوية إلى درجة تصبح معها قادرة على طاعة الأوامر الإلهية، قادرة إلى درجة تستطيع معها مقاومة رغبات النفس وأهوائها غير المشروعة. وقد عُرِّفت التقوى في اللغة بنفس هذه المعنى.

أخذت التقوى من مادة (الوقاية) وهي بمعنى الحفظ والصون؛ التقوى يعني (ضبط النفس والسيطرة عليها). التقوى صفة مثبتة، صون الشيء، لا أمر سلبي

---

(١) بحار الأنوار ج٧ ص٢٨٦.

وبرنامج منفي. التقوى يعني تقيد الإنسان وتعهده بطاعة القوانين والالتزام بأحكام الشرع، لا يقال لأي ترك للمعصية تقوى، بل تسمى ملكة ترك المعصية وقوة السيطرة على النفس وضبطها تقوى؛ التقوى أفضل زاد الآخرة، و(زاد) أمر مثبت لا منفي.

ألفت عنايتكم لبعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في التقوى:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها الزمام والقوام، فتمسكوا بوثائقها، واعتصموا بحقائقها، تؤول بكم إلى أكنان الدعة، وأوطان السعة، ومعاقل الحرز، ومنازل العز»[1].

وقال عليه السلام: «فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي غد الطريق إلى الجنة، مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ»[2].

وقال: «إعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، ولا يحرز من لجأ إليه إلا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا»[3].

وقال: «فإن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم»[4].

وقال: «إن التقوى عصمة لك في حياتك وزلفى بعد مماتك»[5].

وكما لاحظتم، فقد عُرفت التقوى في هذه الأحاديث على أنها قيمة مثبتة، وقوة وجودية رادعة صائنة، وعامل قوي مسيطر؛ التقوى لجام يُلجم به مركب النفس ويُسيطر من خلاله على أهوائها ورغباتها؛ التقوى قلعة محصنة تقي الإنسان من هجمات الأعداء الداخليين، يعني الأهواء والرغبات النفسية الشيطانية غير المشروعة؛ التقوى درع يقي الإنسان النبال المسمومة، ويمنع وصول ضربات الشياطين الماكرة؛ التقوى تحرر الإنسان من أسر الأهواء والرغبات، وتزيل عنه

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٩٥.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩١.
(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٥٧.
(٤) نهج البلاغة، خطبة ١١٤.
(٥) غرر الحكم، ص ١٢٥ حكمة ٩١.

الحرص والطمع والحسد والشهوة والغضب؛ ليست التقوى محدودة، بل هي ملكية النفس والسيطرة عليها، تعطي الإنسان عزة وشرفاً وقدرة وشخصية، تحفظ الإنسان من هجوم الأفكار الشيطانية، وتجهزه لنزول الملك الإلهي، وتلقي أنوار القدس وتمنح الأعصاب هدوءاً وطمأنينةً؛ التقوى للإنسان كالمنزل واللباس تحفظ الإنسان من الحوادث والبرد والحر.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1] إذن التقوى قيمة وجودية، وهي زاد الآخرة، لا صفة منفية. ولا ننفي هنا ورود التقوى بمعنى الخوف وترك الذنب في القرآن والأحاديث، ولكن ورد هذا على أساس كونه من لوازمها لا نفسها.

التقوى والانزواء:

إذن، لا يمكننا اعتبار الانزواء ورفض المسؤوليات الاجتماعية من علامات التقوى، بل قد يكون في بعض الموارد خلافاً للتقوى؛ لا يوجد في الإسلام رهبانية وانزواء؛ لا يوصي الإسلام أن ينزوي الإنسان ويترك المشاغل الدنيوية إحرازاً للتقوى، بل يطلب منه أن يقبل بتولي المسؤولية، أن يشارك في الأمور الاجتماعية، وأن يعمل خلال ذلك على ضبط نفسه والسيطرة عليها بواسطة التقوى، فيمنعها من الانحراف والمعصية.

لا يطلب منك الإسلام رفض الرئاسة والمقام المشروع، بل يقول: إقبلها ولكن اخدم الناس لرضا الله ولا تكن عبداً للجاه والمنصب، لا تجعل من الجاه والمقام وسيلة لنيل الشهوات والوصول لإرضاء الأهواء النفسية، ولا تنحرف عن جادة الحق.

لا يقول الإسلام: اترك العمل والكسب، ولا تسع خلف الرزق الحلال إن كنت راغباً بالتقوى، بل يقول: لا تتعلق بالدنيا فتصبح أسيراً لها.

لا يقول الإسلام: اترك الدنيا، واتخذ زاويةً لممارسة العبادة، بل يقول: عش

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

في الدنيا وأسع في عمرانها، ولكن لا تكن من أهل الدنيا، ولا تنفر وتخدع بها، بل اجعل الدنيا في طريق السير والصعود إلى الله.

هذا هو المقصود بالتقوى في الإسلام حين عُرِّفت بأنها أفضل القيم والخصال.

التقوى والبصيرة:

يستفاد من الآيات والروايات أنَّ التقوى تمنح الإنسان بصيرة سديدة، حتى يشخص مصالح دنياه وأخراه الواقعية فيتّبعها:

يقول الله الحكيم في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[1] يعني: يمنحكم بصيرة تشخصون بواسطتها طريق سعادتكم وشقاوتكم ومصالحكم ومفاسدكم.

ويقول في آية ثانية: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

ومع أن القرآن نزل لعامة الناس لكن المتقين مَن يهتدون به ويتّبعونه. ولهذا يقول:

﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم»[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «جاهدوا أنفسكم على أهوائكم تحل قلوبكم الحكمة»[5].

وقال أيضاً: «لولا أنَّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت»[6].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٣٨.
(٤) نهج البلاغة خطبة ١٩٨.
(٥) انظر تنبيه الخواطر، ص ٣٦٢.
(٦) بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٥٩.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أبي يقول. ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه، فيصير أسفله أعلاه وأعلاه أسفله»[1].

يستفاد من هذه الآيات والأحاديث ومن أمثالها أن التقوى باعثة لبصيرة العقل وتقوي قدرة إدراكه وتمييزه. العقل جوهر ثمين جعل في وجوده وديعة حتى يتعرف جيداً على الخيرات والشرور، عوامل السعادة والشقاء، وعلى كل الواجبات والمحرمات بواسطته وحتى يتمكن من تمييزها جيداً.

قال علي عليه السلام: «العقل رسول الحق»[2].

نعم جُعلت هذه الرسالة المهمة على عاتق العقل وهو قادر على القيام بها، ولا يتحقق هذا إلا إذا قبلت القوى والغرائز حكومته، دون أن تثير المشاكل والاضطرابات. الأهواء والرغبات أعداء العقل، لا يدعونه يؤدي تكاليفه كما يجب.

قال علي عليه السلام: «الهوى عدو العقل»[3].

وقال: «مَن لم يملك شهوته لم يملك عقله»[4].

وقال: «العجب يفسد العقل»[5].

وقال: «اللجوج لا رأي له»[6].

صحيح أنه أوكلت مهمة إدارة البدن للعقل وأنه قادر على ذلك، ولكن تعتبر الغرائز والأهواء النفسية من أكبر الموانع التي تحول دون ذلك. لو خرجت إحدى الغرائز عن حال الاعتدال، أو لو خرجت جميعها، ثارت وانتفضت وشاغبت، فكيف سيتمكن العقل من التوفيق في عمله؛ حتى مَن كانت غرائزه كذلك، يبقى لديه عقل،

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٥٤.
(٢) غرر الحكم ص ٤٨ حكمة ١٣٩٨.
(٣) غرر الحكم ص ٧٠ حكمة ٢١٨١.
(٤) غرر الحكم ص ٣٦٦ حكمة ٣٦٦.
(٥) غرر الحكم ص ٤٦ حكمة ١٣٠٨.
(٦) غرر الحكم ص ٥٨ حكمة ١٨١٣.

لكن عقلاً غير قادر على الإدراك والتمييز، يكون معه مصباح، لكن تحيط الأهواء والشهوات والرغبات والغرائز من كل حدب وصوب كالضباب الغليظ، تطفىء نوره وتمنعه من إدراك الواقعيات. كيف يمكن لعابد الشهوة أن يدرك مصالحه الواقعية، وأن يقف في وجه قواه الثائرة المسيطرة؟ كيف يمكن للمغرور أن يرى عيوب نفسه حتى يسعى لإصلاحها؟ والأمر نفسه ينطبق على سائر الصفات مثل: الغضب، الحسد، الطمع، الحقد، التعصب، اللجاجة، حب المال والمقام والرئاسة.

كيف يمكنه إبعاد هذه الأمور عن نفسه:

لو تسلطت إحداها أو أكثر على النفس، لما استطاع العقل العملي إدراك الواقعيات، تمنعه عن ذلك، ولو رغب العقل بالقيام بما يخالفها تبدأ بإثارة المشاكل وتثير غوغائية واضطراباً حتى يُظلم محيط العقل، فلا يتمكن من أداء واجباته، لا يمكن للإنسان الذي يكون أسيراً للأهواء والشهوات أن يأخذ العبرة من التجارب والنصائح والتحذير، بل وقد تزيد المواعظ وآيات القرآن من قساوة قلبه.

لهذا يمكن اعتبار التقوى من أفضل عوامل البصيرة وأكثرها تأثيراً في زيادة بصيرة الإنسان وقدرته على معرفة واجباته.

وفي النهاية لا بد من التذكير أن ما قيل حول كون التقوى موجبة لزيادة البصيرة، هو في العقل العملي وفي تشخيص الواجب أو بحسب المصطلح معرفة الواجبات من المحرمات، لا في العقل النظري وفي إدراك الحقائق، فهذا لا يعني أن غير المتقي ليس قادراً على درك المسائل الرياضية والطبيعية. وإن كان للتقوى تأثير أيضاً على حدة الفهم بنحو ما.

التقوى والتغلب على المشاكل:

من أهم آثار ونتائج التقوى أنها تعطي القدرة على التغلب على مشاكل ومصاعب الحياة. يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان ٢ ـ ٣.

ويقول أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «فمَن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد انصابها»[2].

يستفاد من هكذا آيات وروايات أن التقوى تساعد الإنسان على حل المشاكل والصعاب... والآن يجب علينا أن نعرف ما هو تأثير التقوى في هذا المجال.

يمكننا تقسيم مشاكل ومصاعب الحياة إجمالاً إلى قسمين:

الأول: المشاكل التي لا حل لها بيد الإنسان، مثل نقص عضو، والابتلاء بالأمراض التي لا يمكن علاجها، والأخطار التي لا يمكن الوقاية منها وأمثال هذه الأمور، حيث يستحيل علينا الوقاية منها أو رفعها.

الثاني: المشاكل والصعاب التي يمكن أن يكون لإرادتنا وتصميمنا تأثير في حلها، أو حتى في الوقاية منها، مثل أغلب المشاكل الروحية والجسدية والعائلية والاجتماعية ومشاكل العمل وغيره.

يمكن أن يكون للتقوى دور فعّال ومهم في حلِّ هاتين المشكلتين، صحيح أن الوقاية في القسم الأول ورفعه ليس في أيدينا عملياً، لكننا نملك كيفية التصرف مع تلك الابتلاءات، فالإنسان المتقي الحافظ لنفسه المسيطر عليها الذي يعتبر العالم ومشكلاته عابرة، والحياة الآخرة أصيلة وباقية، ويتكل على القوى الإلهية الدائمة يستصغر حوادث ومشاكل الدنيا ويعتبرها مؤقتة، لا يجزع ولا يفزع، بل يُسلم تسليماً مطلقاً أمام الإرادة الإلهية؛ ويستأنس بالله وبعالم الآخرة، ولا يمكن للحوادث والمشاكل العابرة أن تغير اطمئنانه إلى اضطراب. الحوادث والمشاكل والمصائب لا تسبب ألماً بالذات، بل الذي يسببه الاضطراب وعدم تحمل النفس، والتقوى تساعد الإنسان في هذا المجال.

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٤.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

أما القسم الثاني: أكثر المصائب والشدائد التي تجعل حياة الإنسان مرة معلولة للصفات السيئة والأهواء والرغبات النفسية وغلبة رغبات الشيطان. لم تأتِ أغلب ابتلاءاتنا من الخارج، بل نحن مؤثرين فيها، أغلب المشاكل العائلية تنشأ من المرأة أو الزوج أو كليهما معاً نتيجة لعدم سيطرتهما على أهوائهما النفسية، يحترقان بالنار التي أشعلاها بنفسيهما، يجزعون ويفزعون... وهكذا بالنسبة لسائر المشاكل.

الأخلاق الفاسدة كالحسد، الحقد، حب الانتقام، اللجاجة، التعصب، حب الذات، الغرور، الطمع، الشهوة، الغضب، المغامرة، التكبر وأمثال هذه الأمور، تسبب المشاكل والغم والغصة للإنسان، فتحول حياته السعيدة إلى تعاسة، يصبح هذا الإنسان أسيراً لرغباته النفسية إلى درجة يعجز معها حتى عن معرفة ألمه ودوائه. أفضل شيء يمكنه منع وقوع هذه الأمور التقوى والسيطرة على النفس وصيانتها. لا يعاني المتقي من هذه الحوادث أصلاً، يستمر في حياته بقلب مطمئن ونفس نورانية يجهز زاد آخرته. حب الدنيا منبع كل المشاكل، أما المتقي فليس متعلقاً بالدنيا وما فيها حتى يتألم لفقدانها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إياك وحب الدنيا فإنها أصل كل خطيئة، ومعدن كل بلية»[1].

التقوى والحرية:

يمكن للشخص أن يتخيل أن التقوى سلب للحرية، توجد قيوداً وحدوداً تصبح الحياة معها صعبة، يرفض الإسلام هذا المنطق ويعتبر الأمر متناقضاً بالكامل مع واقع الحال، ويعتبر التقوى سبباً للحرية والهناء والعزة والعظمة، ويعتبر غير المتقي أسيراً مأخوذاً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة»[2].

---

(١) غرر الحكم ص ٩٥ حكمة ٤٧.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ٢٣٠.

وقال أيضاً: «لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى، ولا معقل أحسن من الورع»[1].

وقال: «فمَن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد أنصابها»[2].

اعتبرت التقوى في هذه الأحاديث مفتاح حل المشاكل، وسبباً لعزة وحرية الإنسان ونجاته من المصائب والابتلاءات ومن مرارات الحياة، وأفضل ملجأ.

إذن التقوى لا تتسبب بمحدودية ولا تسلب الإنسان حريته، بل تُحيي شخصيته الإنسانية من أسر الشهوات، وتحرره من الغضب، حب الانتقام، الأحقاد، عبادة الأهواء، عبادة الجاه والمقام، عبادة البطن والشهوة؛ تقوي شخصيته الإنسانية وعقله حتى يتغلب على الغرائز والقوى الثائرة، فيعدلها ويهديها بحسب المصالح الواقعية ويمنع حصول الإفراط والتفريط.

يعتبر القرآن الأشخاص المطيعين المنقادين لأهوائهم ورغباتهم الساعين خلفها دون قيد أو شرط عُبَّاد أصنام وهوى.

يقول تعالى في القرآن: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

نعم الذي يُسَلِّم بالكامل أمام أهوائه ورغباته ولا يتورع عن ارتكاب أي شيء لإرضائها، فيهيم خلفها بجنون دون أن يستمع لنداء العقل الخيّر ولا لإرشادات الأنبياء، يكون حقيقة أسيراً وعبداً لأهوائه.

تغلب هوى النفس على شخصيته الإنسانية وعلى جوهر عقله الثمين وقيده، ولا سبيل للتحرر أمامه إلا بالتقوى. إذن التقوى لا تُقيِّد، بل تدفع الإنسان نحو الحرية.

---

(١) نهج البلاغة، باب المختار من الحكم، رقم ٣٧١.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٩٣.
(٣) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

التقوى وعلاج الأمراض:

ثبت لدينا هذا المطلب من قبل وهو أن الأخلاق السيئة مثل: الحسد، الحقد، حب الانتقام، الإعابة، الغضب، التعصب، الطمع، العجب، التكبر، الخوف، فقدان الإرادة، الوسوسة وأمثال ذلك أمراض نفسية. نفوس هكذا أفراد مريضة حقيقةً لا مجازاً. وقد ثبت في العلوم أيضاً أن بين نفس الإنسان وبدنه ارتباط واتصال متين، بل هما متحدان، وبسبب هذا الارتباط يؤثر الواحد منهما في الآخر، الأمراض الجسدية تؤذي النفس، والأمراض النفسية أيضاً تؤثر على جسد وأعصاب الإنسان تأثيراً كاملاً. كثيرة هي الأمراض النفسية التي تنشأ نتيجة للأخلاق السيئة، حتى أن منشأ بعض الأمراض يمكن أن يكون سببه الأخلاق السيئة مثل القرحة وتورم المعدة والأمعاء، سوء الهضم، وجع الرأس ووجع القلب، وسبب هذه الأمراض يكون الحسد، الحقد، الطمع، حب الذات، الغرور. والواقع يؤكد أن الإفراط في الشهوات والتعود على المضرات يسبب أمراضاً خطيرة. وكما سبق وذكرنا فالتقوى هي الحل الوحيد لعلاج الأمراض النفسية. إذن يمكننا القول إن للتقوى تأثيراً مهماً وأساسياً في علاج الأمراض الجسدية والنفسية للإنسان، وأنها تساعد على تأمين وقاية وسلامة الإنسان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن تقوى الله... شفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم»[1].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

أوصاف المتقين

حتى نتعرف على التقوى أكثر، ونطلع على علامات وصفات المتقين ننقل لكم خطبة همام عن نهج البلاغة:

روي أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همام كان رجلاً عابداً فقال: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فتثاقل عليه السلام عن جوابه ثم قال: يا همام إتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال:

أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسّم بينهم معيشتهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسّرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم في أصول آذانهم، فهم

حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم، أما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا.

ولقد خالطهم أمرٌ عظيم، لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرّجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتةً شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيفِ على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهدٌ ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبرٍ وعظمة، ولا دنوه بمكرٍ وخديعة[1].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

المراقبة عامل مهم لتهذيب النفس والسيطرة عليها

من العوامل المهمة لبناء النفس وتهذيبها، مراقبتها والالتفات إليها، لا يمكن للإنسان الذي يرغب بنيل السعادة أن يغفل عن أمراضه النفسية، بل يجب عليه مراقبة نفسه والمواظبة عليها، والانتباه لملكاته وأخلاقه وتعامله وحتى أفكاره، لتكون تحت سيطرته ونظارته بالكامل. نوضح هذا الموضوع ضمن عدة أمور:

تسجيل وضبط الأعمال:

يُستفاد من آيات القرآن الكريم ومن أحاديث النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام أن كل أعمال الإنسان وحركاته وأفعاله، وحتى تنفسه وأفكاره ونواياه تسجل وتحفظ في صحيفة أعماله، وتبقى ليوم القيامة، فينال عندها كل إنسان جزاء أعماله.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

ويقول: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].

ويقول: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[3].

ويقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[4].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيات ٦ ـ ٨.

(٢) سورة الكهف، الآية ٥٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

(٤) سورة ق، الآية ١٨.

إذا كنا نعتقد أن كل أعمالنا وتصرفاتنا وحركاتنا وأقوالنا وحتى أفكارنا ونوايانا تُسجل وتحفظ وتبقى، فكيف يمكننا الغفلة عن عواقبها؟.

الحساب في القيامة:

يستفاد من آياتٍ وأحاديثٍ كثيرة صعوبة الحساب ودقته يوم القيامة، يُحاسب الإنسان على كل أعماله صغيرها وكبيرها، ولا يُغفل عن أصغرها.

يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1].

ويقول: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[2].

ويقول: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[3].

وُصفت القيامة بيوم الحساب في القرآن، ووصف الله تعالى بسريع الحساب.

وبحسب الآيات والروايات يتضح أن إحدى المراحل الصعبة التي سيعاني منها كل البشر، المحاسبة ووزن الأعمال. يقوم الإنسان خلال عمره بأعمال كثيرة، وبعد مدة ينسى أكثرها، مع أن أدنى عملٍ لا يمحى من صحيفة أعماله. كل شيء يُكتب ويُسجل في الدنيا ويبقى مع الإنسان، وحتى لو غفل عن أعماله كلياً، فسيراها كلها بعد الموت وبعد أن تستنير عين بصيرته؛ عندها يشعر أن كل أعماله وأقواله وعقائده وأفكاره حاضرة وقرينة له، ولا تنفصل عنه أبداً.

يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٤.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ٨ـ٩.

(٤) سورة ق، الآيتان ٢١ـ٢٢.

«عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت»[1].

وفي الخبر النبوي: «أنه يفتح يوم القيامة على كل يوم من أيام عمره أربعة وعشرون خزانة ـ عدد ساعات الليل والنهار ـ فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً، فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار، وهي الساعة التي أطاع فيها ربه؛ ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة، فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغَّص عليهم نعيمها، وهي الساعة التي عصى فيها ربه؛ ثم يفتح خزانة أخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيناله من الغبن والأسف على فواتها، حيث كان متمكناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف، ومن هذا قوله تعالى: ﴿**ذلك يوم التغابن**﴾[2].

يحاسب العبد حساباً دقيقاً يوم القيامة، فيُعين مصيره، تُحلل كل أعماله السابقة، وتشهد أعضاؤه وجوارحه والأنبياء والملائكة وحتى الأرض، حساب صعب جداً ومصيري، القلوب تخفق بسرعة والأبدان ترتعد، رعب تفر المرضعة بسببه عما أرضعت، وتسقط الحامل جنينها، الكل مرعوبون ينتظرون مصيرهم، هل ستكون نتيجة حسابهم رضا الله، والفخر بين أنبياء الله وأوليائه، والحياة الدائمة، والنعيم المقيم في الجنة بجوار عباد الله الصالحين، أم غضب الله والذلة بين الخلق والخلود في جهنم؟..

يستفاد من الأحاديث عدم كون حساب كل البشر واحداً، يكون حساب بعض الأشخاص شديداً ويستمر طويلاً، ويكون حساب البعض الآخر سهلاً يسيراً؛ يتم الحساب في مراحل مختلفة ومتعددة، حيث يُسأل الإنسان في كل موقف عن شيء، أصعب المواقف، موقف المظالم. يُسأل في هذا الموقف عن حقوق الناس، وعن ما ارتكب من ظلم وتعدي؛ هناك تجري تصفية الحساب، وهناك يدفع كل شخص

---

(١) بحار الأنوار ج٧ ص٢٥٨.
(٢) بحار الأنوار ج٧ ص٢٦٢.

ديونه؛ ولكن. . ومع الأسف، لا يكون معه مال ليفي ديونه، يكون مضطراً للدفع من حسناته ـ إذا كان لديه ـ فيدفع منها عوض حقوق الناس، وإذا لم يكن لديه يؤخذ من سيئات الدائنين ويوضع في صحيفة أعماله.

على كلٍ، هو يوم صعب وشديد، نسأل الله أن يغيثنا، طبعاً لا يكون طول الحساب وشدته واحداً نسبةً إلى كل العباد، بل يكون متلائماً مع سيئات وحسنات الأفراد، ومقدار الاختلاف بينهم، ويكون سهلاً وقصيراً جداً للمتقين ولعباد الله الخالصين.

قال رسول الله ﷺ لما سُئل عن طول ذلك اليوم: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[١].

فلنؤدِ الحساب قبل القيامة:

المؤمن بالمعاد والحساب والكتاب وجزاء الأعمال يعلم أن كل أعماله تُسجل وتُحفظ، وأنه يحاسب يوم القيامة حساباً دقيقاً، فينال بسببها جزاءً حسناً أو جزاءً سيئاً، فكيف يمكنه عدم الاهتمام بأعماله وأقواله وأخلاقه؟ أن لا يفكر في الذي فعله طوال اليوم والأسبوع والشهر والسنة والعمر؟ وما الزاد الذي جهزه لآخرته؟. من لوازم الإيمان أن نحاسب أنفسنا على أعمالها في الدنيا، أن نفكر بعمق: ماذا فعلنا، وما الذي سنفعله؟ تماماً كما يفعل التاجر، حيث يقوم بتسوية الحسابات لمصاريفه ومداخيله كل يوم وكل شهر وكل سنة. يدقق في الأمر حتى لا يخسر رأسماله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ووازنوها قبل أن توازنوا»[٢].

وقال أيضاً: «مَن حاسب نفسه ربح»[٣].

---

(١) مجمع الزوائد ج١ ص ٣٣٧.
(٢) غرر الحكم ص ١٩١ حكمة ٦.
(٣) غرر الحكم ص ٣٤٠ حكمة ٥٩٢.

وعن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: «ليس منا مَن لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن حاسب نفسه ربح، ومَن غفل عنه خسر، ومَن خاف أمن، ومَن اعتبر أبصر، ومَن أبصر فهم، ومَن فهم علم»[2].

وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «يا أبا ذر! حاسب نفسك قبل أن تحاسب، فإنه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهز للعرض الأكبر يوم لا يخفى على الله خافية (إلى أن قال): يا أبا ذر! لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حلال أم حرام؟ يا أبا ذر! مَن لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»[3].

وكان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «ابن آدم! إنك لا تزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وما كان المحاسبة من همك، وما كان الخوف لك شعاراً والحزن لك دثاراً، ابن آدم إنك ميت ومبعوث وموقوف بين يدي الله فأعدَّ جواباً»[4].

الإنسان في هذا العالم كالتاجر، رأس ماله هذا العمر المحدود، يعني ساعات وأيام وأسابيع وأشهر وسنوات، رصيد العمر الثمين، يُصرف تدريجياً ليقترب الإنسان شيئاً فشيئاً من الموت، يتحول شبابه إلى عجز، وتتحول قدرته إلى ضعف وسلامته إلى مرض. إذا قام بعمل صالح مقابل صرف عمره وجهز زاداً لآخرته لم يتضرر، لأنه يكون قد جهز مستقبلاً سعيداً لنفسه. أما لو أتلف رصيد عمره الثمين وشبابه وسلامته، ولم يدَّخِر عملاً صالحاً في مقابله لعالم الآخرة. بل لوث نفسه بالأخلاق السيئة وبارتكاب المعاصي، يكون قد أصيب بضررٍ كبيرٍ لا يمكن جبرانه.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

---

(١) الوسائل ج٦ ص ٣٧٧.
(٢) الوسائل ج١١ ص ٣٧٩.
(٣) الوسائل ج١١ ص ٣٧٩.
(٤) الوسائل ج١١ ص ٣٧٨.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1].

وقال علي عليه السلام: «إن العاقل مَن نظر في يومه لغده وسعى في فكاك نفسه، وعمل لما لا بد له ولا محيص عنه»[2].

وقال أيضاً: «مَن حاسب نفسه وقف على عيوبه وأحاط بذنوبه، فاستقال الذنوب وأصلح العيوب»[3].

كيف نحاسب أنفسنا؟

ليست السيطرة على النفس وإدارتها عملية سهلة، بل تحتاج إلى تدبير وسياسة وسعي وجد. وهل تستسلم النفس الأمّارة بهذه السهولة؟ هل تقبل أن تُحاكم وتُحاسب ببساطة؟ وهل تفي الحساب بسهولة؟

وقال علي عليه السلام: «مَن لم يسس نفسه أضاعها»[4].

وقال: «مَن اغتر بنفسه سلمته إلى المعاطب»[5].

وقال: «مَن كان له من نفسه يقظة كان عليه من الله حفظة»[6].

وقال: «املكوا أنفسكم بدوام جهادها»[7].

يجب أن تتم عملية المحاسبة في ثلاث مراحل حتى يعتاد الإنسان تدريجياً عليها فيستسلم لها.

١ ـ **المشارطة والعهد**: يبدأ حساب النفس عبر هذا الطريق، في البداية،

---

(١) سورة العصر، الآيات ١ ـ ٣.
(٢) غرر الحكم ص ١٣٢ حكمة ١٧٨.
(٣) غرر الحكم ص ٣٤٠ حكمة ٥٩٤.
(٤) غرر الحكم ص ٣٦٤ حكمة ١٤٢٤.
(٥) غرر الحكم ص ٣٣٢ حكمة ٣٠٠.
(٦) غرر الحكم ص ٣٥٨ حكمة ١٢٢١.
(٧) غرر الحكم ص ٩٠ حكمة ١٠١.

نخصص ساعةً في أول النهار للمشارطة بحيث يكون ذلك قبل القيام بأي عمل. مثلاً نتخذ خلوةً بعد صلاة الصبح فنجلس ونخاطب نفوسنا فيقول الواحد منا لها:

أنا الآن حيٌّ أرزق ولكن من غير المعلوم كم أبقى حياً، يمكن أن أحيا ساعة أخرى أو أكثر، ذهبت الساعات التي خلت من عمري هدراً، والساعات الآتية هي رأسمالي، ويمكنني أن أجهز في كل ساعة زاداً لآخرتي. لو حان أجلي فجاء عزرائيل لقبض روحي ألم أكن أتمنى أن يضاف يوم أو حتى أن تضاف ساعة إلى عمري؟ أيتها النفس المسكينة! افترضي أنك كذلك فاستجيبت رغبتك وعدت من جديد للدنيا.. فماذا الذي كنت ستفعلينه؟ أيتها النفس إرحميني وارحمي ذاتِك فلا تتلفي هذه الساعات، لا تقصري فتندمي يوم القيامة، ذلك اليوم حيث لا تنفع الحسرة؛ أيتها النفس لقد جعل الله لكل ساعة من عمرك خزينة يوضع فيها زادك من الأعمال الحسنة والسيئة، وسترين نتيجة ذلك يوم القيامة؛ أيتها النفس اسعي لملء الخزائن بالأعمال الصالحة؛ كوني يقظة فلا تملأيها بالذنوب والمعاصي.

وهكذا يمكننا مخاطبة أعضائنا وجوارحنا عضواً عضواً وجارحة جارحة، وأن نأخذ منها العهود والمواثيق بأن لا تعصي، كأن يقول أحدنا للسانه: الكذب، الغيبة، النميمة، الاستغابة، الفحش، السباب، توهين وتحقير الناس، الجدال، الشهادة الكاذبة، كل هذه الأمور من رذائل الأخلاق ومن المحرمات الإلهية التي تضيع الحياة الأخروية للإنسان، فلا أجيز لك ارتكابها، أيها اللسان إرحم نفسك وارحمني، وكف عن ارتكاب الذنوب، كِل أقوالك تحفظ في خزائن الأعمال وتسجل، فيكون عليَّ الإجابة عنها يوم القيامة.

وهكذا نأخذ العهد من اللسان أن لا يرتكب معصية. ثم نتذكر أعمال الخير التي يمكن للإنسان أن يؤديها فنلزمه أن يقوم بها طوال النهار مثلاً نقول له: يمكنك أن تملأ خزينة الأعمال بالنور والسرور من خلال الذكر والكلام الفلاني، ثم تأخذ حاصله يوم القيامة. لا تغفل عن هذا الأمر فتندم.

وهكذا نأخذ العهد والميثاق من كل عضو من أعضائنا وجوارحنا بأن لا يرتكب معصية وأن يؤدي العمل الصالح.

عن الصادق، عن أبيه عليه السلام قال: «الليل إذا أقبل نادى منادٍ بصوت يسمعه الخلائق إلا الثقلين: يابن آدم! إني خلق جديد، إني على ما فيَّ شهيد، فخذ مني، فإني لو طلعت الشمس لم أرجع إلى الدنيا، ولم تزود فيّ من حسنه ولم تستعتب فيّ من سيئة، وكذلك يقول النهار إذا أدبر الليل»[1].

يمكن للشيطان وللنفس الأمّارة أن يقولا للواحد منا: لا يمكنك الاستمرار في الحياة مع هذا البرنامج، وهل يمكن أن يحيا الإنسان مع هذه الحدود والقيود؟ وهل يمكن تحديد ساعة يومياً للحساب؟ يريد الشيطان وتريد النفس الأمّارة أن يخدعانا بمثل هذه الوسوسات ويمنعانا عن الاستمرار، يجب علينا أن نقف أمامهما ونقول: كلا يمكن القيام بهذا الأمر، وهو لا يتنافى مع الحياة العادية، والقيام به ضروري لتأمين تهذيب وتزكية النفس والوصول إلى السعادة الأخروية، ليس صعباً كما تتوقع إذا تعلقت به إرادتك وصممت عليه يصبح سهلاً، حتى ولو كان صعباً في البداية فسيصبح سهلاً في نهاية المطاف.

٢ ـ **المراقبة**: بعد الانتهاء من مرحلة المعاهدة، يأتي دور مرحلة العمل بالعهد والاستمرار عليه.

يجب علينا الاستمرار بمراقبة أنفسنا طوال اليوم حتى نكون قد وفينا بالعهد الذي قطعناه؛ يجب أن يبقى الإنسان يقظاً وفي كل الأحوال، أن يعتبر الله حاضراً وناظراً وأن يتذكر عهده، ولو غفل عن عهده لحظة واحدة يمكن للشيطان وللنفس الأمّارة أن ينفذا إلى إرادته فيضعفاها ويمنعاه من الالتزام بالعهد.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الحازم مَن شغل نفسه بجهاد نفسه فأصلحها وحبسها عن أهويتها ولذاتها فملكها، وإن للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً»[2].

وقال أيضاً: «مَن كان له من نفسه زاجر كان عليه من الله حافظ»[3].

---

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص ٣٨٠.

(٢) غرر الحكم ص ١٢٦ حكمة ١٠٠.

(٣) غرر الحكم ص ٣٥٨ حكمة ١٢١١.

وقال: «الثقة بالنفس من أوثق فرص الشيطان»[1].

الإنسان اليقظ المراقب يكون دائماً في حالة ذكر لله، ويرى نفسه في محضر الله المتعال؛ لا يؤدي أي عمل بدون تأمل وتفكر، إذا لاحت له معصية تذكر الله وحساب يوم القيامة فوراً فتركها، لا ينسى عهده وميثاقه، وهكذا يكون دائم السيطرة على نفسه، يملكها ويمنعها عن السيئات؛ وهذا البرنامج من أفضل وسائل تهذيب وتزكية النفس؛ أضف إلى ذلك، المراقب يكون طوال اليوم مستذكراً للواجبات والمستحبات ويؤدي الواجب عليه، ويقوم بالعمل الصالح، ويفعل الخيرات أيضاً، يسعى لآداء الصلاة في وقت الفضيلة فيؤديها بخشوع مع حضور القلب، تماماً وكأنها آخر صلاة له، يكون ذاكراً لله في كل حال وفي كل عمل؛ لا يتلف أوقات فراغه دون فائدة ويستفيد منها لأمر آخرته، يعرف قيمة الوقت، ويسعى للاستفادة من أي فرصة تلوح له لتهذيب وتكميل نفسه؛ يسعى لآداء المستحبات ما استطاع، وكم هو جيد أن يعود الإنسان نفسه على آداء بعض المستحبات المهمة؛ يمكن للإنسان أن يذكر الله في أي حال.

والأهم من ذلك كون الإنسان قادراً على جعل كل مشاغله اليومية في مسير العبادة والسير والارتقاء إلى الله، وذلك من خلال الإخلاص، يمكنه جعل الكسب والعمل والأكل والشرب والنوم والنكاح وسائر الأعمال المباحة من العبادات وذلك بواسطة الإخلاص والنية. إذا كان الكسب والعمل من أجل تهيئة الرزق الحلال وخدمة خلق الله كان عبادة؛ وهكذا إذا كان الأكل والشرب والاستراحة مقدمةً للبقاء على قيد الحياة للكينونة عبداً عُد عبادةً؛ لقد كان عباد الله المخلصون كذلك وهم الآن كذلك أيضاً.

٣ ـ حساب الأعمال: المرحلة الثالثة، حساب الأعمال اليومية. يجب أن يحدد الإنسان ساعة يومياً لحساب أعماله، وكم هو أفضل أن تكون هذه الساعة عند المساء عندما يكون الإنسان فارغاً من أي عمل، يجلس الإنسان في خلوة ويفكر في

---

(١) غرر الحكم ص ٢٤ حكمة ٤٣٦.

كل ما فعله طوال اليوم، يبدأ من ساعات الصباح الأولى لينتقل تدريجياً إلى الساعات التي تلتها، يحسبها ساعة بساعة:

إذا كان مشغولاً في تلك الساعة بعمل الخير والعبادة، شكر الله على توفيقه لذلك وصمم على الاستمرار.

أما إذا ارتكب فيها معصية، عاتب نفسه وأنّبها: أيتها النفس الشقية ماذا فعلتِ؟ لماذا سودتِ صحيفة أعمالكِ بالمعصية؟ كيف ستجيبين ربكِ يوم القيامة؟ ما الذي ستفعلينه بعذاب الآخرة الأليم؟ لقد أعطاكِ الله عمراً وسلامة وإمكانات كي تجهزي زاداً لآخرتكِ. ولكنكِ عوض ذلك ملأتِ صحيفة أعمالك بالذنوب، ألا تحتملين أن يأتي أجلكِ في هذه الساعة؟ ما الذي ستفعلينه عندها؟ يا قليلة الحياء، لماذا لا تخجلين من ربكِ؟ أيتها الكاذبة، المنافقة، تدعين الإيمان بالله والاعتقاد بالمعاد، لكن لماذا لستِ كذلك في العمل؟

ثم يتوب ويصمم على عدم ارتكاب الذنب مرة أخرى، بل وعلى جبران ما فاته.

قال علي عليه السلام: «مَن وبخ نفسه على العيوب ارتدعت عن كثرة الذنوب»[1].

إذا شعر أنها تقاوم وتثور ولا ترضى بترك المعاصي قاومها واشتد عليها؛ ويمكنه هنا اللجوء إلى بعض التأنيبات المناسبة. مثلاً لو تناول طعاماً حراماً أو ارتكب معصيةً أخرى، أنفق مالاً عوض ذلك في سبيل الله، أو صام يوماً أو عدة أيام، أو صام مؤقتاً عن تناول الأطعمة اللذيذة، أو الماء البارد واجتنب اللذائذ الأخرى التي ترغب النفس بها، أو يقفَ ساعة تحت الشمس الحارقة، على كلٍ يجب عليه أن لا يظهر ضعفاً وتخاذلاً أمام النفس الأمّارة، وإلا سيطرت عليه وجرته إلى وادي الهلاك وأسقطته فيه، أما لو قاومها واشتد عليها أيضاً استسلمت له.

إذا لم يكن قد ارتكب معصيةً في تلك الساعة ولا أدّى فعل خير، عاتب نفسه وأنّبها أيضاً: لماذا أهدرتِ هذه الساعة التي كانت من رأسمال عمرِكِ؟ كان بإمكانكِ القيام بعمل صالح فيها وتجهيز زادٍ لآخرتكِ. أيتها الشقية يا سيئة الحظ! لماذا

---

(١) غرر الحكم ص ٣٦٨ حكمة ١٥٥٦.

ضيعتِ هذه الفرصة الثمينة؟ ستندمين يوم لا ينفع الندم والحسرة.

وهكذا يحاسب نفسه ويؤاخذها كأي شريك كل يوم؛ طبعاً إذا سجل نتيجة الحساب في دفتر كان أفضل.

على كلٍ، يعتبر موضوع المراقبة والمحاسبة أمراً ضرورياً مفيداً لتزكية وتهذيب النفس، ويجب على كل طالبٍ للسعادة أن يهتم به؛ قد يظهر في البداية أمراً صعباً، ولكن إذا صمم عليه وقاوم أصبح سهلاً يسيراً بسرعة، وسيطر على النفس الأمّارة.

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بأكيس الكيسين وأحمق الحمقاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: أكيس الكيسين مَن حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت؛ وأحمق الحمقاء مَن اتّبع نفسه هواه وتمنّى على الله الأماني، فقال الرجل: يا رسول الله! وكيف يحاسب الرجل نفسه؟ قال: إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه، وقال: يا نفسي! إن هذا يوم مضى عليكِ لا يعود إليك أبداً والله سائلكِ عنه فيما أفنيتيه، فما الذي عملتِ فيه؟ أذكرت الله أم حمدته؟ أقضيتِ حق أخٍ مؤمن؟ أنفّست عنه كربته؟ أحفظته بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظته بعد الموت في مخلفيه؟ أكففت عن غيبة أخ بفضل جاهكِ؟ أأعنتِ مسلماً؟ ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه فإن ذكر أنه جرى منه خير حمد الله عز وجل وكبّره على توفيقه. وإن ذكر معصية أو تقصيراً استغفر الله وعزم على ترك معاودته ومحا ذلك عن نفسه بتجديد الصلاة على محمد وآله الطيبين وعرض بيعة أمير المؤمنين على نفسه وقبولها، وأعاد لله لعن شانئيه وأعدائه ودافعيه عن حقوقه. فإذا فعل ذلك قال الله: لست أناقشك في شيء من الذنوب مع موالاتك أوليائي ومعاداتك أعدائي»[1].

وعن الكاظم عليه السلام قال: «ليس منا مَن لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب إليه»[2].

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص٦٩.

(٢) الكافي ج١ ص٤٥٣.

وفي وصية أبي ذر قال النبي ﷺ: «على العاقل أن يكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيما صنع الله عز وجل إليه»[1].

وقال علي عليه السلام: «حاسبوا أنفسكم بأعمالها وطالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنائها لبقائها وتزودوا وتأهبوا قبل أن تبعثوا»[2].

وقال علي عليه السلام: «ما أحق الإنسان أن يكون له ساعة لا يشغله عنها شاغل يحاسب فيها نفسه فينظر فيما اكتسب بها وعليها في ليلها ونهارها»[3].

وقال أيضاً عليه السلام: «جاهد نفسك وحاسبها محاسبة الشريك شريكه، وطالبها بحقوق الله مطالبة الخصم خصمه، فإن أسعد الناس مَن انتدب لمحاسبة نفسه»[4].

وقال: «مَن حاسب نفسه وقف على عيوبه وأحاط بذنوبه، فاستقال الذنوب وأصلح العيوب»[5].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «فحاسبوا أنفسكم قبل أنْ تحاسبوا، فإن في القيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[6].

وفي النهاية لا بد من التذكير بهذه النقطة وهي أنه يجب أن لا يعتمد الإنسان على نفسه عند الحساب فيحسن الظن بها، لأن النفس خدّاعة وأمّارة بالسوء، تستعمل آلاف الحيل لإظهار الحسن قبيحاً وإظهار القبيح حسناً، لا تدع الإنسان يتعرف إلى وظيفته بالكامل فيعمل بها، تبرر ارتكاب المعاصي وترك العبادات، تجعله ينسى الذنوب وتظهرها صغيرةً. تظهر العبادات الصغيرة كبيرة، تُغرر

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٦٤.
(٢) غرر الحكم ص ١٩١ حكمة ٤.
(٣) غرر الحكم ص ٣٧٧ حكمة ١٦.
(٤) غرر الحكم ص ١٨٦ حكمة ١٩.
(٥) غرر الحكم ص ٣٤٠ حكمة ٥٩٤.
(٦) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٦٤.

بالإنسان، تنسيه الموت والقيامة، وتقوي الآمال والأماني البعيدة، تظهر المحاسبة صعبة وغير ممكنة وحتى غير ضرورية، لهذا يجب على الإنسان محاسبة نفسه مع سوء الظن، أن يكون دقيقاً خلال الحساب، يناقش ولا يستمع لتبريرات وتأويلات الشيطان والنفس الأمّارة.

قال علي عليه السلام: «وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه. فإنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون، فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها، فقصروا عنها ونهوا عنها ففرّطوا فيها، وحمَّلوا ثقل أوزارهم ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً، يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف، لرأيت أعلام هدى ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات»[1].

---

(١) نهج البلاغة، كلمة ٢٢٢.

التوبة أو تهذيب النفس وتزكيتها

الوقاية وترك الذنب أفضل طريق لتهذيب النفس. النفس التي لم تتلوث بالمعصية وبقيت على صفائها وطهارتها الذاتي أفضل حتماً من النفس العاصية التي يتوب صاحبها فيما بعد. يمكن للإنسان الذي لم يذق طعم المعصية بعد أن يمتنع عنها بسهولة أكبر من الإنسان الذي لوثته المعاصي ويريد تركها.

قال علي عليه السلام: «ترك الذنب أهون من طلب التوبة»(١).

أما لو تلوث الإنسان بالمعصية، فعليه أن لا ييأس من رحمة الله. لأن طريق السير والسلوك إلى الله وإصلاح النفس لا ينسد أبداً، بل أبقى الله باب التوبة مفتوحاً أمام العصاة، وطلب منهم العودة إليه ليغسلوا لوح النفس بماء التوبة، فينظفوا ما علق فيها من قذارات الذنوب.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

وقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

ضرورة التوبة:

لا أتخيل وجود شيء أكثر ضرورة للمذنب من التوبة؛ المؤمن بالله، والنبي، والمعاد، والثواب، والعقاب، والحساب، والكتاب، والجنة، والنار، لا يشك في

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٣ ص ٣٦٤.
(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٤.

ضرورة وفورية التوبة. نحن عارفون بأنفسنا ومطلعون على ذنوبنا، فلماذا نغفل عن التوبة؟ ألا نؤمن بالمعاد والحساب والكتاب وبعذاب النار؟ وهل نشكك بوعيد الله حين هدد بتخليد العصاة في النار؟ تظلم نفس الإنسان من خلال المعاصي وتتلوث، وحتى أنه يمكن لها أن تتحول من صورتها الإنسانية إلى صورة حيوانية، كيف نتوقع أن نجد طريقاً لمحضر الله بهكذا نفس فنكون مع الأولياء الإلهيين في الجنة؟ عندما نرتكب الذنب، نكون قد تخلينا عن الصراط المستقيم، وعن السير والارتقاء إلى الله، وسقطنا في وادي الحيوانية، ابتعدنا عن الله واقتربنا من الحيوان. ومع هذا أيحق لنا توقع أن نكون سعداء في الآخرة على الصراط المستقيم ونتمتع بنعيم الجنة! يا له من توقع غير صادق؟!

إذن، لا سبيل أمام العاصي الذي يبحث عن السعادة إلا التوبة والإنابة والعودة إلى الله؟ وهذا من ألطاف الله الكبرى، حيث ترك باب التوبة مفتوحاً أمام عباده. الإنسان المسموم الذي يرغب بالبقاء حياً لا يتردد بإخراج السموم من بدنه ولا يتأخر، لأنه يعلم إذا تأخر سوف يهلك، مع أن الذنب لنفس الإنسان أكثر فتكاً من أي سم فتّاك. إذا كان السم يُعرض حياة الإنسان لبضعة أيام في الدنيا للخطر، فالذنب يجر النفس إلى الهلاك الأبدي، ويقضي على سعادة الإنسان الأخروية. إذا كان السم يمنع الإنسان عن الاستمرار في الدنيا القصيرة المدة، فالذنب يبعده عن الله ويحرمه من فيض قربه ولقائه.

إذن التوبة والإنابة أكثر ضرورية وفورية من أي شيء، لأن السعادة والحياة المعنوية ترتبط بها.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

---

(١) سورة النور، الآية ٣١.

(٢) سورة التحريم، الآية ٨.

وقال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء ودواء الذنوب الاستغفار»[1].

وقال أبو جعفر عليه السلام: «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب تلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]»[3].

وقال عليه السلام: «تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتلال على الله هلكة، والإصرار على الذنب أمن لمكر الله، ولا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون»[4].

من الأفضل أن نعود لأنفسنا قليلاً، نتذكر ذنوبنا السابقة، ونفكر في العاقبة، نفكر في موقف الحساب، وميزان الأعمال، والخجل في محضر الله القهار، والهوان بين الملائكة والخلائق، وشدائد القيامة، وأخيراً عذاب النار والحرمان من لقاء الله؛ نفكر في كل هذا ونجسمه بأبصارنا لنعود إلى الله بثورة داخلية، نغسل ذنوبنا السابقة بماء الحياة، نزيل قذارات النفس، نصمم بجد أن نتجنب الذنوب ونتهيأ لسفر الآخرة والسير والصعود إلى الله.

ولكن هل يتركنا الشيطان بهذه السهولة؟ هل يسمح لنا أن نتوب ونعود؟ نفس الشيطان الذي دفعنا للمعصية سيمنعنا عن التوبة، يظهر لنا الذنوب صغيرة دون أهمية، يخرجها من أذهاننا حتى ننساها، يخرج من عقولنا التفكير بالموت والحساب والعقاب، ويشغلنا بالدنيا كي لا نفكر أبداً بالتوبة والإنابة، حتى تحين آجالنا فنغادر الدنيا بنفوس ملوثة.

الويل لنا ولغفلتنا وسوء حظنا!!..

---

(١) الوسائل ج١١ ص ٣٥٤.
(٢) سورة المطففين، الآية ١٤.
(٣) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٣٣٢.
(٤) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٣٦٥.

قبول التوبة:

إذا كانت التوبة صحيحة حقاً، وقعت مورد قبول الحق تعالى، وهذه إحدى ألطاف الله الرحيم؛ لم يخلقنا الله لجهنم وعذابها، بل للسعادة والجنة، أرسل الأنبياء كي يرشدوا الناس إلى طريق السعادة ويدعوا العاصين للتوبة والرجوع إلى الله، ترك باب التوبة مُشرعاً أمام الجميع، ويدعوهم دوماً نحوه؛ لا يزال الأنبياء والأولياء يدعون الناس نحو التوبة؛ يدعو الله الرحيم العاميين في آيات كثيرة نحوه، ووعد أن يقبل توبتهم، ولا يكذب الله في وعده. وقد دعى النبي الأكرم والأئمة الأطهار عليهم السلام الناس إلى التوبة أيضاً في مئات الأحاديث، وبينوا لهم الأمل الكبير بقبول التوبة.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2].

ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[3].

قال أبو جعفر عليه السلام: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء»[4].

يوجد الكثير من الآيات والأحاديث التي تتحدث عن هذا الأمر؛ لذا يجب علينا أن لا نتردد في وقوع التوبة مورداً للقبول، فالله الرحيم يحب التوابين.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٥.

(٢) سورة طه، الآية ٨٢.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٤) الكافي ج٢ ص ٤٣٥.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

وقال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[2].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[3].

ما هي التوبة؟:

التوبة عبارة عن الندم على الأعمال السابقة. يمكن تسمية الشخص تائباً عندما يكون نادماً فعلاً من ذنوبه السابقة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الندم والحسرة توبة».

صحيح أن الله يقبل التوبة ويغفر الذنوب، لكن مجرد قول: أستغفر الله أو إظهار الندم، أو حتى البكاء، لا يمكن عده دليلاً على التوبة الواقعية، بل يمكن اعتبار التوبة واقعية وحقيقية مع وجود ثلاث علامات:

الأول: أن يكون متنفراً بقلبه من ذنوبه السابقة، يشعر في نفسه بغصة وحرقة وندم.

الثاني: أن يصمم بجد على عدم ارتكاب الذنب في المستقبل.

الثالث: إذا كان قد ارتكب عملاً نتيجة للذنب يمكن تلافيه وجبرانه، يصمم على جبرانه، مثلاً إذا كان للناس حق عليه، كأن يكون غصب مالاً من أحد أو سرقه أو أتلفه، فيصمم على إعادته لصاحبه في أول فرصة ممكنة، وإذا كان عاجزاً عن دفعه

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٢) الكافي ج٢ ص ٤٣٥.

(٣) الكافي ج٢ ص ٤٣٦.

سعى لإرضاء صاحبه بما أمكن إذا كان قد استغاب طلب المسامحة ممن استغابه، إذا اعتدى على أحد وظلمه سعى لاسترضائه، إذا لم يكن قد دفع الحقوق الواجبة من أمواله دفعها، وإذا فاتته صلاة أو فاته صيام قضاهما.

هنا يمكن أن يقول في حقه: تاب فعلاً وندم من ذنوبه السابقة، وهنا تقع توبته مورد قبول، أما الذي يكرر كلمة: «أستغفر الله» دون أن يكون نادماً على المعصية في قلبه ودون أن يصمم على تركها في المستقبل، أو أنه لا يجبر الذنوب التي يمكن جبرانها، فليس تائباً، ولا يتوقع أن تكون توبته مقبولة، حتى ولو شارك في مجلس الدعاء وتأثرت عواطفه فبكى وصاح.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أن قائلاً قال بحضرته: أستغفر الله، فقال: «ثكلتك أمك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان، أولها: الندم على ما مضى؛ والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً؛ والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة؛ والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها؛ والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد؛ والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أسغفر الله»[1].

الشيطان ماكرٌ مخادع إلى درجة أنه يخدع الانسان في مسألة التوبة. يمكن للعاصي أن يشارك في مجلس الدعاء فيتأثر ويبكي ويصيح، فيقول له الشيطان: هنيئاً لك هذه الحالة، تبت وطهرت من ذنوبك، مع أنه لا يكون قد ندم قلبياً من الذنوب، ولا صمم على تركها في المستقبل، ولا صمم على إعادة حقوق الناس وحقوق الله. ليس هذا العمل توبة واقعية، ولن يكون باعثاً لتطهير وتهذيب النفس والسعادة الأخروية، لم يعد هذا الإنسان عن طريق الذنب ولم يرجع إلى الله.

---

(١) الوسائل ص ٣٦١.

الأمور التي يجب التوبة منها:

ما هي المعصية؟ وما هي الذنوب التي يجب أن نتوب منها؟ الجواب هو: كل ما يمنع عن السير والسلوك والقرب إلى الله، والذي يجعل الإنسان متعلقاً بالدنيا، ويمنع الإنسان عن التوجه نحو الله يُعد معصية يجب تجنبه وتطهير النفس منه. يمكن تقسيم الذنوب إلى قسمين: الذنوب الأخلاقية، والذنوب العملية.

أ ـ الذنوب الأخلاقية: الأخلاق السيئة والصفات القبيحة تلوث النفس وتمنعها من اجتياز صراط الإنسانية المستقيم ونيل مقام القرب ولقاء الله. إذا تجذرت الصفات القبيحة في نفس الإنسان تصبح من الملكات، تغير باطن الذات، وتؤثر في كيفية كينونة الإنسان أيضاً. يجب علينا أن لا نستهين بالذنوب الأخلاقية ونستصغرها بحجة كونها أخلاقية، وأن نغفل عن التوبة وتصفية النفس منها، بل إن تطهير النفس منها أمر ضروري وحياتي.

الأخلاق القبيحة هي: الرياء، النفاق، الغضب، التكبر، العجب، العجلة، الظلم، المكر والخداع، الغيبة، البهتان، الوشاية، الإعابة، الثرثرة، خلف الوعد، الكذب، حب الدنيا، الحرص، البخل، عقوق الوالدين، قطع الرحم، كفران النعمة وعدم الشكر، التبذير والإسراف، الحسد، الفحش، السباب، وغير ذلك من الصفات السيئة.

وردت مئات الآيات والروايات التي تذم هذه الصفات وتبين طرق الوقاية منها، وعلاجها، وآثارها، وعلاماتها، وجزاءها الدنيوي والأخروي، وقد تعرضت كتب الأخلاق لبيانها وشرحها مفصلاً، ولا يمكننا أن نبحثها هنا، ومن أحب يمكنه الرجوع إلى كتب الأخلاق والحديث.

ب ـ الذنوب العملية: وهي عبارة عن: السرقة، قتل النفس، الزنى، اللواط، دفع الربا وأخذه، غصب أموال الناس، الغش في المعاملة، الفرار من الزحف الواجب، خيانة الأمانة، شرب الخمر وسائر المسكرات، أكل لحم الميتة والخنزير وسائر الطعام الحرام، اللعب بالقمار، شهادة الكذب، اليمين الكاذبة، رمي الآخرين بالزنى، ترك الصلوات الواجبة، ترك الصيام الواجب، ترك الحج الواجب، ترك الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، أكل الطعام النجس، وغير ذلك من المحرمات، وقد وردت هذه الذنوب بالتفصيل في كتب الحديث والفقه، ولا يمكننا التفصيل فيها هنا، والراغب يمكنه الرجوع إلى كتب الحديث.

هذه ذنوب معروفة يجب أن يتجنبها الإنسان، وأن يتوب منها إذا ما ابتلي بها ويعود إلى الله.

ولكن لدينا ذنوب أخرى غير معروفة، ولم تذكر كذنوب، ولكنها تعتبر ذنوباً للعباد الخالصين ولأولياء الله مثل: ترك المستحبات وفعل المكروهات، وحتى تصور الذنب، التوجه إلى غير الله، الخواطر النفسية والوساوس الشيطانية التي تجعل الإنسان يغفل عن ذكر الله؛ كل هذه الأمور تعتبر معاصٍ لدى أولياء الله ويتوبون منها. وأكثر من ذلك، القصور في معرفة الله بالكامل وصفاته وأفعاله، وهذا من لوازم كل إنسان ممكن الوجود، ويُعد نقصاً ومعصية بالنسبة للإنسان المميز والإلهي الخاص، يرتعد من هذا الإحساس ويعود إلى الله باكياً متضرعاً ويتوب وينوب؛ ويمكن أن يكون استغفار وتوبة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام من هذا القبيل.

قال الصادق عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة من غير ذنب»[1].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[2].

(١) الكافي ج٢ ص ٤٥٠.

(٢) المحجة البيضاء ج٧ ص ١٧.



القسم الثاني

التخلية أو تربية وتكميل النفس



التخلية أو تربية وتكميل النفس

بعد تهذيب وتزكية النفس، يأتي دور تربيتها وتكميلها، وهذا ما يُسمى في المصطلح «تحلية».

ثبت في العلوم العقلية أن النفس دائماً في حال حركة وصيرورة، فعليتها مختلطة مع قوتها واستعدادها، حيث أنه قد تبدل استعدادها تدريجياً إلى فعلية وتربي جوهر ذاتها. إذا تحركت في الصراط المستقيم أصبحت كاملة تكتمل بالتدريج حتى تنال الكمال النهائي، وأما إذا انحرفت ووضعت قدمها في طريق الضلال، ابتعدت تدريجياً عن الكمال النهائي للإنسان وسقطت في أودية الحيوانية المخيفة.

القرب من الله:

يجب أن نعلم أن حركة الإنسان حركة واقعية لا اعتبارية، وهذه الحركة مرتبطة بروحه المجردة لا بجسده وبدنه، وأيضاً هذه الحركة ذاتية لا عرضية، يتحرك جوهر ذات الإنسان في هذه الحركة ليتغير؛ إذن مسير حركة الإنسان طريق واقعي لا اعتباري ومجازي، أما مسير الحركة فليس منفصلاً عن الذات المتحركة، بل متحرك، يتحرك في باطن الذات ويأخذ المسير معه.

الآن يُطرح هذا السؤال حيث أن للحركة غاية، فما هي غاية الحركة الذاتية للإنسان؟ نحو أي غاية يتحرك البشر في هذا العالم، وكيف سيكون مصيرهم النهائي؟

يستفاد من الآيات والأحاديث أن الغاية التي قُدرت لحركة البشر القرب من الله، لكن كل الناس لا يتحركون في الصراط المستقيم ولا ينالون مقام القرب الإلهي.

يقسم القرآن البشر إلى ثلاث فئات: أصحاب الميمنة، أصحاب المشأمة، والسابقون، حيث يصف الفئة الثالثة بالمقرّبين.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[1].

أصحاب الميمنة يعني السعداء، أصحاب المشأمة يعني أهل الشقاء، والسابقون يعني الذين سبقوا الآخرين في الصراط المستقيم ونالوا مقام القرب الإلهي؛ يستفاد من الآية وجوب كون القرب من الله غاية حركة البشر.

ويقول في آية أخرى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾[2].

ويقول في آية ثالثة: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[3].

يستفاد من هذه الآيات أن مقام القرب الإلهي كمال نهائي وغاية سير حركة البشر، يصل البشر الخالصون الذين يسيرون في صراط الإنسانية المستقيم إلى هذا المقام؛ إذن المقربون فئة ممتازة من أهل السعادة.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[4].

يستفاد من الآيات والروايات أن عباد الله الممتازين المختارين الذين سبقوا الآخرين في الإيمان واليقين والعمل الصالح يكونون يوم القيامة في مكان عالٍ يسمى

---

(١) سورة الواقعة، الآيات ٧ ـ ١٢.
(٢) سورة الواقعة، الآيات ٨٨ ـ ٩٤.
(٣) سورة المطففين، الآيات ١٨ ـ ٢١.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٤٥.

مقام القرب، ويسمى في بعض الآيات ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]. وهو المقام الذي يجلس فيه الشهداء.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

إذن الكمال الإنساني النهائي، ومحل منزل السالكين، القرب من الله.

معنى القرب من الله:

القرب المكاني: موجودان متقاربان من حيث المكان، ويُقال: قريبان من بعض.

القرب الزماني: عندما يكون شيئان متقاربين من حيث الزمان: فيقال: قريبان من بعض؛ وطبعاً من الواضح عدم قرب العباد من الله بهذين المعنيين، لأن الله ليس في ظرف زماني أو مكاني حتى ينسب إليه شيء نسبة زمانية أو مكانية، بل الله هو خالق الزمان والمكان ومحيط بهما.

القرب المجازي: أحياناً يُقال: فلان قريب من فلان، ويكون المقصود أنه محب له يحترمه ويقدره ويلبي رغباته، هذا القرب مجازي واعتباري ومن باب التشريف. هل يمكن أن يكون قرب العبد من خالقه من هذا القسم أم لا؟ صحيح أن الله يحب عباده المخلصين ويلبي رغباتهم، ويستجيب دعاءهم، ولكن لا يمكن اعتبار قرب العبد من خالقه من هذا القسم، لأنه كما سبق وذكرنا، ثبت في العلوم العقلية أن الحركة الذاتية للإنسان ومسيره وصراطه المستقيم أمور واقعية وحقيقية، لا اعتبارية من باب التشريف. الرجوع إلى الله الوارد بهذه الكثرة في الآيات والأحاديث حقيقي وواقعي، ولا يمكن أن يكون اعتبارياً؛ مثلاً:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[3].

---

(١) سورة القمر، الآية ٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٣) سورة الفجر، الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[2].

على كلٍ، الرجوع إلى الله والصراط المستقيم وسبيل الله واستكمال النفس أمور واقعية لا اعتبارية. حركة الإنسان نحو الله حركة حرة اختيارية عن علم ومعرفة بحيث تتضح نتيجتها بعد الموت؛ تبدأ هذه الحركة مع بداية الوجود وتستمر حتى الموت. إذن فالقرب من الله أمر واقعي أيضاً، يصبح عباد الله الخاصون قريبين من الله واقعاً، ويصبح العباد غير الصالحين بعيدين عن الله فعلاً، إذن يجب علينا أن نعرف ما هو معنى القرب من الله؟

القرب من الله ليس قرباً كالمتعارف، بل هو نوع آخر يمكن تسميته قرباً كمالياً ودرجة وجودية، ولكي يتضح المطلب نشير لمقدمة...

ثبت في كتب الحكمة والفلسفة الإسلامية أن الوجود حقيقة مشككة لها مراتب ودرجات مختلفة؛ الوجود كالنور له مراتب شديدة وضعيفة؛ أقل مراتب النور، مثلاً واط واحد من النور حتى نصل إلى أعلى مراتب النور، حيث لا شيء غير النور. وبين المرتبة العالية للنور والمرتبة الدانية يوجد مراتب من النور كلها نور، وإنما تختلف بشدتها وضعفها. الوجود أيضاً كذلك لديه مراتب مختلفة، واختلافها ناشىء عن شدتها وضعفها. أقل مراتب الوجود وجود الطبيعة والمادة، وأعلى مراتبه وجود الذات الإلهية المقدسة لله المتعال، حيث هي لا متناهية من حيث الكمال الوجودي؛ وبين هاتين المرتبتين يوجد درجات من الوجود، اختلافها ناشىء عن شدتها وضعفها. إذن من هنا يتضح أنه كلما كان الوجود أقوى ودرجته أرفع وأكمل، كلما كان صاحبه أقرب إلى الذات الإلهية المقدسة اللامتناهية، وبالعكس كلما كان أضعف كلما ابتعد عن ذات واجب الوجود.

---

(١) سورة الجاثية، الآية ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

الآن ومع الالتفات إلى المقدمة المذكورة يمكنكم تصور معنى قرب العبد من الله وبعده عنه. الإنسان من حيث الروح حقيقة مجردة متعلقة من جهة الفعل بالمادة، وبهذه الجهة يمكنها التحرك لتصبح كاملة وأكمل حتى تصل إلى مرتبة وجودها النهائية. ليس الإنسان منذ بدء حركته وحتى وصوله إلى المقصد أكثر من شخص وحقيقة، لكن كلما اكتسب كمالاً أكثر وسار وارتقى في مراتب الوجود، كلما اقترب من منبع الوجود بنفس المقدار، يعني أصبح أقرب من الذات الإلهية المقدسة غير المتناهية للرب المتعال. يستطيع الإنسان أن يجعل وجوده كاملاً وأكمل من خلال الإيمان والعمل الصالح حتى ينال مقام القرب الإلهي، فيتلقى الفيوضات أكثر من منبع الوجود ومنبع الكمال والجمال، ليصبح بذاته منشأ آثارٍ أكثر.

يظهر لنا من خلال هذا التوضيح أن حركة وارتقاء الإنسان مستمر نحو مقصد لا متناهي، وكل فرد ينال مرتبة من القرب بواسطة سعيه وجده. وبعبارة ثانية مقام القرب ليس نقطة واحدة، بل هو حقيقة لها مراتب ودرجات. القرب أمر نسبي وإضافي، كلما سعى الإنسان أكثر كلما ارتفع إلى مقام أعلى واستفاد من فيوضات أكثر.

الإيمان أساس الكمالات النفسية

الإيمان والمعرفة هما أساس الكمالات النفسية والحركة نحو مقام القرب الإلهي. يجب على السالك أن يعرف مقصده وغايته قبل الحركة. عليه أن يعرف إلى أين هو ذاهب وما هي الطريق التي يجب أن يتحرك من خلالها، وإلا فلن يصل إلى مقصده. الإيمان بالله يعطي حركة وجهد الإنسان وجهة ويحدد له المقصد. لا يمكن لغير المؤمنين اجتياز صراط التكامل المستقيم.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾[2].

لا يؤمن الكافر بوجود الله والمعاد وهو منقطع عن عالم الكمال، متوجه بكليته نحو المادة والماديات ونحو تأمين رغباته الحيوانية؛ لهذا لن يكون له من مقصد وهدف إلا عالم المادة، فهو ليس في طريق الكمال ليمكنه الوصول إلى القرب من الله، جهة حركته الدنيا، ويبتعد عن صراط الإنسانية المستقيم تدريجياً؛ ولو قام الكافر بعمل خير فلن يكون وسيلة للاستكمال النفساني، لأنه لم يؤدهِ لله وللقرب منه حتى يكون مفيداً له، بل أداه بقصد الدنيا، وسيرى نتيجته في هذه الدنيا أيضاً، ولن يكون له بعد ذلك أي أثر في الآخرة.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[3].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٧٤.
(٢) سورة سبأ، الآية ٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية ١٨.

على كلٍ، الإيمان أساس الأعمال وهو الذي يعطيها قيمة. إذا اختلطت روح المؤمن بالإيمان وكلمة التوحيد صار نورانياً وارتفع إلى الله، وأعطاه العمل الصالح مدداً من الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(1).

يرفع العمل الصالح روح الإنسان عالياً ويوصلها إلى مقام القرب، ويهيّىء لها حياةً طيبة جميلة، لكن هذا مشروط بأن تكون الروح مؤمنة؛ الروح غير المؤمنة مظلمة سوداء ولا تمتلك لياقة القرب الإلهي والحياة الطيبة.

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(2).

إذن يجب على السالك أن يسعى أولاً لتقوية إيمانه، حيث أنه كلما كان إيمانه أرفع وأقوى كلما صعد إلى درجات أرفع من الكمال.

يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(3).

---

(1) سورة فاطر، الآية ١٠.
(2) سورة النحل، الآية ٩٧.
(3) سورة المجادلة، الآية ١١.

أسباب التكامل والقرب

يمكن الاستفادة من مجموعة وسائل لتكميل النفس والتقرب من الله، وسنشير إلى أهمها: أولاً: ذكر الله. ثانياً: تنمية فضائل ومكارم الله، ثالثاً: العمل الصالح، رابعاً: الجهاد والشهادة، خامساً: الإحسان وخدمة الخلق، سادساً: الدعاء، سابعاً: الصيام. وسنقوم ببيان الوسائل المذكورة بالتفصيل تدريجياً وفي طول الكتاب.

الوسيلة الأولى: ذكر الله

يمكن عد الذكر نقطة بداية الحركة الباطنية والسير والسلوك نحو القرب من رب العالمين. يرتفع السالك بواسطة الذكر فوق أفق المادة، ليرتفع تدريجياً نحو عالم الصفاء والنورانية، ويضع قدمه على طريق الكمال، ليصبح أكثر كمالاً حتى ينال مقام القرب من الحق تعالى. ذكر الله بمنزلة روح العبادات، وهو أكبر هدفٍ لتشريعها، لأن قيمة أي عبادة هي بمقدار توجه العبد؛ وقد وردت الكثير من الوصايا والنصائح حول ذكر الله في الآيات والأحاديث:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1].

ويقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[3].

ويقول: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[4].

ويقول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[5].

ويقول: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[6].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤١.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩١.
(٣) سورة الأعلى، الآيتان ١٤ـ١٥.
(٤) سورة الإنسان، الآية ٢٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية ٤١.
(٦) سورة النساء، الآية ١٠٣.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَن أكثر ذكر الله عز وجل أظلّه الله في جنته»[1].

وعنه عليه السلام في رسالته لأصحابه قال: «وأكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله أمر بكثرة الذكر، والله ذاكر لمَن ذكره من المؤمنين، واعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير»[2].

وقال عليه السلام: «قال الله لموسى: أكثر ذكري بالليل والنهار، وكن عند ذكري خاشعاً، وعند بلائي صابراً واطمئن عند ذكري واعبدني ولا تشرك بي شيئاً، إليّ المصير، يا موسى! اجعلني ذخرك، وضع عندي كنزك من الباقيات الصالحات»[3].

وقال عليه السلام: «ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه، إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه؛ فرض الله عز وجل الفرائض، فمَن أدّاهن فهو حدهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمَن حج فهو حده، ـ إلا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ـ فقال: لم يجعل الله له حداً ينتهي إليه، قال: وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لاصقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بذكر الله حتى تطلع الشمس». (إلى أن قال) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا؛ بلى. فقال: ذكر الله كثيراً، ثم قال: جاء رجل إلى النبي فقال: مَن خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة»[4].

---

(١) وسائل الشيعة ج٤ ص ١١٨٢.
(٢) وسائل الشيعة ج٤ ص ١١٨٣.
(٣) وسائل الشيعة ج٤ ص ١١٨٢.
(٤) وسائل الشيعة ج٤ ص ١١٨١.

وفي وصية أبي ذر قال رسول الله ﷺ: «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض»[1].

وعن الحسن بن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا إلى رياض الجنة، فقالوا: ما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[2].

وعن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل في الفارين، له الجنة»[3].

إن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال: «ارتعوا في رياض الجنة. قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومَن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس مَن ذكرني»[4].

لا بد أنكم عرفتم قيمة الذكر وفضيلته من خلال الآيات والأحاديث التي ذكرت من باب المثال. الآن يجب علينا أن نعرف ما هو المقصود من الذكر؟

المقصود من الذكر:

اتضح لنا فيما سبق أن ذكر الله عبادة كبرى، وأنه إحدى أفضل طرق بناء وتكميل النفس والسير والصعود إلى الله. الآن يجب أن نعلم ما هو المقصود من الذكر الوارد في الآيات والروايات؟ هل المراد به الأذكار اللفظية مثل: «سبحان الله، الحمد لله، ولا إله إلاّ الله»، أو أن المقصود شيء آخر؟ وهل يمكن أن يكون لهذه الألفاظ ذلك الأثر المهم بدون التوجه الباطني؟..

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٤.
(٢) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٦.
(٣) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٦٣.
(٤) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٦٣.

ورد في الحديث: «فيما ناجى به موسى عليه السلام ربه: إلهي ما جزاء مَن ذكرك بلسانه وقلبه؟ قال: يا موسى أظلّه يوم القيامة بظلّ عرشي وأجعله في كنفي»(١).

وكما لاحظتم فقد استعمل الذكر في هذا الحديث من خلال الذكر اللساني ومن خلال الذكر القلبي أيضاً؛ ولدينا أحاديث كثيرة ورد فيها استعمال لفظ الذكر للدلالة على المعنيين، لكن غالباً ما يستعمل للدلالة على التوجه القلبي والحضور الباطني وهذا هو الذكر الكامل والحقيقي. ذكر الله عبارة عن حالة لرؤية الله روحانياً والتوجه الباطني إلى رب العالمين، حين يجد العبد ربه حاضراً وناظراً ويجد نفسه في محضر الخالق. الذي يذكر الله كذلك يكون قد عمل بأوامر الله، يؤدي الواجبات ويترك المحرمات؛ لهذا فليس ذكر الله عملاً سهلاً.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أشد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك حتى لا ترضى لها منهم بشيء إلا رضيت لهم منها بمثله، ومواساتك الأخ في المال، وذكر الله على كل حال، ليس سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله به أخذت به، وإذا ورد عليك شيء نهى عنه تركته»(٢).

وفيما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله علياً قال: «يا علي! ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عز وجل عنده وترَكه»(٣).

وقال علي عليه السلام: «لا تذكر الله سبحانه ساهياً، ولا تنسه لاهياً، واذكره ذكراً كاملاً يُوافق فيه قلبك لسانك، ويطابق إضمارك إعلانك، ولن تذكره حقيقة الذكر حتى تنسى نفسك في ذكرك وتفقدها في أمرك»(٤).

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٦.
(٢) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٥.
(٣) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥١.
(٤) غرر الحكم ص٤١٤ حكمة ٥٨.

وقال الصادق عليه السلام: «مَن كان ذاكراً على الحقيقة فهو مطيع، ومَن كان غافلاً عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة الضلالة، وأصلهما من الذكر والغفلة، فاجعل قلبك قبلة لسانك، لا تحركه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضا الإيمان، فإن الله عالم بسرك وجهرك، وكن كالنازع روحه، أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده، ولا تشغلها بدون ما كلفك، واغسل قلبك بماء الحزن، واجعل ذكر الله من أجل ذكره لك، فإنه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجل وأشهى وأتم من ذكرك له وأسبق، ومعرفتك بذكره لك يورثك الخضوع والاستحياء والانكسار، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق، ويصغر عند ذلك طاعاتك وإن كثرت في جنب مننه. فتخلص بوجهه. ورؤيتك ذكرك له تورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه، واستكثار الطاعة، ونسيان فضله وكرمه، وما تزداد بذلك من الله إلا بعداً، ولا تستجلب به على مضي الأيام إلا وحشة، والذكر ذكران: ذكر خالص يوافقه القلب وذكر صارف ينفي ذكر غيره كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فرسول الله لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله من قبل ذكره له، فمن دونه أولى، فمَن أراد أن يذكر الله تعالى فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره لا يقدر العبد على ذكره»[1].

وكما لاحظتم فقد ذكر الحضور القلبي والتوجه الباطني في هذه الأحاديث على أساس كونه مصداقاً، وليس المقصود به الخطرات القلبية والتصور الذهني الذي لا يكون له أية نتيجة، بل الحضور الباطني المؤثر، بحيث يكون من علاماته الالتزام بأوامر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه. لكن هذا الكلام لا يعني نفي كون الأذكار اللفظية من قبيل: «لا إله إلا الله»، «سبحان الله» و«الحمد لله» من المصاديق الحقيقية للذكر، بل إن نفس هذه الكلمات هي مرتبة من مراتب ذكر الله، إضافة إلى كون هذه الأذكار اللفظية تنبع من القلب، فالذي يردد هذه الأذكار بلسانه لا بد أن يكون لديه

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٨.

توجه قلبي ولو ضعيف بأنه يرددها، وبحسب نظر الإسلام فإن تلاوة هذه الأذكار والكلمات أمر مطلوب وفيه ثواب، ولكن بشرط أن يقترن بقصد القربة، كما أن الصلاة الظاهرية تتكون من هذه الألفاظ والحركات، حيث أننا مأمورون بأدائها كما هي، وإن كانت روح الصلاة في حضور القلب والتوجه الباطني.

مراتب الذكر:

الذكر مقام واسع له مراتب ودرجات كثيرة، حيث تبدأ أدنى مراتبه من الذكر اللفظي واللساني، وتستمر لتصل إلى مرتبة الانقطاع الكامل والشهود والفناء.

المرتبة الأولى: يؤدي الذاكر أوراداً خاصة بقصد القربة، لأنه يكون متوجهاً إلى الله بقلبه دون أن يلتفت إلى معانيها.

المرتبة الثانية: يكرر الأذكار بقصد القربة ويتذكر معانيها في ذهنه.

المرتبة الثالث: يتبع اللسان القلب ويكرر الذكر، وذلك لأن القلب متوجه إلى الله، وهو يدرك المعاني والمفاهيم لأذكار الإيمان في باطن ذاته، فيأمر اللسان بالقيام بالذكر.

المرتبة الرابعة: يكون السالك متوجهاً بقلبه توجهاً كاملاً نحو الله ولديه حضور باطني، فيراه حاضراً وناظراً ويشاهد نفسه في محضره. تختلف أحوال السالكين في هذا المقام، فمنهم الكامل ومنهم الأكمل. يكون الواحد منهم مأنوساً ومتعلقاً بالله بنفس المقدار الذي يكون قد قِطع علاقته بغيره، حتى يصل إلى حد الانقطاع الكامل واللقاء والفناء. يكون السالك في هذا المقام الذي هو أرفع المقامات قد مزق الحجب الدنيوية وقطع العلاقات المجازية غير الحقيقية واتصل بمنبع الخيرات والكمالات. ترك كل شيء وحتى نفسه ورجع إلى الله. انقطع عن غير الله وحصر محبته لله. لا يرى كمالاً لغير الله حتى يتعلق قلبه به، لا يجد مؤنساً غيره حتى يستأنس به. لا يرى حقيقةً غير الله. عباد الله الخاصون هؤلاء وجدوا طريقهم إلى معدن العظمة والجلال والكمال والخير والنور، وهم يشاهدون أنوار الجمال الإلهي بعين باطنهم. لا يلتفتون إلى ظواهر هذا الكون المجازية ولو للحظة واحدة ولا يتعلقون بها، لأنهم وصلوا إلى منبع الكمالات. لا قيمة للكمالات المجازية التي ليست أكثر

من عادية بنظرهم. يحترقون من محبة وعشق اللقاء بخالقهم. لا يلتذون بالأنس بالدارين. إذا رأوا ظاهرةً من ظواهر الكون لم تكن لديهم إلا قطرة من بحر نور جمال الأحدية ودليل وعلامة على الوجود الكامل لله، كما قال مولى الموحدين وأمير المؤمنين عليه السلام:

«ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه».

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره. قيل: وكيف رأيته؟ قال: ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[1].

وقال الحسين بن علي عليه السلام: «كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك؟ متى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك»[3].

وقال علي بن الحسين عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يلَيق بجلالك، وعجزت العقول عن إدارك كنه جمالك، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك، إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس

---

(١) الحقائق للفيض الكاشاني، ص ١٧٩.
(٢) مفاتيح الجنان ـ دعاء عرفة.
(٣) مفاتيح الجنان ـ دعاء عرفة.

الملاطفة يكرعون، وشرايع المصافات يردون، قد كشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم، وعذب في معين المعاملة شربهم، وطال في مجلس الأنس سرهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم، وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقر بإدراك السؤال ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم. إلهي ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك، فأعذنا من طردك وإبعادك، واجعلنا من أخص عارفيك وأصلح عبادك، وأصدق طائعيك وأخلص عبادك، يا عظيم، يا جليل، يا كريم، يا منيل! برحمتك ومنك يا أرحم الراحمين»[1].

المقام الرابع بالإجمال مقام عالٍ وشامخ، وهو بنفسه مراتب ودرجات يستمر حتى المقام المقدس لذات واجب الوجود وكماله وجماله اللامتناهي، يعني أنه يستمر إلى ما لا نهاية، ويُسمّى في ألسنة أهل الله: مقام الذكر، مقام الأنس، مقام الانقطاع، مقام المحبة، مقام الشوق، مقام الرضا، مقام الخوف، مقام الشهود، مقام عين اليقين، مقام حق اليقين، وأخيراً يُسمى مقام الفناء، والبقاء بالله. أخذت هذه التعابير في الأغلب من الآيات والأحاديث ولكل واحد منها وجه مثلاً:

عندما يتوجه السالك إلى عظمة وجمال وكمال ذات واجب الوجود اللامتناهي، ويأخذ في الاعتبار محبته وإشراقاته وإفاضاته، ويلتفت إلى قصور ذاته وعجزه وبعد المسافة للوصول إلى ذلك المقام العالي، تنشأ فيه حالة شوق وحرقة وتضحية، هذا المقام يُسمّى مقام الشوق.

عندما ينال مقامات ودرجات وكمالات يأنس بتلك المكتشفات ويُسر ويفرح، هذا المقام يُسمّى مقام الأنس.

---

(١) مناجاة العارفين ـ مفاتيح الجنان.

عندما يلتفت إلى عظمة وجمال وكمال الله اللامتناهي، ويقف على ضعفه وعجزه وقصوره عن الوصول إلى ذلك المقام يخنق قلبه بشدة وألم، يسيطر عليه الخوف والرعب، فيلجأ للبكاء والتضرع والتوسل، وهذا مقام يُطلق عليه مقام الخوف، وهكذا فيما يتعلق بسائر المقامات، هنيئاً لأهلها.

من الأفضل لي أنا الأسير لهوى النفس، المسجون في ظلمات الماديات، والمحروم من نيل المقامات المعنوية، أن لا أضع قدمي في هذا البحر الهادر الذي لا حد له، فلأدع شرح هذه المقامات العالية والشامخة لأهلها، لأنه لا يمكن لمَن لم يذق طعم المحبة والأنس واللقاء أن يشرحها: «أحب الصالحين ولست منهم، اللهم ارزقنا حلاوة ذكرك واجعلنا من أهله».

... الأفضل لنا أن سمع الكلام من أهله، مما كتبه الفيلسوف العظيم والعارف الرباني صدر الدين الشيرازي هذا المقطع: إذا شملت أشعة أنوار رحمة الله العبد، استيقظ من سبات الجهل والطبيعة، وأدرك وجود عالم آخر في ما وراء عالم المحسوسات، وأنه توجد لذّات أخرى أرفع من اللذات الحيوانية، عندها ينصرف عن الاشتغال بالأمور الباطلة التي لا قيمة لها، ويعود إلى الله تائباً من ارتكاب الذنوب، فيبدأ بالتدبر في الآيات الإلهية وبالاستماع إلى المواعظ الربانية، والتأمل في أحاديث النبي الأكرم، والعمل بمقتضى الشريعة، وكي ينال الكمالات الأخروية يرفع يديه عن فضولات الدنيا من قبيل الجاه والمال وغير ذلك؛ وإذا شملته العنايات الإلهية أكثر صمم بجد على الإنقطاع عن غير الله، وسار نحوه، فترك موطن النفس ومقام الهوى وارتقى نحو الله. عندها تتجلى له أشعة أنوار الملكوت، ويفتح له باب من عالم الغيب، وشيئاً فشيئاً تظهر له صفحات من عالم القدس، فيشاهد أموراً غيبية في صورة مثال؛ عندما يشعر بلذة مشاهدة الأمور الغيبية تنشأ فيه حالة حب للخلوة والانزواء ودوام الذكر، يفرغ قلبه من المشاغل الحسية ويتوجه نحو الله بكامل وجوده؛ عندها تفاض عليه العلوم اللدنية بالتدريج، وتظهر له الأنوار المعنوية شيئاً فشيئاً، حتى تتمكن وتتحقق بصورة كاملة؛ ويزول التلون والتغير عنه وتنزل عليه السكينة والهدوء؛ عندها يدخل إلى عالم الجبروت ويشاهد العقول المفارقة؛ يتحقق

بأنوارها ويصبح نورانياً؛ ثم يظهر له سلطان الأحدية ونور العظمة والكبرياء، ويصبح وجوده وإنيته «هباءً منثوراً»، ويتلاشى ويسقط أمام عظمة وجلال سلطان الأحدية؛ ويسمى هذا مقام التوحيد، فيُستهلك الأغيار في نظر السالك ويستمع لنداء: «لمَن الملك اليوم، لله الواحد القهّار»[1]

ومما كتبه العارف الرباني المرحوم الفيض الكاشاني: طريق تحصيل محبة الله وتقويتها من أجل الاستعداد لرؤية الله ولقائه هي في تحصيل المعرفة وتقويتها. وطريق تحصيل المعرفة تطهير القلب من مشاغل وارتباطات الدنيا، والانقطاع الكامل لله بواسطة الذكر والفكر، وإخراج حب غير الله من القلب، لأن القلب كالوعاء إذا كان مليئاً بالماء لا مكان فيه للخل، يجب أن تخليه من الماء حتى يتسع للخل. لم يخلق الله قلبين لأحد. كمال المحبة في أن يحب الإنسان ربه بكمال قلبه، وما دام متوجهاً لغير الله فستكون زاوية من قلبه مشغولة بالغير. إذن بالمقدار الذي يكون الإنسان مشغولاً بغير الله، تقلُّ محبته لله. إلا أن يكون توجهه لغير الله لجهة كون الشيء فعل الله ومخلوقه وأحد مظاهر أسمائه وصفاته.

يشير الله في القرآن لهذا المعنى يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ تحصل هذه الحال نتيجة غلبة الشوق، حيث يجب على الإنسان أن يسعى ليجعل ما صار له واضحاً أكثر وضوحاً، وأن يكون مشتاقاً لما لم يحصل بعد، لأن الشوق يتعلق بالشيء الذي عُرف من جهة ولم يعرف من الجهة الأخرى، ويكون أبداً بين أمرين، فلا نهاية له، لأن درجات ومراتب الوضوح لا نهاية لها بالنسبة لما حصل، كما أن الازدياد فيما بقي من الجمال والجلال الإلهي لا ساحل له، بل يشعر بشوق لذيذ مع حصول أصل الوصال بحيث لا يُرى فيه ألم، ثم لا يهدأ الشوق أبداً، خصوصاً في الدرجات المتعددة التي يشاهدها في الـ(ما فوق): ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[2].

---

(١) مفاتيح الغيب ص ٥٤.
(٢) الحقائق ص ١٨١.

اثار وعلامات الذكر واللقاء

كما سبق وذكرنا: الذكر والشهود واللقاء، مقام باطني واستكمال واقعي معنوي وروحي، يكون السالك قد وصل في هذا المقام إلى مرتبة من الوجود لم يكن قد وصل إليها قبلاً، إذا قيل لمقام الشهود واقع وحقيقة. وهكذا إذا قيل مقام الأنس، أو مقام الرضا، أو مقام المحبة، أو مقام الشوق، أو مقام الوصال، أو مقام اللقاء، فليس قولاً مجازياً، بل حقيقي، فالمقام المذكور مرتبة ودرجة وجود واقعية؛ وطبعاً لا بد لها من آثار وعلامات جديدة؛ ويُعرف هذا الكمال بواسطة آثاره.

وهنا نشير إلى مجموعة من الآثار:

١ ـ التقيد بطاعة الله: عندما يكون قد وصل أحد إلى هذا المقام، فشاهد في باطن الذات جمال الأحدية ووجد نفسه في محضره، فبدون أدنى شك أو تردد سيعمل بأوامره، ينفذ ما أُمر بتأديته ويترك ما نُهي عنه. إذا أراد الإنسان معرفة نيله لهذا المقام أو عدم نيله، عليه أن يرى مقدار التزامه بأوامر ونواهي الشرع، ويكتشف مقدار نيله لهذا المقام من خلال نسبة التزامه؛ لا يمكن أن يكون قد وصل الإنسان إلى مقام الشهود والأنس دون أن يكون ملتزماً بأوامر ونواهي الله المتعال بشكل كامل.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله به أخذت به، وإذا ورد عليك شيء نهى عنه تركته»[١].

وقال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «يا مَن أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين، ويا مَن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين»[٢].

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص ١٥٥.
(٢) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٣١.

وقال الصادق عليه السلام: «مَن كان ذاكراً لله على الحقيقة فهو مطيع، ومَن كان غافلاً عنه فهو عاص»[1].

٢ ـ الخضوع والخشوع: مَن شاهد قدرة وعظمة الله المتعالي يكون قهراً خاضعاً له، ويكون دائم الخجل والذلة لضعفه وقصوره أمامه.

قال الصادق عليه السلام: «ومعرفتك بذكره لك يورثك الخضوع والاستحياء والانكسار»[2].

٣ ـ عشق العبادة: أحد آثار نيل مقام الشهود، التعلق الشديد بالعبادة والالتذاذ بها، لأن مَن أدرك عظمة وقدرة خالق الكون ورأى نفسه في محضره، وشاهد منبع العظمة والكمال، رجح لذة المناجاة والأنس والتضرع والتوسل على أية لذة أخرى. المحرومون من طعم اللذائذ المعنوية يتعلقون باللذات المجازية التي تنتهي سريعاً وإن لم تكن في الواقع سوى دفع للألم. أما الذين تذوقوا اللذات الحقيقية وذاقوا طعم لذة عبادة ومناجاة الخالق، لا يستبدلون الأحوال الجميلة الرائعة بأية لذة. هؤلاء هم العباد الإلهيون المقربون حيث يعبدون الله لكونه أهلاً للعبادة، لا طمعاً في الثواب أو خوفاً من العقاب.

لا بد أنكم سمعتم بلوعة واشتياق وعبادات النبي الأكرم والإمام علي والإمام السجاد وسائر الأئمة عليهم السلام في هذا الخصوص.

٤ ـ السكينة والطمأنينة: الدنيا محل الابتلاء والألم والغصة؛ ويمكن تقسيم ابتلاءات الدنيا إجمالاً إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أنواع المصائب، من قبيل مرضه أو مرض أقربائه؛ موته وموت أقربائه؛ الظلم والتعدي وأكل حق الآخرين؛ الإزعاج والأذى.

النوع الثاني: الحسرة والضيق نتيجة لفقدان أمور الدنيا، أو عدم التمكن من الوصول إليها.

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٨.

(٢) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٥٨.

النوع الثالث: الخوف من فقدان ما لديه. يخاف أن تُسرق أمواله أو أن تضيع، أو أن يفقد أبناءه، أو الخوف من المرض والموت. غالباً ما تسلب هذه الأمور راحة وطمأنينة الإنسان، وأساسها التعلق بالدنيا والإعراض عن ذكر الله.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].

أما عباد الله الخالصون الذي وصلوا لمنبع كل الكمالات والخيرات، فإنهم يشاهدون الجمال والكمال الذي لا نهاية له، يملأون قلوبهم بذكره والأنس به، ولهذا لا يجزعون أو يضطربون؛ لديهم كل شيء لأن لديهم الله؛ لم تتعلق قلبوهم بأمور الدنيا حتى يجزعوا ويخافوا عليها؛ تعلقت قلوبهم بمنبع الكمالات والخيرات وبمَن ليس فاقداً للكمال.

قال الإمام الحسين عليه السلام: «وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبّوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب مَن رضي دونك بدلاً، ولقد خسر مَن بغى عنك متحولاً؟ كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان»[2].

على كلٍ، من علامات وآثار نيل مقام الذكر والشهود والأنس، هدوء واطمئنان القلب. لا يمكن لغير ذكر الله أن يجعل سفينة القلب هادئة وسط بحر الأمواج المتلاطمة للحياة.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3].

كلما كان إيمان الإنسان أقوى كلما زاد هدوؤه واطمئنانه.

---

(١) سورة طه، الآية ١٢٤.
(٢) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.
(٣) سورة الرعد، الآية ٢٨.

٥ ـ توجه الله نحو العبد: عندما يذكر الإنسان ربه، يتوجه الله إليه بدوره ويعتني به، وهذا ما يستفاد من الآيات والروايات.

يقول تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «قال الله عز وجل: يا بن آدم! أذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، يا بن آدم! أذكرني في خلأ أذكرك في خلأ، يا بن آدم أذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك» وقال: «ما من عبد ذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملأ من الملائكة»[٢].

توجه الله وعنايته بعبده ليس أمراً اعتبارياً أدبياً، بل واقعي، ويمكن توجيهه بوجهين:

الوجه الأول: عندما يذكر العبد ربه يصبح قابلاً لتقبل الفيض. يفيض الله المتعال عليه بالكمال ويرفع درجته.

الوجه الثاني: عندما يذكر العبد الذاكر ربه، ويتحرك نحوه يصبح محل عناية ولطف الله فيجذبه ويرفعه إلى مرتبة أرفع ويتولى إدارة قلبه.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قال الله تعالى: إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»[٣].

على كلٍ، توجه وعناية الله في حق عبده الذاكر ليس أمراً أدبياً، بل هو حقيقة، ويمكن تأويله وتوجيهه بالوجهين المذكورين، حيث يمكننا الجمع بينهما أيضاً.

٦ ـ محبة الله لعبده: من آثار ونتائج الذكر، محبة الله لعبده، يستفاد من الآيات والروايات أنه عندما يكون العبد ذاكراً لربه مطيعاً لأوامره وأوامر نبيه، يحبه الله بدوره أيضاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

(٢) وسائل الشيعة ج٤ ص ١١٨٥.

(٣) بحار الأنوار ج٩٣ ص ١٦٢.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن أكثر ذكر الله أحبه الله، ومَن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان؛ براءة من النار وبراءة من النفاق»[2].

محبة الله لعبده، ليست أمراً اعتبارياً وأدبياً، وليست تلك المحبة التي تطلق على الإنسان. المحبة في حق الإنسان بمعنى التعلق القلبي، والتعلق بالشيء الذي يحتاج إليه، لكن لا يصح هذا المعنى في حق محبة الله.

يجب تفسير محبة الله بهذا الشكل: يتلطف بعبده ويعتني به أكثر، ويهيّيء له سبلاً أكثر للعبادة والتوجه والإخلاص، وبهذه الطريقة يجذبه ويجره نحو مدارج القرب والكمال، لأنه يحب العبد ويرغب بسماع دعائه وتضرعه يوفقه للدعاء والصلاة والذكر والمناجاة، لأنه يحب تقربه فيجهز له وسيلة الكمال. والخلاصة: لأنه يحبه يتولى إدارة شؤون قلبه ويوفقه ليتحرك نحو مقام القرب بشكل أفضل وأسرع.

٧ ـ **الآثار الأهم**: يصبح من نصيب صاحب هذا المقام نتائج وفوائد أكثر وأرفع لا يقدر اللسان على عدها، ولا القلم على حصرها، لا يعرف أحد ماهية تلك الأمور إلا الواصلين إلى هذا المقام.

يصل السالك نتيجة لتزكية النفس وتصفية الباطن والعبادة والرياضة والتفكر والاستمرار في الذكر، إلى مقام يرى الحقائق ويسمعها من خلال عين الباطن وأذنه، تلك الحقائق التي لا يمكن رؤيتها واستماعها بعين الظاهر وأذنها. يسمع تسبيح وتقديس الموجودات، بل والملائكة أيضاً، ويصبح معها في ترتيلها. في نفس الوقت الذي يحيا في هذا العالم ويختلط مع الناس ويعاشرهم يكون في باطن ذاته في أفق أرفع، ويحيا في عالم آخر وكأنه ليس في هذه الدنيا أصلاً؛ يرى الجنة والنار في العالم الآخر، ويتواصل مع الملائكة ومع أرواح الصالحين والأبرار؛ يأنس بالعالم

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٢) وسائل الشيعة ج٤ ص ١١٨١.

الآخر ويتمتع بنعم أخرى، لكنه لا يتحدث عنها غالباً، لأن هكذا أفراد يكونون كتومين، عادة يتجنبون أن يُعرفوا.

تدخل العلوم والمعارف على قلب العارف، حيث تكون له اكتشافات وشهودات ليست من سنخ العلوم المتعارفة يصل السالك إلى مقام يغفل معه عن كل شيء وحتى عن نفسه، فلا يلتفت لشيء غير وجود الغني على الإطلاق وغير أسمائه وصفاته. يرى ذات واجب الوجود حاضرة وناظرة في كل مكان: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1]. يعتبر العالم مظهراً للصفات الإلهية، ويعتقد بأن كل جمال وكمال من الله. يدرك الفقر الذاتي للموجودات والغنى المطلق لواجب الوجود بالعيان. ومع مشاهدة كمال وجمال الأحدية المطلق يذوب ويستغرق.

ولا يفوتنا القول: إن لمقام الفناء درجات ومراتب أيضاً، ومن الأفضل لي أنا العبد المحروم أن أتجنب الدخول فيها. «هنيئاً لأهله».

طرق الوصول

لإكمال الإيمان ونيل مقام الذكر واللقاء والشهود، يمكن الاستفادة من العوامل التالية:

١ - التفكر والبرهان: يمكن للبراهين والاستدلالات التي أقيمت لإثبات وجوده وتوحيده أن تكون فاتحة هذا الطريق. يثبت من خلال البراهين التي ذكرت في كتب الحكمة والكلام والعرفان أن كل ظواهر العالم فقيرة ومحتاجة، بل هي عين الفقر والحاجة، وهي مرتبطة في وجودها واستمرارها وكل أفعالها وحركاتها لوجود الغنى، بل هي عين التعلق والربط. الكل محدود ومحتاج، ليس لدينا في كل دائرة الوجود أكثر من غني بالذات وكمال غير محدود واحد. ذات واجب الوجود التي لا طريق للنقص والحد والحاجة في وجوده أبداً، لا نهاية لعلمه وقدرته وحياته وسائر كمالاته، حاضر وناظر في كل مكان، ولا يخفى عنه شيء، قريب من كل

---

(١) سورة الحديد، الآية ٣.

الموجودات، وأقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. هكذا تصف الآيات والروايات الله. فمثلاً:

يقول تعالى في القرآن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(1).

ويقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(2).

ويقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾(3).

ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(4).

التأمل والتفكر في الأدلة والبراهين لمعرفة الله تخرج الإنسان من ظلمات الكفر، وتورده حدود الإيمان، وتفتح له طريق التكامل، وتدعوه نحو العمل الذي هو لازمة الإيمان.

٢ ـ **التفكر في الآيات الإلهية**: يعتبر القرآن كل ظاهرة من ظواهر العالم آيةً ودليلاً على وجود رب العالمين، ويؤكد في آيات عديدة على التفكر والتعقل في آيات الله حتى يدرك الإنسان من خلال جمالها وعجائبها ونظمها وتناسقها وجود الله العالم القادر الحكيم. طلب من الإنسان أن يدقق في خلقته وفي الأسرار والعجائب الموجودة في بناء روحه وبدنه، وفي اختلاف الألسنة والألوان والأشكال ووجود الزوجات؛ كما طلب منه أن يتفكر في خلق الشمس والنجوم وحركتها المنظمة الجميلة، وطلب منه أيضاً أن يتأمل في الأرض والجبال والهضاب والأشجار والنبات وأنواع الحيوانات البحرية والبرية؛ ويشير القرآن إلى نماذج كثيرة منها.

الحق أن العالم مليء بالجمال والعجائب، إذا ما دققت في أي موجود وجدت آلاف العجائب فيه، ومن الشمس والنجوم والمنظومات والسحب، إلى عالم الذرة المحير. من الأرض والجبال والهضاب والمعادن إلى المحيطات والبحار والبحيرات

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٥.
(٢) سورة الحديد، الآية ٤.
(٣) سورة ق، الآية ١٦.
(٤) سورة الحج، الآية ١٧.

والأنهار، من الغابات العظيمة إلى أنواع النباتات والأشجار الصغيرة والكبيرة، من الحيوانات الكبيرة إلى الفيل والجمل وحتى النمل والبعوض، بل والحيوانات الصغيرة التي لا ترى مثل أنواع الفيروسات والميكروبات. عندما يرى الإنسان جمال وظرافة وعجائب ظواهر الكون ونظمها وتناسقها الدقيق يدرك عظمة وقدرة وعلم وحكمة الخالق اللانهائية، فيغرق في الحيرة والتعجب ويقول من صميم قلبه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[1]. انظر إلى السماء المليئة بالنجوم وفكر في ذلك بعمق. اجلس بجوار الغابة وشاهد قدرة الله. يا له من عالم جميل.

٣ ـ **العبادة**: بعد حصول الإيمان والمعرفة. يجب أن يسعى الإنسان بجد في العمل الصالح والقيام بواجباته، لأنه بواسطة العمل الصالح، يصبح الإيمان والمعرفة كاملين، بل وأكثر كمالاً حتى ينال مقام القرب الإلهي؛ صحيح أن الإيمان والمعرفة وكلمة التوحيد يرتقون عالياً، لكن العمل الصالح يرسل لهم المدد.

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2].

العمل الصالح للإيمان والمعرفة كالوقود للطائرة، فما دام فيها وقود حلقت وارتفعت واستمرت في طيرانها، وعندما تنتهي المحروقات فيها تسقط، وما دام العمل الصالح برفقة الإيمان والمعرفة، يرفع الإنسان إلى المقامات العالية، وعندما لا يحده العمل الصالح يسقط.

يقول تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[3].

الطريق الوحيد لإكمال النفس وتزكيتها والوصول إلى مقام اليقين والذكر، السعي والجد في أداء الواجبات والعبادات وعبودية الله، وإذا تخيل أحد إمكانية الوصول إلى المقامات العالية عن غير طريق العبادة فهو مشتبه تماماً؛ وسنبحث فيما بعد حول العمل الصالح إن شاء الله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩١.
(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.
(٣) سورة الحجر، الآية ٩٩.

٤ ـ **الأذكار والأدعية**: يعتني الإسلام بقراءة الذكر والاستمرار عليه عناية خاصة، وقد ورد الكثير من الأذكار والأدعية عن النبي الأكرم والأئمة الأطهار عليهم السلام ولها ثواب معين. يعد الذكر نوعاً من العبادة حيث يوجب إكمال النفس والقرب من الله، مثلاً:

عن أبي سلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «خمس ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى لمسلم فيصبر ويحتسب»[(١)].

وقال: «لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة فرأيت ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وربما أمسكوا فقلت لهم: ما لكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟ فقالوا: متى تجيئنا النفقة؟ فقلت لهم: وما نفقتكم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، فإذا قال بنينا وإذا أمسك أمسكنا»[(٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن قال سبحان الله غرس الله بها شجرة في الجنة. فقال رجل من قريش: يا رسول الله! إن شجرنا في الجنة لكثير. قال: نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها؛ وذلك أن الله عز وجل يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾»[(٣)].

كل كلام يقوله الإنسانِ ذاكراً لله ويكون مفهومه تمجيداً وتحميداً وتسبيحاً، يُسمَّى ذكراً؛ ولكن صُرِّح في الأحاديث بأذكار خاصة، ولها ثواب وآثار خاصة، وأهمها: «لا إله إلا الله»، «سبحان الله»، «الحمد لله»، «الله أكبر»، «لا حول ولا قوة إلا بالله»، «حسبنا الله ونعم الوكيل»، «لا إله إلا الله سبحانك إني كنت من الظالمين»، «يا حي يا قيوم يا من لا إله إلا أنت!»، «أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد»، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، «يا الله»، «يا رب»، «يا رحمان»،

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٦٩.
(٢) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٦٩.
(٣) بحار الأنوار ج٩٣ ص١٦٨.

«يا أرحم الراحمين»، «يا ذا الجلال والإكرام»، «يا غني ويا مغني» وكذلك سائر أسماء الله الحسنى التي وردت في الأدعية والأحاديث. كل هذه الأذكار تذكر الإنسان بالله وتكون وسيلة للتقرب، يمكن للإنسان انتخاب واحد من هذه الأذكار والاستمرار عليه، لكن أهل المعرفة يرجحون بعض الأذكار. البعض يوصي بـ«لا إله إلا الله»، والبعض يرجح «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، والبعض يفضل «يا حي يا قيوم يا من لا إله إلا أنت»، والبعض الآخر يقترح «يا الله»، والآخرون يرجحون كلمات أخرى، ولكن يستفاد من بعض الأحاديث أرجحية «لا إله إلا الله» على سائر الأذكار.

قال رسول الله ﷺ: «خير العبادة قول لا إله إلا الله»[1].

وقال: «سيد القول لا إله إلاّ الله»[2].

وعن النبي ﷺ عن جبرائيل قال الله عز وجل: «كلمة لا إله إلا الله حصني فمَن دخل حصني أمن من عذابي»[3].

ولكن ولكون الهدف من الذكر التوجه نحو الله فيمكن القول: إن كل كلام يوجه الإنسان أكثر وأفضل نحو الله كان مناسباً أكثر.

تختلف أحوال ومقامات الأشخاص. يمكن أن تكون كلمة «يا الله» مناسبة لبعض الأفراد في بعض الأحوال أكثر، وأن تكون جملة «يا مجيب دعوة المضطرين» مناسبة لقسم آخر بصورة أفضل، وأن تكون جملة «لا إله إلا الله» للبعض كذلك، وجملة «يا غفار يا ستار» للبعض الآخر وهكذا سائر الأذكار. لهذا من الأفضل للسالك أن يستعين بأستاذ ومعلم كامل إذا أمكنه ذلك لتلقي النصح منه، وإذا لم يحصل على واحد يستطيع الاستفادة من كتب الأدعية والأحاديث، ومن تعاليم النبي الأكرم والأئمة الأطهار عليهم السلام. كل الأذكار والعبادات جيدة وإذا ما أداها بشكل صحيح يمكن أن تكون وسيلةُ تقرّبه وتوصله إلى المقامات العالية. ويمكن للسالك

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص ١٩٥.
(٢) بحار الأنوار ج٩٣ ص ٢٠٤.
(٣) بحار الأنوار ج٩٣ ص ١٩٢.

الاستفادة منها جميعاً أو من بعضها. لكن يوصي المشايخُ الراغبَ بنيل مقام الذكر والشهود أن ينتخب ذكراً مخصوصاً، وأن يكرره بكيفية خاصة وعدد خاص باستمرار حتى يصل إلى مبتغاه، لكن يجب أن نلتفت إلى هذه النقطة المهمة، وهي أن الأذكار والأدعية الواردة في الشرع وإن كانت عبادة تقرب العبد لخالقه إجمالاً، لكن الهدف الأصلي منها تحصيل مقام الانقطاع الكامل عن غير الله وحضور القلب وتوجهه إلى الله، لهذا علينا أن لا نكتفي بتكرار الألفاظ فنغفل عن الالتفات إلى المعنى ونيل الهدف الرفيع، لأن تكرار الأذكار وحتى الاستمرار عليها ليس أمراً صعباً، وصرف هذا العمل لا يمكنه إيصال الإنسان للهدف. المفيد نفي الخواطر وتمركز الفكر وحضور القلب نسبة إلى المعبود وهذا أمر صعب، لأنه حين الذكر تهجم أفكار مختلفة وخواطر متعددة على الإنسان وتصرفه عن ذكر الله، مع أنه لا يمكن للنفس أن تصبح مؤهلة لتلقي الإفاضات والإشراقات الإلهية إذا لم تنفِ الخواطر. يمكن للقلب أن يصبح محلاً لتلقي الأنوار الربوبية إذا خلا من الأغيار. نفي الخواطر وتمركز الفكر يحتاج إلى العزم والتصميم الجدي والمراقبة الدائمة واليقظة، وحيث أنه من غير الممكن أن يتحقق دفعة واحدة وبدون تمرين وممارسة، يجب مداراة النفس وترويضها على الأمر تدريجياً.

أحكام التصرف:

يوصي بعض أهل المعرفة بالقيام بالأمور التالية لاجتياز هذا الطريق:

أولاً: يغتسل بقصد التوبة، وحين الغسل يتذكر ذنوبه ومعاصيه ويقول لله: **إلهي! قصدتك تائباً من ذنوبي مصمماً على عدم العودة إليها، وكما غُسِّل بدني بالماء فطهر قلبي ونفسي من الأخلاق السيئة أيضاً.**

ثانياً: يسعى لرؤية نفسه في محضر الله وأن يذكر الله في كل حال فلا يغفل عنه أبداً.

ثالثاً: يمكنه أن يجهز نفسه لتلقي الإفاضات الإلهية من خلال تهذيب النفس وتصفية الباطن، فينتخب ساعة في الليل والنهار للتوجه والتفكر في نفسه. يبحث في أمور نفسه ويحاسبها ويدقق في صفاتها وأحوالها لعله يكون مورد غاية الله المتعال

فيفيض عليه تمثلات وإفاضات لا تكون من سنخ الأمور المتعارفة.

رابعاً: يراعي السكوت ولا يتحدث إلا بمقدار الضرورة ويتجنب فضولات الكلام.

خامساً: يتجنب الامتلاء والتخمة في تناول الطعام.

سادساً: يبقى دائم الوضوء، فيتوضأ كلما بطُل وضوؤه.

قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: مَن أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني ومَن أحدث وتوضأ وصلّى ركعتين ودعاني ولم أجبه فيما سألني من أمر دينه ودنياه فقد جفوته ولست برب جافٍ»[1].

أن يكون على وضوء عند النوم قال رسول الله ﷺ: «مَن بات على طهر فكأنما أحيا الليل»[2].

سابعاً: أن يستقيظ وقت السحر فيتوضأ ويتخذ خلوة ويصلي صلاة الليل مع حضور القلب ويطيل قنوت الوتر، فيدعو لنفسه وللمؤمنين ويطلب لهم المغفرة ويكرر: «أستغفر الله ربي وأتوب إليه» سبعين مرة، ويسعى لآداء صلاة الليل بتوجه وحضور قلب كامل، ثم يقر آية السخرة سبعين مرة مع حضور القلب وهي مفيدة ومجربة لتحصيل اليقين ونفي الشك ونفي الخواطر. وآية السخرة هي:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

ثامناً: أن يجعل ذكر «يا حي يا قيوم، يا مَن لا إله إلاّ أنت» ورداً يكرره على

---

(١) وسائل الشيعة ج١ ص٢٦٨.

(٢) وسائل الشيعة ج١ ص٢٦٦.

(٣) سورة الأعراف، الآيات ٥٤ ـ ٥٦.

لسانه فيقرأه عند الفراغ مع حضور القلب.

تاسعاً: أن يسجد سجدة طويلة في الليل والنهار وأن يكرر خلالها ذكر: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] ما أمكنه ذلك.

عاشراً: أن يحدد ساعة في الليل والنهار ويكرر ذكر: «يا غني يا مغنى» كثيراً، مع التوجه وحضور القلب.

أحد عشر: يقرأ مقداراً من القرآن كل يوم مع حضور القلب، ويتفكر ويتدبر في معاني الآيات.

إذا لم تكن لديه همة وقدرة أداء كل هذه الأمور دفعة واحدة في البداية، فليبدأ بشيء منها ثم يضيفها تدريجياً.

لا بد من القيام بهذه الأمور المذكورة أربعين يوماً متوالياً، وأن يكرر طلب الشهود والمعرفة من الله تعالى، ويمكن أن لا يفتح له باب الغيب في هذه المدة لعدم توجه الله إليه، عليه أن ييأس بل يبدأ بأربعين يوماً ثانية مع تصميم أكبر وجد أكثر. إذا لم يوفق أيضاً يكرر ذلك أربعين ثالثة ورابعة و... ويستمر في ذلك ولو اقتضى الأمر منه سنوات حتى تشمله الألطاف الإلهية. عليه أن لا يتوانى أبداً عن العمل والجد والجهد فيطلب المدد من الله، وقد قيل: مَن جدّ وجد. يجب علينا تأدية المطلوب منا والباقي في عهد الحكيم الرؤوف، إذا أراد أعطى وإن لم يُرد لم يعطِ.

أهم هذه الأعمال، التفكر، ومراقبة النفس، وحضور القلب، والتوجه نحو الله. الموضوع المهم أن يطرد السالك الأفكار المشتتة والخواطر عن النفس، وأن يتوجه إلى الله وهذا عمل صعب.

ويمكن القيام بنفي الخواطر على ثلاث مراحل وبالتدريج.

الأولى: يجب أن يسعى ليكون كل توجهه نحو الذكر حال القيام به، فيطرد عن نفسه كل فكر آخر، ويستمر في هذا العمل حتى يسيطر على نفسه سيطرة تامة، ويمنعها عن أي فكر آخر.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

الثانية: يستمر بالذكر بحسب الطريقة الأولى مع اختلاف واحد، وهو أن يتوجه إلى معاني ومفاهيم الأذكار حال تكرارها توجهاً كاملاً، فيجعلها تخطر على ذهنه، ويتجنب تعريض نفسه لهجوم الأفكار والخواطر الأخرى تماماً، يستمر في هذا البرنامج حتى يتمكن من منع خطور الأفكار الأخرى طوال مدة الذكر، مع استمراره في التوجه الكامل لمعاني ومفاهيم الأذكار.

الثالثة: يسعى ابتداءً لوضع المعاني في القلب، وعندما يقبل القلب معاني الأذكار ويؤمن بها، يكرر الأذكار على لسانه، وهكذا يكون اللسان تابعاً للقلب.

الرابعة: يسعى في هذه المرحلة لطرد كل الخواطر والمفاهيم والمعاني وحتى المفاهيم التصورية للأذكار من قلبه، فيطردها وينفيها، ويهيّىء قلبه لتلقي الإشراقات والإفاضات الإلهية. فيتوجه نحو الحق سبحانه وتعالى بكل وجوده، ويخرج كل الأغيار من قلبه، ويفتح بابه لتلقي الإشراقات الإلهية، وعندها ستشمله ألطاف إلهية خاصة، ويستفيد من إفاضات وإشراقات الأنوار الإلهية، ويسير ويصعد من خلال جاذبيتها، ويفنى في مشاهدة جمال ذات الربوبية المنقطع النظير. يمكن أن يستغرق السالك في هذا المقام إلى درجة لا يعود معها يرى شيئاً غير الله بحيث أنه لا يرى حتى نفسه وأفعاله، ويأنس بالله وحده «هنيئاً لأهله».

من الأفضل أن نترك الكلام لأولياء الله الذين طووا هذا الطريق وذاقوا لذة مقام الشوق والأنس واللقاء اللذيذ.

إرشادات الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

(تُنقل قصة عنوان البصري من كتاب بحار الأنوار ج١ ص ٢٢٤ أو كشكول الشيخ البهائي ج٢ ص١٨٤):

كان عنوان البصري شيخاً كبيراً قد أتى عليه أربع وتسعون سنة ـ قال: كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلمّا قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إني رجل مطلوب ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ

عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه، فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرّس فيَّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول ﷺ وسلّمت عليه، ثم رجعت من الغد إلى الروضة وصليت فيها ركعتين وقلت: أسألك يا الله يا الله أن تعطف عليَّ قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم، ورجعت إلى داري مغتماً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من حب جعفر، فما خرجت من داري إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري، فلما ضاق صدري تنعّلت وتردّيت وقصدت جعفراً وكان بعدما صلّيت العصر، فلما حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام على الشريف فقال: هو قائم في مصلاه، فجلست بحذاء بابه فما لبثت إلا يسيراً إذ خرج خادم فقال: أدخل على بركة الله، فدخلت وسلّمت عليه، فرد السلام وقال: اجلس غفر الله لك، فجلست فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: أبو مَن؟ قلت: أبو عبد الله، قال: ثبَّت الله كنيتك ووفقك. يا أبا عبد الله ما مسألتك؟ فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثم رفع رأسه، ثم قال: ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك عليَّ ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته، فقال: يا أبا عبد الله، ليس العلم بالتعلم، إنما هو نورٌ يقع في قلب مَن يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك. قلت: يا شريف، فقال: قل يا أبا عبد الله، قلت: يا أبا عبد الله ما حقيقة العبودية؟ قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم يرَ العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوَّض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا ينفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً، أو تفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيّامه

باطلاً، فهذا أول درجة التقي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. قلت: يا أبا عبدالله أوصني، قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك التهاون بها، قال عنوان: ففرغت قلبي له.

فقال: أما اللواتي في الرياضة[2]: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله. ولا تأكل إلاّ عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً وسمّ الله، واذكر حديث الرسول ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، فإن كان ولا بد فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه.

وأما اللواتي في الحلم: فمَن قال لك: إن قلت واحدةً سمعت عشراً فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدةً، ومَن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فاسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومَن وعدك بالخنى[3] فعده بالنصيحة والرعاء.

وأما اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً. قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك و لا تفسد عليَّ وردي، فإني امرىءٌ ضنين بنفسي، والسلام على مَن اتبع الهدى[4].

وصية العلامة المجلسي(رض):

ينقل أحد السالكين هذه الطريقة عن العارف الرباني الملا محمد تقي المجلسي رضوان الله عليه يقول:

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.
(٢) الرياضة: تهذيب الأخلاق النفسية.
(٣) الخنى: الفحش في الكلام.
(٤) بحار الأنوار ج١ ص ٢٢٤.

ما أخذته من مرحلة الرياضة وبناء النفس يعود إلى الوقت الذي كنت مشغولاً فيه بمطالعة التفسير. ذات ليلة رأيت النبي محمد ﷺ وكنت بين النوم واليقظة. فقلت لنفسي: من المفيد أن أدقق في كمالات وأخلاق النبي بشكل جيد. كنت كلما أدقق أكثر أرى نورانيته وعظمته تزداد، بحيث سطع نوره في كل مكان، عندها استيقظت (عدت إلى نفسي ووعيي) وجاءني إلهام يقول: خُلق رسول الله القرآن ويجب أن أكثر الغوص فيه. كنت كلما دققت في الآية أكثر انكشفت لي حقائق أكثر، حتى دخلت على قلبي حقائق ومعارف جمة، وكان ذلك دفعة واحدة. كلما دققت في آية أنال تلك الموهبة. طبعاً يصعب تصديق هذا الأمر لمن لم يوفق إليه، بل عادة يكون غير ممكن، لكن هدفي من هذا الكلام إرشاد الأخوة في الله.

حكم الرياضة وبناء النفس هو عبارة عن: اجتناب الكلام الذي لا فائدة منه، بل وكل ما هو غير ذكر الله.

ترك الاستفادة من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والألبسة والمنكوحات والمنازل الجميلة، والراحة (الاكتفاء بمقادر الضرورة).

الابتعاد عن معاشرة غير أولياء الله.

تجنب الإكثار من النوم، وداوم على ذكر الله مع المراقبة الكاملة.

قاوم أولياء الله بتجربة المداومة على ذكر: «يا حي يا قيوم، يا مَن لا إله إلا أنت» وكان ذلك منتجاً؛ وقد جربت هذا الذكر أيضاً، لكن أكثر ما أردد من أذكر هو ذكر: «يا الله»، مع إخراج غير الله من القلب والتوجه الكامل نحو الله المتعال.

طبعاً الشيء المهم جداً ذكر الله مع المراقبة الكاملة، ولا تصل سائر الأمور إلى أصل الذكر. إذا استمر السالك على هذا الأمر لمدة أربعين يوماً فُتحت له أبواب من أنوار الحكمة والمعرفة والمحبة، وعندها يترقى نحو مقام الفناء في الله والبقاء في الله[1].

---

(١) المقطع منقول تعريباً عن النص الفارسي، والعربي الأساس موجود في كتاب روضة المتقين ج١٣ ص ١٢٨.

رسالة الأخوند الملا حسين علي الهمداني:

كتب العالم الرباني والعارف الزاهد، المرحوم الآخوند الملا حسين علي الهمداني (قدس سره) في رسالة إلى أحد علماء تبريز:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

لا يخفى على الأخوة في الدين أنه بغير الالتزام بالشرع الشريف، في كل الحركات والسكنات والتكلمات واللحظات وغير ذلك، لا طريق للقرب من حضرة ملك الملوك جلّ جلاله. والعمل بالخرافات الذوقية وإن كان الذوق حسناً في غير هذا المقام «كما دأب الجهّال والصوفية خذلهم الله» لا يوجب إلا بعداً. حتى الشخص الملتزم بعدم حلق الشارب وعدم أكل اللحم أبداً إذا لم يكن مؤمناً بعصمة الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم، عليه أن يفهم أنه سيبتعد عن حضرة الأحدية وهكذا في كيفية الذكر، إذا عمل بغير ما ورد عن السادات المعصومين عليهم السلام، بناءً على هذا يجب أن يقدم الشرع الشريف والاهتمام بما اهتم به الشرع الشريف، وما استفاده هذا الضعيف من العقل والنقل هو: أهم الأشياء لطالب القرب، الجد والسعي في ترك المعصية. إذا لم تؤدِ هذه الخدمة فلن يترك ذكرك ولا فكرك أي فائدة على حال قلبك، تماماً كما تكون خدمة الذي يعصي السلطان دون فائدة. لا أعرف أي سلطان أعظم من هذا السلطان العظيم الشأن، وأي نقار أقبح من النقار معه، فافهم.

مما ذكرت أن طلبك المحبة الإلهية مع كونك مرتكباً للمعصية أمر فاسد جداً، وكيف يخفى عليك كون المعصية سبباً للنفرة، وكون النفرة مانعة الجمع مع المحبة، وإذا تحقق عندك أن ترك المعصية أول الدين وآخره وظاهره وباطنه، فبادر إلى المجاهدة واستغل بتمام الجد إلى المراقبة من أول قيامك من نومك في جميع آناتك إلى نومك، والزم الأدب في مقدس حضرته، واعلم أنك بجميع أجزاء وجودك ذرة ذرة أسير قدرته، وراع حرمة شريف حضوره، واعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والتفت دائماً إلى عظمته وحقارتك، ورفعته ودناءتك، وعزته وذلتك،

وغناه وحاجتك، ولا تغفل شناعة غفلتك عنه جلّ جلاله مع التفاته إليك دائماً، وقم بين يديه مقام العبد الذليل الضعيف، وتبصبص تحت قدميه بصبصة الكلب النحيف، أَوَلا يكفيك شرفاً وفخراً أنه أذن لك في ذكر اسمه العظيم بلسانك الكثيف الذي نجسته قاذورات المعاصي.

إذن ـ أيها العزيز ـ ولكون هذا الكريم الرحيم قد جعل لسانك مخزن جبل النور يعني الذكر الشريف، فقلة حياء أن تلوث مخزن السلطان بالنجاسات وقاذورات الغيبة، والكذب، والفحش، والأذية، وغيرها من المعاصي. يجب أن يمتلىء محل مخزن السلطان بالعطر وماء الزهر، لا أن يكون نجساً مليئاً بالقاذورات. دون شك لست عارفاً بما تسببه في الجوارح السبعة، يعني الأذن، اللسان، العين، اليد، البطن، الفرج من معاصٍ، لأنك لم تدقق في المراقبة، أي نارٍ تؤجج؟! وأي فساد تثيره في دينك؟! وأي جراح منكرة تسببها لقلبك بسيف وسنان لسانك؟! إذا لم تكن قد قتلت فهذا حسن جداً. إذا أردت أن أشرح هذه المفاسد فلن يتسع لها كتاب، فما الذي يمكنني فعله على ورقة. أنت إلى الآن لم تطهر جوارحك من المعاصي، فكيف تنتظر مني أن أكتب لك شيئاً في شرح أحوال قلبك، إذن البدار، البدار، إلى التوبة الصادقة. ثم العجل العجل في الجد والمراقبة.

وخلاصة الأمر، بعد السعي في المراقبة، طبعاً طالب القرب لا يترك اليقظة والقيام في السحر. يؤدي صلاة الليل بأدب مع حضور القلب. وإذا كان وقته متسعاً اشتغل بالذكر أو الفكر أو المناجاة، لكن يجب أن يشتغل مقداراً معيناً من الليل بالذكر مع حضور القلب. لايخلو في كل حالاته من الحزن، وإذا لم يكن لديه حصَّله بأسبابه، وبعد الفراغ من تسبيح سيدة النساء يقرأ سورة التوحيد إثنتي عشر مرة و«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك. . . إلى الآخر» عشر مرات و«لا إله إلا الله» مئة مرة ويستغفر سبعين مرة، ويتلو مقداراً من القرآن الكريم، ويقرأ دعاء الصباح المعروف: أعني «يا من دلع لسان الصباح. . .» إلى آخره حتماً، ويكون دائماً على وضوء. وإذا صلّى ركعتين بعد كل وضوء كان ذلك جيداً. عليه أن يواظب أن لا يؤذي أحداً، وأن يسعى بشدة لقضاء حوائج المسلمين لا سيما العلماء ولا سيما أتقياءهم. وأن يجتنب كل مجلس فيه مظنة الوقوع في المعصية حتماً، بل ومجالسة

أهل الغفلة بغير شغل الضرورة مضرة. حتى لو كانت خاليةً من المعصية. كثرة الاشتغال بالمباحات والإكثار من المزاح وقول اللغو والاستماع للأراجيف يميت القلب.

إذا اشتغل بالذكر والفكر بدون مراقبة كان ذلك دون فائدة. حتى لو حصل له حال، لأن الحال لا تستمر يجب أن لا يخدع بالحال التي يأتي بها الذكر دون المراقبة. . . لا طاقة لدي لأكثر من ذلك. أرجو منكم الدعاء جميعاً، لا تنسوا هذا الحقير، كثير التقصير والمعاصي. وليقرأ سورة القدر مئة مرة ليلة الجمعة ومئة مرة عصر يوم الجمعة»[1].

وصية الميرزا جواد التبريزي:

يقول: «قد مضى في أخبار فضائل الشهر إيصاء النبي ﷺ بطول السجود، وهو أمر مهم، وهو أقرب هيئات العبودية، ولذا جعل في كل ركعة مرّتان وغيره مرة واحدة، وقد نُقل عن أئمتنا عليهم السلام، وعن خواص شيعتهم في طول السجود أمر عظيم وقد عد السجاد عليه السلام في بعض سجداته ألف مرة: لا إله إلا الله حقاً حقاً إلى آخره، وأن الكاظم عليه السلام يقرب طول سجوده من أوّل اليوم إلى صلاة الظهر، ونقل عن ابن أبي عمير وجمل وخرَّبوذ ما يقرب من ذلك.

وكان لي شيخ جليل أيّام تحصيلي في النجف الأشرف، وكان مرجعاً لأتقياء طلبة زمانه في التربية، وسألته عما جربه من الأعمال البدنية في تأثير حال السالك إلى الله، فذكر أمرين:

أحدهما: أن يسجد في كل يوم وليلة سجدة واحدة طويلة، ويقول فيها: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] يقصد بذلك: أن روحي مسجونة في سجن الطبيعة، ومقيدة بقيود الأخلاق الرذيلة، وإني بأعمالي جعلت نفسي مسجونة في هذا السجن، ومقيدة بهذه القيود، وأنزّه ربي من أن يكون هو الذي فعل بي ذلك ظلماً، وأنا الذي ظلمت نفسي، وأوقعتها في هذه المهالك.

---

(١) تذكرة المتقين ص ٢٠٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

وكان يوصي أصحابه بهذه السجدة وكان كل مَن يعمل بها يعرف تأثيرها في حالاته، لا سيما مَن كان طول سجوده أكثر. وكان بعض أصحابه يقول ذلك ألف مرة، وبعضهم أقل، وبعضهم أكثر، وسمعت أنّ بعضهم يقول ثلاثة آلاف مرة[1].

وصية الشيخ نجم الدين:

كتب الشيخ نجم الدين: «إعلم أنه لا فائدة من الذكر دون مراعاة آدابه وشرائطه. في البداية يجب القيام بآدابه وشرائطه؛ ودليل المريد الصادق الذي يتلوع في طلب السلوك أن يأنس بالذكر ويستوحش من الخلق، حتى يبتعد عن الجميع ويأوي إلى ملجأ الذكر: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2] وإذا أراد المواظبة على الذكر، عليه أن يبنيه على أساس التوبة النصوح من كل المعاصي. وإذا استطاع فليغتسل عند الذكر، وإلا فليتوضأ، لأن ذكر الحبيب قتال للعدو، ولا يمكن ذلك دون سلاح فـ«الوضوء سلاح المؤمن» وأن يلبس ثوباً أبيض بحسب السنة. ولطهارة الثوب أربعة شروط:

الأول: الطهارة من النجاسة.

الثاني: الطهارة من المظلمة.

الثالث: الطهارة من الحرمة ـ يعني أن لا تكون حريراً.

الرابع: الطهارة من الرعونة، يعني أن يكون قصيراً بحسب السنة. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[3] أي قصر وأن يتخذ منزلاً خالياً مظلماً ونظيفاً، والأولى له أن يتعطر، ويجلس باتجاه القبلة، والتربع في الجلوس منهيٌّ عنه في جميع الأوقات إلا وقت الذكر، حيث كان الخواجه يجلس إذا ما أتم صلاة الصبح في مكانه ويتربع للذكر حتى طلوع الشمس، كأن يضع يديه على فخذيه عند الذكر، ويحضر قلبه ويجهز عينيه ويبدأ قول «لا إله إلا الله» بتعظيم شديد وقوة. أشد ذكراً كأن يخرج «لا إله» من الصميم ويدخل «إلا الله» إلى قلبه بطريقة يصل معها أثر الذكر وقوته إلى كل الأعضاء دون أن يكون ذلك بصوت عالٍ، بل كان يسعى لإخفائه وخفضه ما أمكنه، كما في

---

(١) المراقبات ص ١٢٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٣١.

(٣) سورة المدثر، الآية ٤.

قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾[1]، يُسمّى هذا الوجه من الذكر «دمدمة» ويستذكر معنى الذكر في قلبه وينفي الخواطر. حيث ينفي أي خاطر يطرأ على القلب في معنى «لا إله» بمعنى أنه: لا أريد شيئاً ولا مقصوداً ولا محبوب لدي «إلا الله» ينفي جملة الخواطر بـ «لا إله» ويثبت حضرة العزة المقصود والمحبوب والمطلوب بـ «إلا الله». ويجب أن يكون القلب حاضراً في كل ذكر من بدايته إلى نهايته بالنفي والإثبات. كلما نظر في داخل قلبه، لم يحضر ما يتعلق به القلب، بل أعطاه لحضرة العزة. . . ففي «لا إله» يبطل ذاك التعلق ويرفع مسمار محبة ذلك الشيء، وبتصرف «إلا الله» يجعل محبة الحق قائماً مقام محبة ذلك الشيء. يداوم على هذا الأمر حتى يخلّي القلب من جملة المحبوبات والمألوفات، حتى يقوم من الرجفة لاستمراره في الذكر. ويكون اهتزازه بغلبات ذكر الوجود فيضمحل في نور الذكر، ويجعل الذكرُ الذكرَ مفرداً ويخرج العلائق والعوائق من وجوده، ويخففه من دنيا الجسمانية وآخر الروحانيات. كما في قوله: «سيروا فقد سبق المفردون». اعلم أن القلب خلوة الحق الخاصة، حيث، «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن» طالما وجدت زحمة الأغيار في محل القلب فغيرة الحق تقتضي التعزز من الغير. ولكن إذا أخلت كلمة «لا إله» محل القلب من زحمة الأغيار، عليه أن ينتظر قدوم تجلي سلطان «إلا الله» ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾[2] [3].

وكما لاحظتم، ففي حين يعتبر مشايخ العرفان الاستمرار على الذكر أفضل طرق السير والسلوك، ومع هذا فقد أوصوا بأساليب وطرق مختلفة كانوا قد جربوها. وعلة القضية أنه يمكن عد كل الأذكار الواردة في الشرع الهدف الأصلي من تشريع الذكر، يعني أنها تؤمن الانقطاع عن غير الله والتوجه الكامل إلى الله سبحانه وتعالى. ولكنها تختلف بحسب الأفراد والأحوال والمقامات. ما هو حال السالك وفي أي مقام كان حتى يعرف أي ذكر أنسب له وأكثر إيجابية؟ وهنا يمكن أن يكون للأستاذ

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

(٢) سورة الشرح، الآيتان ٧ ـ ٨.

(٣) مرصاد العباد ص ١٥٠.

والمربي دورٌ أساسي.

نُقل في كتب الحديث والدعاء أذكاراً وأدعية كثيرة. وذكر لكل واحد منها خاصية وثواب معين. الأذكار والأدعية بالإجمال هي على قسمين: مطلق ومقيد.

ذُكر لبعض الأذكار زمن خاص أو كيفية خاصة أو عدد معين. هنا يجب على السالك أن يعمل بحسب الطريق الذي أرشد إليه الأئمة عليهم السلام حتى يستفيد من الثواب والأثر الخاص؛ لكن بعض الأدعية مطلقة، يكون للسالك فيها حق الاختيار، بحيث ينتخب عدداً وزماناً يتناسب مع أوضاعه وشرائطه ويستمر في الذكر، أو يستفيد من الأستاذ وإرشاداته، وهنا يمكنكم مراجعة كتب الحديث والأدعية، ولا بد من الالتفات إلى أمرين:

الأول: أن ينتبه السالك إلى أن الهدف الأصلي للذكر هو تحصيل الحال، وحضور القلب، والتوجه إلى الله سبحانه. لذا يجب عليه أن يلتفت لهذا الأمر خلال انتخاب المقدار والزمان والكيفية، وأن يراعي حالته، فيستمر بالذكر بالمقدار الذي يستطيع، فإذا ما تعب وشعر بعدم الرغبة تركه ليبدأ من جديد في الوقت المناسب، حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها فإن القلب إذا أُكره عمي»[1].

وطبعاً يختلف الأفراد والأحوال والمقامات والأوقات في هذا المجال.

الثاني: يجب أن نعلم أن الهدف من الرياضة ودوام الذكر، تكامل النفس والقرب من الله؛ ولا يمكن التقرب من الله عن غير طريق أداء الواجبات. إذا كان على الإنسان واجب شرعي واجتماعي عليه أن يؤديه ويكون في تلك الحال ذاكراً الله، وعليه أن يكرر الذكر ما أمكن. ويمكنه المداومة على الذكر حال الفراغ أيضاً، أما إذا انزوى ولم يؤدِ مسؤوليته الشرعية بحجة الرياضة والاستمرار بالذكر، فلن يوجب عمله قرباً من الله.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٦١.

موانع الطريق

طي طريق الكمال ونيل المقامات العالية ليس عملاً سهلاً بسيطاً، بل هو أمر مهم وصعب جداً، يوجد موانع في هذا الطريق يجب على الإنسان المريد، الجهاد لإزالتها، وإلا فلن يصل إلى مقصده.

المانع الأول: عدم القابلية:

أكبر مانع أمام السير والسلوك إلى الله ونيل مقام القرب الإلهي، عدم قابلية المريد، لا يمكن للقلب الذي تلوث نتيجة لارتكاب المعاصي أن يكون محلاً لسطوع الأنوار الإلهية. عندما يبتعد قلب الإنسان عن الله نتيجة لارتكاب الذنب كيف يمكنه نيل مقام القرب؟! هكذا قلب يكون مركزاً لقادة الشيطان، فكيف يمكن لملائكة القرب الإلهي أن يدخلوه؟!

عن أبي بصير قال: : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب يواقع الخطيئة فلا تزل به حتى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله»[2].

قلب الإنسان العاصي منحرف يتحرك بعكس المسير، فكيف يمكنه أن يتحرك نحو مقام القرب، وأن يتلقى الإفاضات والإشراقات الإلهية؟! إذن من المفروض والواجب على الإنسان المريد أن يسعى ابتداءً في تزكية وتهذيب نفسه من الذنوب ثم يرد بعد ذلك إلى الرياضة والذكر، وإلا فلن يكون سعيه في الذكر والعبادة مقرباً له.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٣٢٧.

(٢) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٣١٢.

المانع الثاني: التعلقات الدنيوية:

إحدى الموانع الكبيرة لهذا الطريق هي التعلقات المادية، مثل التعلق بالمال والثروة، التعلق بالزوجة والأبناء، التعلق بالبيت ووسائل الحياة، التعلق بالجاه والمقام والرئاسة، التعلق بالأب والأم والأخ والأخت، وحتى التعلق بالعلم والمعرفة؛ هذه التعلقات تمنع الإنسان من التحرك والهجرة والسلوك.

كيف يمكن للقلب الذي استأنس بالمحسوسات وعشقها واستغرق فيها، أن يتركها ليسير ويصعد نحو العالم العلوي؟ كيف يمكن للقلب الذي تمركزت فيه الأمور الدنيوية أن يكون محلاً لسطوع الأنوار الإلهية؟ أضف إلى هذا أنه قد ورد في الأحاديث أن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ولا يمكن للإنسان العاصي أن يصعد إلى مقام القرب الإلهي.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أول ما عصي الله تبارك وتعالى بست خصال: حب الدنيا، وحب الرياسة، وحب النساء، وحب الطعام، وحب النوم، وحب الراحة»[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أبعد ما يكون العبد من الله عز وجل إذا لم يهمه إلا بطنه وفرجه»[3].

عن جابر قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا جابر! والله إني لمحزون وإني لمشغول القلب، قلت: جعلت فداك، وما شغلك وما حزن قلبك؟ فقال: يا جابر! إنه مَن دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عما سواه. يا جابر! ما الدنيا وما عسى أن تكون الدنيا؟ هل هي إلا طعام أكلته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أحببتها؟ يا جابر! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا ببقائهم فيها، ولم يأمنوا قدومهم الآخرة. يا جابر! الآخرة دار قرار والدنيا دار فناء وزوال، ولكن أهل الدنيا أهل

---

(١) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٩٠.
(٢) بحار الأنوار ج٧٣ ص ٩٤.
(٣) بحار الأنوار ج٧٣ ص ١٨.

غفلة، وكأن المؤمنين هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة لم يصمّهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم. ويصمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة، ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يجد المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه حتى لا يبالي من أكل الدنيا»[2].

إذن يجب على السالك أن يخرج هذه التعلقات من قلبه حتى تكون هجرته وحركته نحو المقامات العالية ممكنة؛ عليه أن يخرج التفكير بالأمور الدنيوية وذكرها من قلبه حتى يضع مكانها ذكر الله.

ينبغي التذكير بأن المذموم هو التعلق بالأمور الدنيوية لا نفسها. الإنسان السالك كسائر البشر يحتاج إلى الطعام واللباس والمسكن والزوجة، ولا بد له من العمل لتأمينها؛ يجب أن يتزوج لإبقاء النسل؛ لا بد له من تقبل المسؤولية الاجتماعية لإدارة شؤون الحياة، ولهذا السبب لم يذم الشرع المقدس أحداً منها، بل ويمكن عدها جميعها عبادة مع قصد القربة فتكون مقربة للعبد، ليست مانعة للحركة والسير والسلوك وذكر الله. المانع من الحركة والذكر التعلق والارتباط بالأمور الدنيوية. إذا أصبحت هذه الأمور هدفاً للحياة فشغلت فكر الإنسان وذكره، فستكون نتيجتها لغفلة عن الله، عبادة المال، وعبادة الزوجة، والمقام، والعلم مذمومة وتمنع الإنسان من السلوك، وليس نفس المال، والزوجة، والمقام، والعلم.

ألم يكن يسعى النبي الأكرم ويعمل ومثله أمير المؤمنين والإمام السجاد وسائر الأئمة عليهم السلام ويتمتعون بالنعم الإلهية؟. هذه إحدى مزايا الإسلام العظيمة حيث لم يضع حداً للدنيا والآخرة والأعمال الدنيوية والأخروية.

المانع الثالث: اتباع هوى النفس:

المانع الثالث هو اتّباع أهواء النفس وميولها، ميول النفس كالدود الغليظ،

---

(١) بحار الأنوار ج٧٣ ص٣٦.

(٢) بحار الأنوار ج٧٣ ص٤٩.

يخرب منزل القلب، وليس لهذا القلب لياقة ليكون محلاً لسطوع الأنوار الإلهية؛ أهواء النفس تسحب القلب دائماً نحو هذا الجانب وذاك الجانب، ولا تتركه يختلي بربه ويأنس به؛ تسعى ليلاً ونهاراً لإرضاء رغباتها النفسية، فمَن يستطيع أن يهجر الدنيا ويحلق نحو مقام القدس الإلهي.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أشجع الناس مَن غلب هواه»(٢).

المانع الرابع: الامتلاء:

أحد موانع ذكر الله الامتلاء وعبادة المعدة، فالذي يسعى ليل نهار لتأمين الأطعمة اللذيذة فيملأ بطنه بأنواع الأطعمة كيف يمكنه أن يختلي مع ربه، وأن يأنس به ويتوسل ويتضرع. كيف يمكن لصاحب المعدة الممتلئة أن يكون لديه حال عبادة ودعاء؟ متى يمكن للذي يعتبر لذته في الأكل والشرب أن يذوق طعم ولذة المناجاة؟ ولهذا السبب ذم الإسلام التملي من الطعام.

قال أبو بصير: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمد! إن البطن ليطغى من أكله، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا خف بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله إذا امتلأ بطنه»(٣).

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله يبغض كثرة الأكل»(٤).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تشبعوا فيطفى نور المعرفة من قلوبكم»(٥).

قال الصادق عليه السلام: «ليس شيء أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل وهي مورثة شيئين: قوة القلب وهيجان الشهوة؛ والجوع ادام للمؤمنين، وغذاء للروح،

---

(١) سورة ص، الآية ٢٦.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٧٦.
(٣) وسائل الشيعة ج١٦ ص ٤٩٦.
(٤) وسائل الشيعة ج١٦ ص ٤٩٧.
(٥) المستدرك ج٣ ص ٨١.

وطعام للقلب، وصحة للبدن»[1].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا أراد الله صلاح عبده ألهمه قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام»[2].

وقال أيضاً: «نعم العون على أسر النفس وكسر عادتها الجوع»[3].

وقال: «قال الله تبارك وتعالى ليلة المعراج: يا أحمد! لو ذقت حلاوة الجوع والصمت والخلوة وما ورثوا منها. قال: يا رب! ما ميراث الجوع؟ قال؛ الحكمة، وحفظ القلب، والتقرب إليّ، والحزن الدائم، وخفة المؤونة بين الناس، وقول الحق، ولا يبالي عاش بيسر أو بعسر»[4].

نعم السالك بحاجة للطعام كسائر الناس كي يبقى حياً وللقيام بالعبادة؛ ولكن يجب أن يأكل بمقدار تأمين حاجات البدن، وعليه أن يتجنب التخمة، لأن التخمة تسبب الكسل، وعدم الرغبة في العبادة، وقساوة القلب، والغفلة عن ذكر الله. أما قلة الطعام والجوع فهي على خلاف ذلك توجب الخفة، والاستعداد للعبادة، والتوجه نحو الله. وهذا الموضوع مجرب تماماً، يتمتع الإنسان حال الجوع بصفاء الروح والنورانية والسعادة، ولا تتوفر هذه الحال له مع التخمة، لذا يجب على السالك أن يتناول الطعام بمقدار حاجة البدن، وأن يكون جائعاً خصوصاً عند الذكر والدعاء والعبادة.

المانع الخامس: الكلام غير الضروري:

إحدى الأمور التي تمنعَ السالك عن الحركة ونيل المقصد، وتمنع التوجه وحضور القلب الكلام غير الضروري وغير المفيد. لقد أعطى الله تعالى الإنسان لساناً ليقضي حاجاته. إذا تلكم بمقدار حاجته، استفاد من هذه النعمة الكبيرة استفادة صحيحة. أما لو انطلق للتحدث بأمور غير ضرورية، فقد ضيّع هذه النعمة الإلهية

---

(١) المستدرك ج٣ ص ٨٠.
(٢) المستدرك ج٣ ص ٨١.
(٣) المستدرك ج٣ ص ٨١.
(٤) المستدرك ج٣ ص ٨٢.

الكبرى، إضافة إلى أنه مع الإكثار من الحديث والتنقل فيه، يشوش فكره، ولا يمكنه أن يتوجه توجهاً كاملاً نحو الله، وأن يكون لديه حضور قلب؛ ولهذا ذمت الأحاديث الإكثار من الكلام الذي لا فائدة فيه مثلاً:

قال رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسي القلب. إن أبعد الناس من الله القلب القاسي»(١).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إخزن لسانك وعد كلامك يقل كلامك إلا بخير»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الكلام ثلاثة: فرابح وسالم وشاحب. فأما الرابح فالذي يذكر الله، وأما السالم فالذي يقول ما أحب الله، وأما الشاحب فالذي يخوض في الناس»(٣).

وقال أيضاً: «إمسك لسانك فإنها صدقة تصدق بها على نفسك، ثم قال: ولا يعرف حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه»(٤).

وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت؛ إن الصمت باب من أبواب الحكمة؛ إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير»(٥).

وقال علي عليه السلام: «إذا تم العقل نقص الكلام»(٦).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من الصمت والمشي إلى بيته»(٧).

وقال رسول الله ﷺ: «عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك

---

(١) بحار الأنوار ج٧١ ص ٢٨١.
(٢) بحار الأنوار ج٧١ ص ٢٨١.
(٣) بحار الأنوار ج٧١ ص٢٨٩.
(٤) بحار الأنوار ج٧١ ص٢٩٨.
(٥) بحار الأنوار ج٧١ ص ٢٩٤.
(٦) بحار الأنوار ج٧١ ص٢٧٨.
(٧) بحار الأنوار ج٧١ ص٢٧٨.

على أمر دينك»[1].

على كل حال يجب على السالك أن يسيطر على لسانه فلا يتحدث إلا بمقدار الضرورة، وأن يتجنب الإكثار من الكلام، وعليه الاستفادة من لسانه في الذكر والمطالب العلمية والاجتماعية المفيدة.

يقول الأستاذ الكبير العارف الرباني العلاّمة الطباطبائي رضوان الله عليه: شاهدت من السكوت آثاراً ثمينة: اسكتوا أربعين يوماً ولا تتحدثوا إلا بمقدار الضرورة، واشتغلوا بالفكر والذكر ليحصل لكم صفاء ونورانية.

المانع السادس: حب الذات:

عندما يزيل السالك كل الموانع ويقطع كل المراحل، يواجه مانعاً كبيراً جداً، هو حب الذات، يلتفت فجأة أن كل أعماله وحركاته وحتى عباداته تنشأ من حب الذات، العبادة والرياضة والذكر والدعاء والصلاة والصيام، التي يريد منها إكمال نفسه ونيل الجزاء الأخروي، يعود منها نفع للنفس، وهذه العبادات وإن كانت توصل الإنسان إلى الجنة والثواب الأخروي، لكنها لن ترتقي به إلى مقام الذكر والشهود واللقاء الشامخ. إذا لم يتجاوز السالك مرحلة حب الذات فلن يتجلى نور الله فيه، إذا لم يهاجر من مقام الذات وحب النفس فلن يحصل على مقام القدس الإلهي. إذا لم يترك نفسه وشخصيته فلن يشاهد جمال الله سبحانه الذي لا نظير له. إذا لم يمزق كل الحجب وحتى حجاب النفس، فلن يجد لياقة سطوع الأنوار الإلهية فيه.

لهذا يجب على الإنسانَ السالك أن يخرج نفسه من محدودية حب الذات من خلال الرياضة والجهاد، أن يبدل حب الذات بحب الله، وأن يؤدي كل أعماله لرضا الله. إذا تناول الطعام فلأن محبوبه الأزلي أراد له الحياة، وإذا قام بالعبادة فلأن الله أهل للعبادة. لا يكون هذا الشخص طالباً للدنيا ولا طالباً للعقبى ولكن طالباً لله. وحتى أنه لا يريد الكشف والكرامة. لا مطلوب ولا منظور حقيقياً لديه إلا المعبود. إذا تجاوز هذه المرحلة الصعبة وفقد هويته وشخصيته، وضع قدمه على بساط

---

(١) بحار الأنوار ج٧١ ص٢٧٩.

التوحيد، وارتقى إلى مقام اللقاء والشهود الشامخ ونزل ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[1].

المانع السابع: ضعف الإرادة:

من الموانع الكبرى لهذا الطريق وقد يكون أهمها، ضعف الإرادة وعدم القدرة على التصميم. هذا المانع يمنع الإنسان عن البدء بالعمل. يسعى الشيطان والنفس الأمّارة ابتداءً لإظهار موضوع الرياضة والسير والسلوك أمراً صغيراً وغير ضروري؛ يسعيان لإقناع الإنسان بأداء واجباته بصورة صورية وبدون توجه وحضور القلب؛ يقولان: لا واجب عليك إلا أداء هذه العبادات، ما شأنك وحضور القلب والتوجه والذكر؟! وإذا فكر أحياناً، أضعفنا إرادته بمئات الخدع والحيل، وأحياناً يظهر الموضوع صعباً أمامه إلى درجة تجعله ييأس ويفقد الأمل.

لكن يجب على الإنسان المريد أن يقف أمام وسوسات الشيطان والنفس الأمّارة. ويقف على أهمية وضرورة السير والسلوك وتحصيل حضور القلب والذكر والشهود من خلال مراجعة الآيات والأحاديث وكتب المعرفة والأخلاق. عندما يقف على قيمة ذلك الأمر ويرى سعادته الأبدية فيه يسعى للعمل بجد، ولا يفسح في المجال أمام اليأس وفقدان الأمل ليدخل إلى قلبه ويقول لنفسه: صحيح أنه أمر صعب، ولكن ولكون سعادة المستقبل تعتمد عليه لا بد أن أبدأ، حيث يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2].

لقد طال كلامنا، حول الارتباط بالوسيلة الأولى للتكامل والتقرب يعني ذكر الله، ولهذا أطلب العفو من القراء.

---

(١) سورة القمر، الآية ٥٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

الوسيلة الثانية: تربية الفضائل ومكارم الأخلاق

إن إحدى الطرق لتربية وإكمال النفس والسير والسلوك ونيل مقام القرب من الله، هي تربية الفضائل ومكارم الأخلاق المتأصلة في الإنسان. الأخلاق الحسنة ذات قيم لها سنخية وتناسب مع روح الإنسان الملكوتية. وبتربيتها يصبح الإنسان كاملاً وأكثر كمالاً حتى ينال مقام القرب الشامخ. إن الذات المقدسة لله هي منبع كل الكمالات، ولكون الإنسان من العالم العلوي، فهو يعرف كمالاته الإنسانية التي تتناسب مع العالم العلوي من خلال فطرته الطاهرة غير الملوثة، ويميل إليها بالطبع. ولهذا يوجد توافق بين كل البشر وفي كل العصور حول إدراك الأخلاق الحسنة مثل: العدالة، الإيثار، الصدق، الأمانة، الإحسان، الشجاعة، الصبر والوعي، العلم، حب الخير، الدفاع عن المحرومين، الشكر وعرفان الجميل، الجود والسخاء، الوفاء بالعهد، التوكل، التواضع، العفو والصفح، الليونة، خدمة الناس..

يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

عندما تتكرر الأمور الأخلاقية تترسخ في النفس لتصبح ملكة وجزءاً من وجود الإنسان، تؤثر في بناء الإنسان وحتى في كيفية وجوده، ولهذا اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماماً خاصاً، تشكل الأمور الأخلاقية جزءاً أساسياً من الإسلام. لدينا مئات وآلاف الآيات والأحاديث حول الأخلاق؛ أكثر آيات القرآن أحكام أخلاقية. وحتى أن غالب قصص القرآن لديها هدف أخلاقي لدرجة أنه يمكن تعريف القرآن ككتاب أخلاقي.

كان ولا يزال من أهم الأهداف الكبرى للأنبياء تزكية النفس وتنمية الأخلاق.

---

(١) سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ١٠.

وقد اعتبر النبي ﷺ هدف بعثته، قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وقال: «عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله بعثني بها»[2].

وقال ﷺ: «ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[3].

---

(١) المستدرك ج٢ ص ٢٨٢.
(٢) بحار الأنوار ج٦٩ ص ٣٧٥.
(٣) الكافي ج٢ ص ٩٩.

الوسيلة الثالثة: العمل الصالح

يستفاد من القرآن الكريم أن الإيمان والعمل الصالح، وسيلة لتكامل النفس والتقرب إلى الله ونيل درجات الإنسانية العليا والحياة الطاهرة الأخروية.

يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

يستفاد من الآية أنه يمكن أن يكون للإنسان حياة أخرى طيبة طاهرة غير الحياة الدنيوية، والحياة الجديدة تلك نتيجة الإيمان والعمل الصالح.

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾[2].

يقول تعالى: ﴿ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[4].

يقول سبحانه في الآية: كل العزة والقدرة هي لله، إليه تصعد الكلمة الطيبة يعني روح الإنسان الموحد صاحب العقيدة الطاهرة والعمل الصالح هو الذي يرفعها صعوداً.

يترك العمل الصالح المقترن بالنية والإخلاص أثراً في نفس الفاعل ويدفعه نحو

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٢) سورة طه، الآية ٧٥.

(٣) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٤) سورة فاطر، الآية ١٠.

الرشد والتكامل. ويستفاد من القرآن أن الحياة الطيبة والجميلة في الآخرة، ونيل مقام القرب، ولقاء الله هي في الإيمان والعمل الصالح. أكد القرآن الكريم على العمل الصالح كثيراً، واعتبر أنه الوسيلة الوحيدة لفلاح الإنسان وسعادته. ميزان صلاحية العمل التطابق مع الشرع والوحي، خالق الإنسان والعالم العارف بخلقة الإنسان الخاصة يعرف طريق سعادته وتكامله، وقد أرشد النبي إليها من خلال الوحي حتى يهدي الناس إليها فيستفيدون منها.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

العمل الصالح عمل عُرِّف في القرآن على أساس أنه واجب أو مستحب، ويستطيع السالك من خلال القيام به أن يسير ويسلك وينال مقام القرب، وهذا هو الطريق الوحيد، وكل طريق آخر مضل لا يوصل السالك إلى المقصد. يجب أن يطيع السالك الشرع بصورة كاملة وأن لا يطوي طريقاً آخر غير طريق الشرع للسير والسلوك، وأن يتجنب القيام بالأذكار والأوراد والحركات التي لا سند لها في الشرع، حيث أنها لا توصل السالك إلى المقصد، بل وتبعده عنه، لأن تجاوز الشرع بدعة ومعصية.

يجب أن يسعى السالك أولاً لأداء الواجبات والفرائض الدينية بحسب الشرع المقدس. حيث لا يمكنه نيل المقامات العالية مع ترك الفرائض والواجبات حتى ولو بذل جهداً مضاعفاً في أداء المستحبات والأوراد والأذكار.

ويأتي دور المستحبات والأذكار في المرتبة الثانية. يعمل السالك في هذه المرحلة على أداء الأعمال المستحبة بحسب استعداده الروحي وقابليته. وكلما كان أكثر جداً كلما وصل إلى مقامات أرفع؛ وليست المستحبات من حيث الفضيلة في مرتبة واحدة، بل بعضها أفضل من البعض الآخر، ويمكنها أن تكون أكثر قدرة على تقريبه، وقد أشير إلى هذا الأمر في كتب الأدعية والأحاديث.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

يمكن للسالك أن ينتخب الصلوات أو الأدعية أو الأذكار والأوراد الواردة فيها والمداومة على أدائها. كلما أكثر من أدائها وكلما كان أداؤه أفضل كلما صار أكثر صفاءً ونوارنية وصعد إلى مقامات أرفع.

سنشير هنا إلى مجموعة من الأعمال الصالحة ونترك البقية لسائر الكتب. لكن لا بد لنا من التذكير أولاً أن الفرائض والنوافل والأذكار والأدعية تكون عملاً صالحاً ومقرباً إذا أُديت عن إخلاص. إن صلاحية العمل وتقريبه يرتبط بمقدار الإخلاص فيه، ولهذا السبب نبحث أولاً في الإخلاص ثم ننتقل للإشارة إلى مجموعة من الأعمال الصالحة.

الإخلاص

مقام الإخلاص من أرفع مراحل التكامل والسير والسلوك. بنتيجة الإخلاص يصبح القلب مركزاً لسطوع الأنوار الإلهية، ويخرج العلم والحكمة من القلب على اللسان.

قال رسول الله ﷺ: «ما أخلص عبد أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1].

وقال علي عليه السلام: «أين الذين أخلصوا أعمالهم لله وطهّروا قلوبهم لمواضع نظر الله»[2].

وقالت سيدة النساء صلوات الله عليها: «مَن أصعد إلى الله خالص عبادته أهبط الله إليه أفضل مصلحته»[3].

وقال علي عليه السلام: «قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه فمَن طهر

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٤٢.
(٢) غرر الحكم ص ١٠٢ حكمة ١٧.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٤٩.

قلبه نظر الله إليه»[1].

وقال رسول الله ﷺ مخبراً عن جبرائيل عن الله عز وجل أنه قال: «الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب مَن أحببت من عبادي»[2].

للإخلاص مراتب ودرجات، وأقل مراتبه أن يخلِّص الإنسان عباداته من الشرك والرياء والعجب. وأن يؤديها لله فقط. هذا المقدار من الإخلاص هو شرط لصحة العبادة ولا يحصل التقرب بدونه. قيمة العمل بالنية الطاهرة والإخلاص من الشرك.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم»[3].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «يقول الله: أنا خير شريك مَن أشرك معي غيري في عمله لم أقبله إلا ما كان خالصاً»[4].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»[5].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمَن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ولم ينسَ ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطى غيره»[6].

وقال عليه السلام: «إمارات السعادة إخلاص العمل»[7].

إنما تُقبل العبادة في الله تعالى وتكون سبباً للقرب والكمال إذا كانت خالصة من أي رياء وحب للذات وعجب، وإذا أُديت لله فقط. معيار القبول وقيمة العمل الإخلاص. وكلما كان الإخلاص أكبر كلما كان العمل أكمل وأكثر قيمةً.

---

(١) غرر الحكم ص ٢٨٥ حكمة ٨٢.
(٢) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٤٩.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٤٨.
(٤) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٤٣.
(٥) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢١٩.
(٦) بحار الأنوار ج٧٠ ص ٢٢٩.
(٧) غرر الحكم ص ٧٤ حكمة ٥٦.

العباد عدة فئات:

الفئة الأولى: الذين يعبدون الله خوفاً من عذابه.

الفئة الثانية: الذين يعبدون الله طمعاً بجنته ونعيمه. طبعاً هذه المقاصد لا تضر بالعمل. أعمالهم صحيحة وتوجب التقرب والثواب، لأنه في القرآن والأحاديث غالباً ما يستفاد من هذين الأسلوبين لإرشاد وهداية الناس. هذا إضافةً إلى أن النبي الأكرم والأئمة الأطهار عليهم السلام والأولياء الإلهيون كانوا يخافون من العذاب الإلهي ويجزعون ويفزعون ويظهرون شوقهم واشتياقهم للجنة والنعيم.

الفئة الثالثة: الذين يعبدون الله شكراً لنعمه. وهذا القصد لا يتنافى مع الإخلاص الذي هو شرط قبول الأعمال، لهذا يُذكر النعيم في الأحاديث لترغيب الناس بالطاعة وحتى يطيعونه شكراً له. وحتى أن النبي والأئمة الأطهار كانوا أحياناً يقولون: «أفلا أكون عبداً شكوراً» لتوجيه الجدية في العبادة.

صحيح أن أعمال هذه الفئات تُقبل لكن عمل الفئة الثالثة أكثر قيمة وامتيازاً، لأن فيه إخلاص أكبر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[1].

الفئة الرابعة: الذين يعبدون الله لإكمال أنفسهم وتربية روح العبادة. وهذا القصد لا يؤثر على الإخلاص الذي هو شرط صحة العمل.

الفئة الخامسة: العباد الخاصون الإلهيون الذين يعبدون الله لأنهم يعرفونه ولكونه منبع الكمالات والخيرات. لأنهم ملتفتون إلى عظمته وقدرته التي لا نهاية لها حيث لا مؤثر غيره. هو الوحيد الذي يستحق العبادة، ولهذا يحبون الله ويخضعون له ويخشعون أمام قدرته وعظمته وهذه أعلى مراتب الإخلاص.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٠ ص١٩٦.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فرقاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكني أعبده حباً له عز وجل فتلك عبادة الكرام وهو الأمن لقوله عز وجل: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[1] وبقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2] فمَن أحب الله أحبّه الله ومَن أحبّه الله كان من الآمنين»[3].

وقال علي عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[4].

كل هؤلاء مخلصون، وتُقبل أعمالهم لكنهم ليسوا في مستوى واحد من حيث الإخلاص، بل منهم الكامل ومنهم الأكمل، والفئة الخامسة هي في أعلى المراتب.

لكن يجب أن نذكر أن واجدي المراتب العليا ليسوا فاقدين للمراتب الدنيا، بل واجدين لها إضافة للمراتب الأعلى. الصديقون وعباد الله المخلصون يخافون من الله أيضاً، ويأملون بلطفه وكرمه، يشكرونه على نعمه ويطلبون القرب المعنوي منه، لكن ليس هذا كل الهدف من عبادتهم. بل ولأن لديهم معرفة أكبر بالله فهم يعبدونه. هذا الصنف الرفيع من البشر الإلهي الخاص، لم يفقد المقامات الدنيا مع وصوله إلى المقامات العليا. الإنسان الذي يتحرك في مسير التكامل عندما يصل إلى مقام رفيع لا يفقد المقام الأدنى.

ما قيل حتى الآن كان يرتبط بالإخلاص في العبادة، لكن الإخلاص في العبادة ليس له حد، بل يصل السالك تدريجياً إلى مقام يُخلّص فيه نفسه وقلبه لله ويخرج كل الأغيار من منزل القلب، بحيث يخصص كل أعماله وحركاته وأفكاره لله، ولا يؤدي أي عمل إلا لرضا الله. لا يخاف غير الله ولا يعتمد على غيره، حبه يكون لله

---

(١) سورة النمل، الآية ٨٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠ ص١٩٧.
(٤) بحار الأنوار ج٧٠ ص١٩٧.

واستعداؤه الآخرين لأجله أيضاً وهذا أعلى مراتب الإخلاص.

قال علي عليه السلام: «طوبى لمَن أخلص لله عمله، وعلمه، وحبه، وبغضه، وأخذه، وتركه، وكلامه، وصمته»[1].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «مَن أحب الله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فهو ممن يكمل إيمانه»[2].

وقال الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره»[3].

وقال علي عليه السلام: «أين القلوب التي وهبت لله وعوقدت على طاعة الله»[4].

عندما يصل السالك إلى هذا المقام، يخلصه الله لنفسه ويصونه بتأييداته وإفاضاته وإشراقاته من المعصية. يُعرف هذا الشخص بـ (المخلَص) والمخلصون من عباد الله الخاصين.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[5].

ويقول: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[6].

يصل عباد الله المخلَصون إلى مقام ييأس معه الشيطان من إغوائهم. ينقل القرآن الكريم عن لسان الشيطان أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[7].

وفي النهاية لا بد من التذكير بأن الوصول لهذا المقام الشامخ ليس أمراً سهلاً وبسيطاً بل يحتاج إلى تهذيب النفس والسعي والجهاد في العبادة.

---

(١) غرر الحكم ص ٢٤٥ حكمة ٦.
(٢) بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٤٨.
(٣) بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٤٩.
(٤) غرر الحكم ص ١٠٢ حكمة ١٥.
(٥) سورة ص، الآية ٤٦.
(٦) سورة مريم، الآية ٥١.
(٧) سورة ص، الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإخلاص ثمرة العبادة»[1].

وكما مر في الأحاديث الاشتغال بالعبادة والذكر والمداومة عليه لمدة أربعين يوماً يؤثر ويفيد في حصول صفاء الباطن ونورانيته ونيل مقام الإخلاص، ولكن ليس دفعةً واحدةً بل تدريجياً ومن خلال طي المراحل.

باقة من الأعمال الصالحة

ذكرنا فيما سبق أن الطريق الوحيدة التي يمكن أن تكمل الإنسان وتسمو به مقام القرب هو اتباع الوحي وطي تلك الطريق التي شُرعت بواسطة الأنبياء والتي طووها بأنفسهم. وقد عُرفت بالفرائض والنوافل والمستحبات. والعمل الصالح هو هذا. العمل الصالح يعني كل الواجبات والمستحبات التي وردت في شريعة الإسلام وذكرت في القرآن وكتب الأحاديث والأدعية. يمكنكم أن تعرفوها وأن تستفيدوا منها في طي الطريق. لكننا هنا نشير إلى بعضها:

أولاً: الصلوات الواجبة

الصلاة من أهم عوامل السير والسلوك المعنوي والتقرب إلى الله. قال الإمام الرضا عليه السلام: «الصلاة قربان كل تقي»[2].

قال معاوية بن وهب: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عز وجل ما هو؟ فقال: «ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أن العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام قال: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾»[3].

قال زيد الشحام سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «أحب الأعمال إلى الله عز

(١) غرر الحكم ص ١٤ حكمة ٤٤.
(٢) الكافي ج٣ ص ٢٦٥.
(٣) الكافي ج٣ ص ٢٦٥.

وجل الصلاة وهي آخر وصايا الأنبياء، فما أحسن الرجل يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يتنحى حيث لا يراه أنيس فيشرف عليه وهو راكع أو ساجد. إن العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس: يا ويلاه أطاع وعصيت وسجد وأبيت»[١].

وقال الرضا عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾»[٢].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «إذا قام المصلي إلى الصلاة نزلت عليه الرحمة من أعنان السماء إلى أعنان الأرض وحفت به الملائكة وناداه ملك: لو يعلم هذا المصلي ما في الصلاة ما انفتل»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله إليه ـ أو قال: أقبل الله عليه ـ حتى ينصرف وأظلته الحرمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفه من حوله إلى أفق السماء ووكل الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول له: أيها المصلي لو تعلم مَن ينظر إليك ومَن تناجي ما التفت ولا زلت من موضعك أبداً»[٤].

حضور القلب في الصلاة:

الصلاة تركيب ملكوتي وعجين إلهي في كل جزء منها سر، وهي وسيلة الاتصال بالله والتوسل والتضرع والأنس وذكر الله، وأفضل وسيلة للتكامل وللسير والارتقاء والتقرب من الله؛ معراج المؤمن والذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ نبع زلال من النورانية والمعرفة، يطهر كل مَن يؤديه خمس مرات في النهار والليل من التلوث النفساني، أمانة إلهية كبرى وميزان قبول الأعمال؛ الصلاة عجينة أسرار سماوية لكن بشرط أن يكون فيها روح وحياة، وروح الصلاة، حضور القلب والالتفات إلى المعبود والخشوع أمامه. الصلاة بدون قلب كالجسد من دون روح. للصلاة جسد وروح، تتشكل صورة الصلاة وجسدها من الأذكار، والقراءة،

(١) الكافي ج٣ ص ٢٦٤.
(٢) الكافي ج٣ ص ٢٦٥.
(٣) الكافي ج٣ ص ٢٦٥.
(٤) الكافي ج٣ ص ٢٦٥.

والركوع، والسجود، والتشهد، والسلام، والتوجه، وحضور القلب بمنزلة روح الصلاة. وكما أنه لا قيمة للجسد الذي لا تكون الروح فيه فيكون ميتاً، الصلاة كذلك دون حضور القلب وإن كانت تُسقط التكليف، لكنها لا تصعد بالمصلي نحو المقامات الرفيعة. أهم أهداف تشريع الصلاة، تحصيل الذكر وذكر الله.

يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

وعُرِّفت صلاة الجمعة في القرآن الكريم على أنها ذكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[2].

معيار قبول الصلاة مقدار حضور القلب، فبالمقدار الذي يكون هناك حضور للقلب تُقبل الصلاة بنفس المقدار، ولهذا السبب ورد الكثير من التأكيد في الأحاديث حول حضور القلب:

قال رسول الله ﷺ: «إن من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإن منها لما يلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك»[3].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا قام العبد إلى الصلاة أقبل الله عز وجل عليه بوجهه فلا يزال مقبلاً عليه حتى يلتفت ثلاث مرات، فإذا التفت ثلاث مرات أعرض عنه»[4].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقومن أحدكم في الصلاة متكاسلاً ولا ناعساً ولا يفكرن في نفسه، فإنه بين يدي ربه وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»[5].

وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة طه، الآية ١٤.
(٢) سورة الجمعة، الآية ٩.
(٣) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٦٠.
(٤) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٤١.
(٥) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٣٩.

«أيما عبد التفت في صلاته قال الله: يا عبدي إلى مَن تقصد ومَن تطلب؟ أرباً غيري تريد أو رقيباً سواي تطلب؟! أو جوداً خلاي تبغي؟ وأنا أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأفضل المعطين، أثيبك ثواباً لا يحصى قدره، أقبل علي فإني عليك مقبل وملائكتي عليك مقبلون، فإن أقبل زال عنه إثم ما كان منه، فإن التفت ثانية أعاد الله مقالته، فإن أقبل على صلاته غفر الله له وتجاوز عنه ما كان منه، فإن التفت ثالثة أعاد الله مقالته، فإن أقبل على صلاته غفر الله ما تقدم من ذنبه، فإن التفت رابعة أعرض الله عنه وأعرضت الملائكة عنه، ويقول: وليتك يا عبدي إلى ما توليت»[١].

قيمة الصلاة في حضور القلب والتوجه نحو الله، ويمكنها أن تكون مؤثرة في صفاء الباطن والقرب إلى الله بمقدار حضور القلب، لم يكن الاهتمام الذي كان يوليه الأنبياء العظام والأئمة الأطهار وأولياء الله للصلاة دون طائل.

يُقال: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوَّن، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة الله التي عرضها على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فلا أدري أحسن أداء ما حملت أم لا»[٢].

عن أبي أيوب قال: «كان أبو جعفر وأبو عبدالله عليهما السلام إذا قاما إلى الصلاة تغيرت ألوانهما حمرة ومرَّة صفرة كأنما يناجيان شيئاً يريانه»[٣].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر، وكان قيامَه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله وكان يصلي صلاة مودع يرى أن لا يصلي بعدها أبداً»[٤].

عن الصادق، عن أبيه، عن جده عليهم السلام أن الحسن بن علي عليه السلام كان إذا

---

(١) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٤٤.
(٢) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٤٨.
(٣) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٤٨.
(٤) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٥٠.

قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربه عز وجل وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة، وتعوّذ بالله من النار[1].

وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه»[2].

وروي: عن علي بن الحسين أنه صلّى فسقط الرداء عن منكبيه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فقال له بعض أصحابه: يابن رسول الله! سقط رداؤك عن منكبيك فتركته ومضيت في صلاتك؟ فقال: ويحك تدري بين يدي مَن كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا، أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه؟ فقال له: يا بن رسول الله هلكنا إذاً، قال: كلا إن الله يتم ذلك بالنوافل»[3].

مراتب حضور القلب:

لحضور القلب مراتب ودرجات مختلفة. فمنها الكامل ومنها الأكمل. يمكن للسالك أن يطويها تدريجياً حتى يصعد إلى مقام القرب والشهود الرفيع. هي طريق طويلة وفيها مقامات متعددة وشرحها وتوضيحها للعبد المحروم الذي يراقب من بعيد ويحترق لوعة وشوقاً وحسرةً أمر غير لائق. لكني أشير إجمالاً إلى مراتب يمكن أن تكون مفيدة للسالك.

المرتبة الأولى: أول مرحلة لحضور القلب أن يكون المصلي متوجهاً بالإجمال في كل الصلاة أو بعضها لحضور رب الكون فيحدثه ويتضرع ويتوسل إليه، حتى لو لم يكن هو ملتفتاً لمعاني الألفاظ بالتفصيل.

المرتبة الثانية: المرحلة الثانية لحضور القلب أن يلتفت المصلي حال قيامه بّالصلاة لمعاني الكلمات والأذكار، إضافة إلى كونه متوجهاً إلى أنه يكلم الله، يؤدي الألفاظ وكأنه يفهم معانيها لقلبه، كالأم التي تعلم إبنها أداء الكلمات وتعرفه إلى معانيها.

---

(١) بحار الأنوار ج٨٤ ص٢٥٨.
(٢) بحار الأنوار ج٨٤ ص٢٥٨.
(٣) بحار الأنوار ج٨٤ ص٢٦٥.

المرتبة الثالثة: أن يصبح المصلي عارفاً بحقيقة التكبير، والتسبيح، والتقديس، والتوحيد، وسائر مفاهيم الأذكار، إضافة طبعاً للمراحل السابقة، فيتعرف إليها بالبراهين العلمية ويتوجه إليها حال الصلاة، فيكون عارفاً بما يقول ومع مَن يتكلم.

المرتبة الرابعة: أن تدخل معارف ومعاني الأذكار إلى باطن ذاته بصورة كاملة، ويصل إلى مرحلة اليقين والإيمان الكامل. في هذه الحال يتبع اللسان القلب، ولأن القلب يكون مؤمناً بتلك الحقائق فإنه يجبر اللسان على تكرار الأذكار.

المرحلة الخامسة: بعد طي المراحل السابقة، يصل المصلي إلى مرتبة الكشف والشهود والحضور الكامل، ويشاهد أسماء وصفات وكمالات الحق بعين باطنه، ولا يرى غير الله. لا يلتفت حتى لأفعاله وحركاته وأذكاره. يحدث الله ولكن يكون غافلاً عن المتكلم والكلام أيضاً. فقد إنيته وذاب في مشاهدة جمال الحق. وهنا يوجد مراتب ودرجات مختلفة أيضاً تختلف باختلاف السالكين. المقام المذكور بحر عميق، والأفضل لي أنا المحروم أن لا ألجه وأدعه لأهله: «اللهم ارزقنا حلاوة ذكرك ومشاهدة جمالك».

العوامل المؤثرة في حضور القلب:

بمقدار ما لحضور القلب قيمة، هو صعب أيضاً، عندما يحرم الإنسان للصلاة يبدأ الشيطان بالوسوسة. يأخذ القلب دائماً نحو هذه الجهة أو تلك ويشغله بأفكار وخواطر متعددة. يحسب، يتأمر، يخطط، يفكر في المسائل السابقة والمستقبلية، يحل المسائل العلمية، وكم من مسائل يكون قد نسيها فيتذكرها حال الصلاة، وعندما يعود لنفسه تكون صلاته قد انتهت، وإذا عاد للصلاة ولو للحظة إنصرف عنها فوراً.

يا للعجب والأسف!! ما الذي يمكن القيام به لنسيطر على هذه النفس؟! كيف يمكننا طرد الأفكار المتفرقة حال الصلاة لنبقى في ذكر الله فقط؟ الذين طووا هذه الطريق ووفقوا فيها يستطيعون إرشادنا أكثر لأن القلم كان في أيديهم، لكنني محجوب عالق، أشير إلى أمور يمكنها أن تكون مفيدة.

١ ـ مكان الخلوة: إذا أراد أن يصلي صلاة فرادى أو مستحبة، فالأفضل أن يختار مكاناً خالياً حيث لا ضجيج أو إزعاج، وأن لا يكون في مكان الصلاة ما يلفت انتباه المصلين مثل صورة أو أي شيء آخر، وأن لا تكون في مكان عام، والأفضل أن يختار مكاناً خالياً في منزله وأن يصلي فيه دائماً، وأن ينظر حال الصلاة للسجدة فقط، أو أن يغلق عينيه، أي يتخير بين هذين الأمرين، فيؤدي ما يراه أكثر فائدة لقلبه. الأفضل أن يصلي في غرفة صغيرة أو بقرب الجدار بحيث لا يرى أشياء كثيرة، إذا صلى جماعة فلينظر إلى موضع السجدة فقط، وإذا كان الإمام يقرأ بصوت مرتفع فليصغِ له باهتمام.

٢ ـ رفع الموانع: يزيل موانع حضور القلب قبل الصلاة ثم يشتغل بالصلاة، مثلاً:

إذا كان يدافع البول والغائط، فليتخلَ أولاً وبعد ذلك يتوضأ ويصلي.

إذا كان مضطرباً لجهة العطش أو الجوع، فليزلهما أولاً ومن ثم يصلي، وإذا لم يكن قادراً على الصلاة براحة لامتلاء معدته فليصبر قليلاً ثم يصلي بعد ذلك.

إذا لم يكن قادراً على أداء الصلاة براحة لتعب شديد أصابه، أو لغلبة النعاس عليه، فليسترح ثم يصلي بعدها.

إذا كان مضطرباً لاكتشاف موضوع أو لوقوع حادثة، عليه أن يسعى لإزالة مسببات الاضطراب قبل الصلاة إذا كان ذلك ممكناً ويصلي بعد ذلك.

إحدى الموانع الكبرى التعلق الشديد بأمور الدنيا مثل: المال، الجاه، والمقام، والزوجة، والأبناء. يصبح التعلق بهذه الأمور سبباً لأن يتحول فكر الإنسان خلال الصورة فينصرف عن ذكر الله، لهذا يجب عليه أن يقطع علاقته بهذه الأمور حتى يسهل عليه حصول حضور القلب والتوجه نحو الله.

٣ ـ تقوية الإيمان: توجه الإنسان نحو الله بمقدار معرفته له، إذا وصل الإيمان إلى حد اليقين وتعرف الإنسان على عظمة وقدرة وحضور وإحاطة وعلم المعبود، فسيخضع ويخشع أمامه حتماً ولن يبقى فيه محل للغفلة والنسيان، فالذي يرى الله

حاضراً وناظراً في كل مكان ويجد نفسه في محضره لن يغفل عن ذكره حال الصلاة التي هي حال التكلم معه، فلو تحدّث الإنسان مع ملك قوي قادر يسعى ليكون حاضر الحواس ويفكر في ما يفعل وما يجب أن يقول؛ لذا يجب على الإنسان أن يسعى لتقوية الإيمان وتحصيل المعرفة الكاملة، حتى يحصل لديه حضور قلب أكبر حال الصلاة.

قال رسول الله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك»[١].

قال أبان بن تغلب: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إني رأيت علي بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة غشي لونه لون آخر فقال لي: والله إن علي بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه»[٢].

٤ ـ **ذكر الموت**: من الأمور التي تفيد في حصول الحال وحضور القلب ذكر الموت. إذا فكر الإنسان بالموت والتفت إلى كون وقت الموت غير معلوم ولا شروطه أيضاً، وأنه يمكن أن يحدث في أي لحظة، حتى أنه يمكن أن تكون هذه آخر صلاة يؤديها، عندها لا يصلي صلاته بغفلة. من المستحسن أن يفكر المصلي بالموت قبل الصلاة، يتصور أن أجله قد حان وأن عزرائيل قد جاء لقبض روحه، ولا مجال أمامه إلا لحظات أو دقائق وبعدها تُختم صحيفة أعماله، ويدخل العالم الأبدي، وهناك يحاسب على أعماله فتكون نتيجتها إما سعادة أبدية ونعيم في جوار الإلهيين المقربين، أو شقاء وتعاسة وعذاب في قعر جهنم، يمكن أن تحصل له حال بصورة أفضل عند تصور الموت، فيشاهد نفسه في محضر الله ويصلي بخضوع وخشوع وكأنه يودع ويجهد لتحصل له هذه الحالة قبل الصلاة ويحافظ عليها حتى الانتهاء.

قال أبو عبدالله عليه السلام: «إذا صليت صلاة فريضة فصلها صلاة مودع يخاف أن لا يعود إليها أبداً. ثم اصرف ببصرك إلى موضع سجودك، فلو تعلم مَن عن يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك، واعلم أنك بين يدي مَن يراك ولا تراه»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، ص ٦٥.

(٢) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٣٦.

(٣) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٣٣.

وقال عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله، وعاين بسرك عظمة الله، واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق، وقف على قدم الخوف والرجاء. . .»[1].

٥ ـ **الجهوزية**: عندما يزيل المصلي الموانع، يتجهز للصلاة في مكانٍ خال. عليه قبل الصلاة أن يستذكر عظمة الله وقدرته اللانهائية وضعفه وهوانه. يستذكر أنه واقف أمام خالق الكون ومالك الملوك ويحدثه. واقف أمام قدرة عظيمة مطلعة على كل شيء وحتى الأفكار المخفية.

يستذكر حساب الأعمال والجنة والنار. يحتمل أن يكون موته قريباً، وأن تكون آخر صلاة يصليها. يستمر بالتفكير هكذا حتى تهدأ نفسه ويحصل له توجه وحال. عندها يبدأ بالأذان والإقامة مع التوجه وحضور القلب وبعد ذلك يقرأ دعاء التهيؤ:

«اللهم إليك توجهت، ومرضاتك طلبت، وثوابك ابتغيت، وبك آمنت، وعليك توكلت اللهم صل على محمد وآل محمد وافتح مسامع قلبي لذكرك، وثبتني على دينك ودين نبيك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب».

وعليه أن يلتفت للمعاني حال قراءة الدعاء ثم يقول:

«يا محسن قد آتاك المسيَء، يا محسن أحسن إلي».

إذا حصلت له حالة خشوع، كبّر تكبيرة الإحرام وبدأ صلاته، ولكن إذا شعر بأنه لم يستعد بعد ولم يشعر بتغير حاله، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ويستمر بما ذكر حتى يشعر بالجهوزية والاستعداد.

عندها فليكبّر تكبيرة الإحرام وليبدأ صلاته مع تكبيرة الإحرام. لكن عليه أن يلتفت إلى من يُحدِّث وماذا يقول، أن ينتبه لكون اللسان مرافقاً للقلب. . . هل

---

(١) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٣٠.

تعرف ما معنى الله أكبر؟ يعني الله أكبر من أن يوصف. التفت جيداً إلى ما تقول. هل أنت مؤمن حقاً بما تقول؟

قال الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله، وعاين بسرّك عظمة الله واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق. وقف على قدم الخوف والرجاء. فإذا كبّرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه: فإن الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني؟ وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسارة بمناجاتي»[1].

نعم فالتهيؤ والاستعداد قبل الصلاة وحال النية وتكبيرة الإحرام، له أثر كبير في حضور القلب، لكن الأهم منه الاستمرار على هذا الحال. إذا غفل قليلاً شردت النفس نحو هذه الناحية وتلك وفقد حال التوجه وحضور القلب.

لذا يجب على المصلي أن يبقى مراقباً لنفسه طوال الصلاة، أن يغفل قلبه عن غير الله، وأن يمنع دخول الأفكار والخواطر المتفرقة، أن يرى نفسه في محضر الله دائماً وأن يصلي صلاته وكأنه يحدثه ويسجد ويركع أمامه. أن ينتبه لمعاني الأذكار حال قراءتها فيعرف ماذا يقول، ومع أي قدرة عظيمة يتحدث ويستمر على هذه الحال حتى آخر الصلاة. طبعاً هذا عمل صعب، لكنه يصبح أكثر سهولة مع المراقبة والجد والسعي ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ إذا لم يوفق في البداية، عليه أن لا ييأس، بل يجب عليه أن يعمل بجد وثبات أكبر حتى يسيطر على نفسه. عليه أن يخرج الأفكار المتفرقة من باله ويوجهه نحو الله، وإذا لم يتحقق هذا الأمر في بضعة أيام أو أسابيع أو أشهر فعليه أن لا ييأس، لأنه ممكن على كل حال. يوجد بين البشر أفراد مميزون يصلون الصلاة من أولها إلى آخرها بحضور قلب، ولا يتوجهون للغير أصلاً حال الصلاة.

---

(١) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٣٠.

علينا أن لا نيأس من الوصول إلى هكذا مقام شامخ، وإذا لم نصل إلى المرتبة الكاملة فعلينا على الأقل أن نسعى لنصل إلى الحد الممكن، وهذا المقدار غنيمة[1].

ثانياً: النوافل

ذكرنا فيما سبق أن الصلاة هي أفضل وسيلة للسير والسلوك والتقرب إلى الله وذكره. فالله سبحانه وتعالى أكثر معرفة بخَلق الإنسان الخاص وطريق تكامله من أي شخص آخر؛ شرَّع الصلاة للبشر كي يستفيدوا منها لتحقيق سعادتهم وتكاملهم ولم تحدّ بحدٍ معين، بل يمكنهم الاستفادة منها في أي زمان ومكان وفي مختلف الظروف.

تقسم الصلاة إجمالاً إلى قسمين: الصلاة الواجبة والصلاة المستحبة.

لدينا ست صلوات واجبة:

أولاً: الصلوات اليومية.

ثانياً: صلاة الآيات.

ثالثاً: صلاة الميت.

رابعاً: صلاة الطواف الواجب.

خامساً: الصلاة التي تجب على الإنسان بنذر أو قسم أو عهد.

سادساً: قضاء ما فات على الأب من صلاة واجبة وهي واجبة على الابن الأكبر.

تجب الصلوات اليومية على جميع المكلفين. أما الصلوات الواجبة الأخرى فتجب في أزمنة خاصة وشروط معينة. يجب على طالب السعادة والكمال أن يؤدي الفرائض والواجبات أولاً بالكيفية التي شرّعت فيها، وإذا أداها بإخلاص وحضور قلب كانت أفضل مقرب، لا مجال للتقرب بالمستحبات إذا تُركت الواجبات. إذا ظن أحد أن بإمكانه التقرب بواسطة بعض المستحبات والأذكار والأوراد مع تركه

---

(١) حتى نتمكن من تحصيل حضور القلب في الصلاة يمكننا الاستفادة من الكتب التي كتبت حول أسرار الصلاة لا سيما كتاب «سر الصلاة» للعالم الرباني قائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني «قدس الله سره».

للفرائض، فيطوي طريق الكمال وينال المقامات العالية، فهو مخطىء حتماً. أما بعد أداء الفرائض فيمكنه التقرب بواسطة النوافل والمستحبات فينال المقامات العالية.

النوافل اليومية خمس وثلاثون ركعة: نافلة الظهر ثماني ركعات، نافلة العصر ثماني ركعات، نافلة المغرب أربع ركعات، نافلة العشاء ركعتان، نافلة الصبح ركعتان. صلاة الليل إحدى عشرة ركعة.

ورد التأكيد في كتب الأحاديث على أداء النوافل اليومية، ولها ثواب وآثار. وقد بينت على أنها مكملة للصلوات الواجبة، وشُرِعت أيضاً صلوات أخرى غير النوافل اليومية في أوقات وظروف وأمكنة خاصة وذكر لها ثواب معين. يمكنكم أن تتعرفوا على أنواع الصلاة المستحبة وعلى ثوابها وفوائدها من خلال كتب الأحاديث والأدعية، والاستفادة منها في السير والسلوك إلى الله وإكمال النفس. هذا بالإضافة إلى كون الصلاة مستحبة في كل زمان ومكان وحال، ويمكن للسالك الاستفادة منها، وسبيل الاستفادة من هذه الوسيلة مفتوحٌ أمام الجميع. يمكن للإنسان أن يتمتع بهذا الفيض الكبير في أي مكان وزمان وحال، فيقيم علاقة مع الله سبحانه.

عن أبي الحسن عليه السلام قال: «صلاة النوافل قربان كل مؤمن»[1].

وقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن العبد لترفع له من صلاته نصفها، أو ربعها، أو خمسها، وما يرفع له إلا ما أقبل عليه منها بقلبه، وإنما أمرنا بالنوافل ليتم لهم بها ما نقصوا من الفريضة»[2].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: ما تحبب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وإنه يتحبب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته، وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في موت المؤمن: يكره الموت وأنا أكره مساءته»[3].

---

(١) بحار الأنوار ج٧٨ ص٣٦.
(٢) بحار الأنوار ج٧٨ ص٢٨.
(٣) بحار الأنوار ج٨٧ ص٣١.

ثالثاً: صلاة الليل

لصلاة الليل فضيلة خاصة بين النوافل، وقد أكد عليها كثيراً في القرآن والأحاديث ووردت التوصية بها.

يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1].

ويقول في وصف العباد الخالصين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[2].

ويقول في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله جل جلاله أوحى إلى الدنيا: أن أتعبي مَن خدمكِ واخدمي مَن رفضك. وإن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب! يا رب! ناداه الجليل جلّ جلاله: لبيك عبدي، سلني أعطك، وتوكل علي أكفك؛ ثم يقول جل جلاله لملائكته: ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلى في جوف هذا الليل المظلم، والبطّالون لاهون، والغافلون ينامون، اشهدوا أني قد غفرت له»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «أشرف أمتي حمَلَة القرآن وأصحاب الليل»[5].

وقال: «ما زال جبرائيل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لن يناموا»[6].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٦٤.
(٣) سورة السجدة، الآيتان ١٦ ـ ١٧.
(٤) بحار الأنوار ج٨٤ ص١٣٧.
(٥) بحار الأنوار ج٨٤ ص١٣٨.
(٦) بحار الأنوار ج٨٤ ص١٣٩.

عن أنس بن مالك قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ركعتان في جوف الليل أحب إليّ من الدنيا وما فيها»[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «صلاة الليل تحسّن الوجه، وتحسّن الخلق، وتصيب الريح، وتدر الرزق، وتقضي الدين، وتذهب بالهم، وتجلو البصر»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «صلاة الليل مرضاة الرب، وحبّ الملائكة، وسنّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وراحة الأبدان، وكراهية الشيطان، وسلاح على الأعداء، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومونس وزائر في قبره إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلاً فوقه، وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجة للمؤمن بين يدي الله تعالى، وثقلاً في الميزان، وجوازاً على الصراط، ومفتاحاً للجنة؛ لأنّ الصلاة تكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، وتقديس، وتعظيم، وقراءة دعاء، وإن أفضل الأعمال كلها الصلاة لوقتها»[3].

يوجد آيات وأحاديث كثيرة حول فضيلة صلاة الليل. كان أداء صلاة الليل سيرة الأنبياء وأولياء الله. كان الرسول الأكرم وأئمة أهل البيت عليهم السلام يولون عناية خاصة لصلاة الليل. ونال الأولياء الإلهيون والعرفاء مقامات عالية من خلال المواظبة على أدائها. كم هو جميل ولذيذ أن يستيقظ العبد عند السحر، تاركاً النوم والراحة، فيتوضأ ويقف وسط ظلمة الليل أمام محضر الله حين تكون العيون نائمة، يتضرع ويتوسل، ويرتقي من خلال هذا الأمر إلى المعراج الروحي والعالم العلوي. يصبح رديفاً للملائكة في تسبيحها الله، يسبحه ويقدسه ويحمده. عندها يصبح قلبه مركزاً لسطوع الأنوار والإشراقات الإلهية، ليرتفع بعون الله إلى مقام القرب، (هنيئاً لأهله).

---

(١) بحار الأنوار ج٨٧ ص ١٤٨.

(٢) بحار الأنوار ج٨٧ ص ١٥٣.

(٣) بحار الأنوار ج٨٧ ص ١٦١.

كيفية صلاة الليل:

صلاة الليل إحدى عشرة ركعة تُقرأ ركعتان ركعتان كصلاة الصبح. ثماني ركعات منها تؤدى بنية صلاة الليل. ركعتان بنية صلاة الشفع وركعة بنية الوتر. يوجد آداب وأدعية لصلاة الليل يمكنكم معرفتها في كتب الأحاديث والأدعية.

الوسيلة الرابعة: الجهاد والشهادة

الجهاد في سبيل الله الذي يكون لنشر الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد، والدفاع عن الكيان الإسلامي، وتطبيق أحكام وقوانين القرآن، ومن أجل مواجهة الظلم والاستكبار والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، إحدى العبادات الكبرى الموجبة لتكامل النفس والتقرب إلى الله والارتقاء إليه. وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تبين فضيلته. مثلاً:

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ويقول: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «للجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه، فإذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم»[3].

وقال: «فوق كل ذي برٍ بر حتى يقتل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برّ»[4].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «مَن قُتل في سبيل الله لم يعرفه الله شيئاً من سيئاته»[5].

---

(١) سورة التوبة، الآيات ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية ٩٥.

(٣) وسائل الشيعة ج٦ ص ٥.

(٤) وسائل الشيعة ج٦ ص ١٠.

(٥) وسائل الشيعة ج٦ ص ٩.

قال رسول الله ﷺ: «للشهيد سبع خصال من الله: «أول قطرة من دمع: مغفور له كل ذنب. والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين، وتمسحان الغبار عن وجهه، وتقولان: مرحباً بك ويقول هو مثل ذلك لهما. والثالثة: يكسى من كسوة الجنة، والرابعة: تبتدره خزنة الجنة بكل ريح طيبة أيّهم يأخذه معه، والخامسة: أن يرى منزله، والسادسة: يقال لروحه إسرحي في الجنة حيث شئت. والسابعة: أن ينظر في وجه الله وإنّها لراحة لكل نبي وشهيد»[1].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

الآية المذكورة هي إحدى الآيات الرائعة جداً في القرآن وهي تدعو الناس للجهاد بأسلوب خاص محبب تقول في البداية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ يا لها من تجارة مربحة؟! الشاري: هو الله الغني المطلق ومالك الكون. البائع: هم المؤمنون بالله واليوم الآخر. العين: أموال ونفوس المؤمنين. وجه المعاملة: الجنة الخالدة. ثم يقول: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني في الكتب السماوية الثلاثة؛ ثم يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وفي النهاية يبارك الله للمؤمنين هذه المعاملة الرابحة فيقول: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

يعطي الله الذي يُقتل في سبيله أفضل المقامات: يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[3].

جملة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تبين مقام الشهيد الشامخ. لا يختص بقاء روح الإنسان حية بعد الموت بالشهداء، بل كل الناس كذلك، لكن ميزة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني أرفع

---

(١) وسائل الشيعة ج٦ ص ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

المقامات، يستمرون في الحياة ويرزقون ذلك المقام الرفيع؛ والواضح أنه لن يكون رزق الواصلين إلى هذا المقام كرزق الآخرين.

الجهاد في سبيل الله والشهادة أكبر العبادات وأفضلها، وينال السالك في هذا الطريق العظيم أفضل المقامات وأرفعها؛ والذي يميز هذه العبادة عن سائر العبادات أمران:

الأمر الأول: هدف المجاهد الرفيع. ليس هدف الإنسان المجاهد تأمين منافعه الشخصية ومنافع أقربائه؛ ليس قصير النظر محباً لذاته، بل هو محب لله. يرغب الإنسان المجاهد بنشر الإسلام، وإعلاء كلمة التوحيد، ومواجهة الظلم والاستكبار والاستضعاف، والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، وإقامة العدل الاجتماعي، وحيث أن أهدافه أسمى الأهداف فهو ينال أرفع المقامات.

الأمر الثاني: الإيثار. يستثمر المجاهد أكثر الأشياء قيمة في سبيل السير والسلوك إلى الله والوصول إلى الهدف. إذا تصدّق الإنسان فهذا لا يتجاوز كونه قد غضّ طرفه عن جزء من ماله؛ وإذا اشتغل بالعبادة فهذا لا يتعدى أن يصرف جزءاً من وقته وقوته في هذه الطريق، لكن المجاهد يُضحي بكل شيء، وأكثر من كل شيء؛ هو يُضحي بروحه وكل وجوده ويسلمه إلى الله مخلصاً؛ يغض بصره عن المال، والجاه، والمقام، والزوجة، والأبناء، والأقارب، ويسلم روحه دفعةً واحدة إلى الله. العمل الذي يؤديه العرفاء والعباد طوال أعمارهم يؤديه المجاهد خلال فترة وجيزة. يضيق عالم المادة والماديات أمام الروح النورانية العظيمة للمجاهد، ولهذا يحطم قفص المادة ويحلق في عالم رضوان الله الواسع النوراني ويرتقي عبر أرفع المقامات نحو ربه. إذا كان أولياء الله يصلون تدريجياً عبر الأيام إلى مرتبة المحبة والعشق وينالون مقام الشهود، فالمجاهد يطوي طريق المئة سنة هذا في ليلة واحدة وينال مقام اللقاء.

إذا كان عباد الله يتقربون إلى الله بالأذكار والأوراد والقيام والقعود، فالمجاهد في سبيل الله يتقرب إلى الله بتحمل الجراح والآلام والمصاعب والرصاص وشظايا القذائف. وأخيراً يتقرب إلى الله بإيثار روحه والفرق بين الأمرين كبير. ساحة الحرب

والجهاد فيها صفاء ومعنوية ونورانية خاصة، فهي ساحة الحماس والحركة والعشق والإيثار، ساحة السباق للفداء، ساحة المحبوب والحياة بالحياة الخالدة، زمزمة سكان الخنادق لها صفاء ونورانية وجاذبية خاصة يندر الحصول على ما يشابهها حتى في المساجد والمعابد.

الوسيلة الخامسة: الإحسان وخدمة الناس

لا تختصر العبادة والتقرب إلى الله في الإسلام بالصلاة، والصيام، والحج، والزيارة، والذكر، والدعاء، ولا تنحصر بالمساجد والمعابد والمزارات، بل يعتبر القيام بالمسؤوليات الاجتماعية والإحسان وخدمة عباد الله إذا كان مع قصد القربة من أفضل العبادات، حيث يمكن أن يكون وسيلة لبناء وإكمال النفس والتقرب من الله. بحسب الإسلام التعبد والسير والسلوك لا يستلزم الانزواء، بل يمكن أن يكون من خلال قبول المسؤوليات الاجتماعية وفي وسط المجتمع. التعاون في الخير والإحسان، والسعي في حوائج المؤمنين، وإدخال السرور إلى قلوبهم، والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، والاهتمام بأمور المسلمين. قضاء حاجاتهم، وحل مشاكلهم، ومساعدة عباد الله؛ وكل هذه الأمور تعتبر في الإسلام من العبادات الكبيرة وثوابها أكبر من عشرات الحجج المقبولة المبرورة؛ وقد وردت مئات الأحاديث في هذا الخصوص عن الرسول والأئمة الأطهار عليهم السلام: مثلاً.

قال أبو عبدالله عليه السلام: «قال الله عز وجل: الخلق عيالي فأحبّهم إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله مَن نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً»[2].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرف القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»[3].

---

(1) الكافي ج٢ ص١٩٩.

(2) الكافي ج٢ ص١٦٤.

(3) الكافي ج٢ ص١٨٨.

وقال الصادق عليه السلام: «مَن سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومَن سرّني فقد سرّ رسول الله، ومَن سرّ رسول الله فقد سرّ الله، ومَن سرّ الله أدخله جنته»[1].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «لقضاء حاجة امرىء مؤمن أحبّ إلى الله من عشرين حجة، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف»[2].

قال الصادق عليه السلام: «مشي المسلم في حاجة المسلم خير من سبعين طوافاً بالبيت الحرام»[3].

قال الصادق عليه السلام: «إن لله عباداً من خلقه يفزع العباد إليهم في حوائجهم، أولئك هم الآمنون يوم القيامة»[4].

قال علي بن الحسين عليه السلام: «أما الجنة فلن تفوتكم سريعاً كان أو بطيئاً، ولكن تنافسوا في الدرجات، واعلموا أن أرفعكم درجات وأحسنكم قصوراً ودوراً وأبنية أحسنكم فيها إيجاباً لإخوانه المؤمنين وأكثرهم مواساة لفقرائهم؛ إن الله عز وجل ليقرب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلم بها أخاه المؤمن الفقير بأكثر من مسيرة مائة ألف عام في سنة بقدمه، وإن كان من المعذبين بالنار، فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم، فسوف ينفعكم الله حيث لا يقوم مقام ذلك شيء غيره»[5].

فكما لاحظتم، الإحسان، وخدمة عباد الله، والسعي في قضاء حوائجهم، وحل مشاكلهم، من العبادات الكبرى بحسب نظر الإسلام، وإذا أديت بقصد القربة كانت وسيلةً لتزكية وتهذيب النفس والسير، والصعود والتقرب إلى الله. مع الأسف يغفل أكثر المسلمين عن هذا القسم المهم والعظيم من العبادات الإسلامية نتيجةً لعدم معرفتهم الصحيحة للإسلام، ولا يعتبرون إمكانية حصول العبادة والسير والسلوك إلا في الصلاة، والصيام، والزيارة، والدعاء، والأذكار، والأوراد.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٤ ص ٤١٣.

(٢) الكافي ج٢ ص ١٩٣.

(٣) بحار الأنوار ج٧٤ ص ٣١١.

(٤) بحار الأنوار ج٧٤ ص ٣١٨.

(٥) بحار الأنوار ج٧٤ ص ٣٠٨.

الوسيلة السادسة: الدعاء

الدعاء من أفضل العبادات ويوجب إكمال النفس والقرب إلى الله؛ لهذا يدعو الله سبحانه وتعالى العباد إلى الدعاء.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

ويقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2].

ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3].

قال النبي ﷺ: «الدعاء مخّ العبادة»[4].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «الدعاء هو العبادة قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ الآية... أدع الله ولا تقل إن الأمر قد فرغ منه»[5].

وقال عليه السلام: «عليكم بالدعاء فإنكم لا تقربون بمثله ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها، إن صاحب الصغار هو صاحب الكبار»[6].

يجب أن يدعو العبد، لأن كل وجوده يحتاج إلى الله، بل هو عين الفقر والحاجة والربط. إذا انقطع فيض الله لحظة واحدة انعدم وانتهى. كل ما يصيب العبد من الله. إذن يجب على العبد إظهار هذه الحاجة التكوينية والطبيعية على لسانه، وأن

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٥.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٦.
(٤) صحيح الترمذي ج٢ ص ٢٦٢.
(٥) الكافي ج٢ ص ٤٦٧.
(٦) الكافي ج٢ ص ٤٦٧.

يثبت احتياجه عملياً، وليس معنى العبادة غير هذا.

عندما يدعو الإنسان ربه فيتضرع إليه ويتوسل بتوسل العبودية، ويذكر حاجاته أمام الغني المطلق، يقطع أمله بعالم الفقر والحاجة، ويصله بمنبع كل الخيرات والكمالات، يحلق من عالم الفقر، ويشاهد جمال الحق بعين باطنه. حال الدعاء والتضرع والتوسل من أهم وألذ وأجمل حالات العبد، وعباد الله لا يبادلونها بأي ثمن. راجعوا الصحيفة السجادية وسائر كتب الأدعية، وطالعوا كيف كان الأئمة الأطهار عليهم السلام يتوسلون ويتضرعون، فالارتباط بالله والأمل باستجابة الدعاء يضفي على القلب هدوءاً وطمأنينة. إذا لم يلجأ الإنسان عند البلاء والشدة إلى الله ليطلب منه تفريج هم، فكيف يمكنه تحمل المشاكل والاستمرار بحياته الهنيئة.

الدعاء سلاح المؤمن بواسطته يواجه الإنسان اليأس وفقدان الأمل، ويطلب المدد من الغيب. كان أنبياء الله والأئمة الأطهار عليهم السلام يستفيدون من هذا السلاح دائماً، وقد أوصوا المؤمنين بالاستفادة منه.

عن الرضا عليه السلام أنه كان يقول لأصحابه: «عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل وما سلاح الأنبياء؟ قال: الدعاء»[1].

قال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله يحب من عباده المؤمنين كلّ عبد دعّاء، فعليكم بالدعاء في السحر إلى طلوع الشمس، فإنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، وتقسم فيها الأرزاق، وتقضى فيها الحوائج العظام»[2].

قال رسول الله: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض»[3].

الدعاء عبادة، بل وروح العبادات، ويترتب عليه ثواب أخروي؛ هو معراج المؤمن، به يحلق نحو عالم القدس. ينمي الروح، ويزكيها، ويوصل إلى القرب من الله.

---

(١) الكافي ج٢ ص٤٦٨.

(٢) الكافي ج٢ ص٤٧٨.

(٣) الكافي ج٢ ص٤٦٨.

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أحب الأعمال إلى الله في الأرض الدعاء، وأفضل العبادة العفاف» قال: وكان أمير المؤمنين رجلاً دعّاء»[1].

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح؛ وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقيّ، وقلب تقيّ، وفي المناجاة سبب النجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتد الفزع فإلى الله المفزع»[2].

إذن، الدعاء عبادة إذا كانت واجدة للشرائط وأديت بشكل صحيح أوجبت اكتمال النفس والقرب من الله، وهذا أثر حتمي الحصول. لهذا يجب على العبد أن لا يغفل عنه في أي مكان، ومهما كانت الظروف، فلن يبقى الدعاء دون أثر، حتى لو لم يترتب عليه أثر فوري ظاهري. يمكن أن تتأخر الاستجابة أو لا تحصل بتاتاً؛ ولكن لا يكون هذا دون مصلحة، لأنه يمكن أن يكون تحقيق مراد المؤمن الدنيوي مخالف لمصلحته الواقعية، والله الحكيم عارف بالمصالح الواقعية أكثر من العبد. لذا يجب على العبد أن يمد يديه نحو القادر المطلق طالباً حوائجه. إذا كانت الاستجابة في مصلحته قضيت حاجته في الدنيا. أحياناً يعلم الله المتعال بوجود مصلحة في تأخير استجابة العبد حتى يناجيه أكثر ويتضرع إليه فيصل إلى المقامات العالية. وأحياناً يرى من الصلاح أن يقضي حاجة المؤمن في الدنيا حتى يكون ذاكراً لله دائماً، فينال ثواباً أكبر في الآخرة.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «رحم الله عبداً طلب من الله حاجة فألحّ في الدعاء استجيب له أو لم يستجب له، وتلا هذه الآية ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾»[3].

وعن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إن المؤمن ليدعو الله في حاجته فيقول الله تعالى: أخّروا إجابته شوقاً إلى صوته ودعائه، فإذا كان يوم القيامة قال الله: عبدي! دعوتني فأخرت إجابتك، وثوابك كذا وكذا؛ ودعوتني في كذا وكذا فأخرت

---

(١) الكافي ج٢ ص ٤٦٧.

(٢) الكافي ج٢ ص ٤٦٨.

(٣) الكافي ج٢ ص ٤٧٥.

إجابتك، وثوابك كذا وكذا، فيتمنى المؤمن أنّه لم يستجب له دعوة في الدنيا ممّا يرى من حسن الثواب»[1].

وفي مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام: «إحفظ أدب الدعاء وانظر مَن تدعو؟ وكيف تدعو؟ ولماذا تدعو؟ وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطلاعه على سرك وما يكنّ فيه من الحق والباطل، واعرف طريق نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله بشيء فيه هلاككِ وأنت تظن أنَّ فيه نجاتك. قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ وتفكر ماذا تسأل؟ ولماذا تسأل؟ والدعاء استجابة الكلِّ منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلها ظاهرها وباطنها إلى الله، فإن لم تأتِ بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة فإنه يعلم السر وأخفى؛ فلعلك تدعوه بشيء قد علم نيتك بخلاف ذلك»[2].

---

(١) الكافي ج٢ ص ٤٩٠.

(٢) الحقائق، تأليف الفيض، ص ٢٤٤.

الوسيلة السابعة: الصيام

إحدى العبادات الكبرى ذات التأثير الكبير في تزكية وتهذيب النفس: الصيام. وقد وردت أحاديث كثيرة حول فضل الصيام:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصوم جنة من النار»[1].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الله تعالى يقول: الصوم لي وأنا أجزي عليه»[2].

وقال عليه السلام: «إن الصائم ليرتع في رياض الجنة، وتدعو له الملائكة حتى يفطر»[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن صام يوماً تطوعاً ابتغاء ثواب الله وجبت له المغفرة»[4].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله متقبل، ودعاؤه مستجاب»[5].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: «كل أعمال ابن آدم بعشرة أضعافها إلى سبعمئة ضعف، إلا الصبرَ فإنّه لي وأنا أجزي به، فثواب الصبر مخزون في علم الله والصبر الصوم»[6].

---

(١) الوسائل ج٧ ص ٢٨٩.
(٢) الوسائل ج٧ ص ٢٩٠.
(٣) الوسائل ج٧ ص ٢٩٦.
(٤) الوسائل ج٧ ص ٢٩٣.
(٥) وسائل الشيعة ج٧ ص ٢٩٤.
(٦) وسائل الشيعة ج٧ ص ٢٩٥.

قال أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في ليلة المعراج: يا ربّ! ما أول العبادة؟ قال: أول العبادة الصّمت والصوم، قال: يا ربّ! وما ميراث الصوم؟ قال: يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر»[1].

الصوم عبادة خاصة مركبة من قسمين: نفيٌ وإثبات:

القسم الأول: كفّ النفس عن الطعام والشراب والجماع، وهذه من اللذات المشروعة، ومثلها الكذب على الله والرسول، وغير ذلك من الموارد المذكورة في الكتب الفقهية.

القسم الثاني: الإخلاص، والنية، وقصد القربة، وهذه في الواقع بمنزلة روح هذه العبادة. حقيقة الصوم عبارة عن كفّ النفس، والتصميم على الامتناع عن اللذات المادية بقصد القربة، ومن مفطراته الأكل، والشرب، والاستمناء، والكذب على الله ورسوله.

التعريف المذكور في الكتب الفقهية حول الصوم هو: إذا تجنب الصائم الأمور التالية المذكورة بقصد القربة كانت عبادته صحيحة، ولا كفارة، ولا قضاء عليه. وهذا صوم عوام الناس.

ولكن لم تحد دائرة الإمساك في الأحاديث بهذا الحد المذكور، بل بُيِّنت في حدود أكثر سعة. ورد في الحديث ليس الصوم بترك الطعام والشراب فقط، بل الصائم الحقيقي هو الذي يمنع كل أعضائه وجوارحه عن المعصية، يعني أنه يمنع العين من ارتكاب الذنوب المرتبطة بها، وهكذا يمنع الأذن واللسان واليد والرجل وسائر الأعضاء والجوارح؛ وهذا صوم خاصة عباد الله.

وأرفع من هذا صوم خواص الخواص، وهو أن يمتنع الإنسان عن التفكير بغير الله، إضافة لترك الطعام والشراب وترك كل الذنوب. يكون ذاكراً في كل لحظاته، ويرى الله حاضراً وناظراً، يرى نفسه ضيفاً لله ويجهز نفسه للقائه؛ وهنا نذكركم

---

(١) المستدرك ج١ ص٥٩٠.

بالأحاديث التالية التي نوردها على سبيل المثال:

قال أبو عبدالله عليه السلام: «ليس الصيام من الطعام والشراب أن لا يأكل الإنسان ولا يشرب فقط، ولكن إذا صمت فليصم سمعك، وبصرك، ولسانك، وبطنك، وفرجك، واحفظ يدك وفرجك، وأكثر السكوت: إلاّ من خير، وارفق بخادمك»[1].

وقال عليه السلام: «وليكن عليك وقار الصائم، والزم ما استطعت من الصمت والسكوت إلا عن ذكر الله، ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة له: «ومَن صام شهر رمضان في إنصات، وسكوت، وكفّ سمعه، وبصره، ولسانه، وفرجه، وجوارحه من الكذب والحرام والغيبة تقرباً، قرّبه الله منه حتى تمسّ ركبتاه ركبتي إبراهيم خليل الرحمان»[3].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إن الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، إنما للصوم شرط يحتاج أن يحفظ حتى يتمّ الصوم، وهو الصمت الداخل، أما تسمع قول مريم بنت عمران: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ يعني صمتاً؛ فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا، ولا تشاتموا، ولا تنابزوا، ولا تجادلوا، ولا تبادوا، ولا تظلموا، ولا تسافهوا، ولا تزاجروا، ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة، والزموا الصمت، والسكوت، والحلم، والصبر، والصدق، ومجانبة أهل الشر، واجتنبوا قول الزور، والكذب، والفراء، والخصومة، وظنّ السوء، والغيبة، والنميمة، وكونوا مشرفين على الآخرة، منتظرين لأيامكم، منتظرين لما وعدكم الله، متزودين للقاء الله، وعليكم السكينة، والوقار، والخشوع، والخضوع، وذل العبد الخائف من مولاه، راجين، خائفين راغبين، راهبين، قد طهّرتم القلوب من العيوب، وتقدست سرائركم من الخبّ، ونظفت الجسم من القاذورات، تبرّأت إلى الله من عداه، وواليت الله صومك بالصمت من جميع الجهات مما قد نهاك الله عنه في السرّ

---

(١) وسائل الشيعة ج٧ ص ١١٨.

(٢) وسائل الشيعة ج٧ ص ١١٨.

(٣) وسائل الشيعة ج٧ ص ١١٧.

والعلانية، وخشيت الله حق خشيته في السرّ العلانية، ووهبت نفسك لله في أيام صومك، وفرّغت قلبك له، ونصبت قلبك له فيما أمرك ودعاك إليه، فإذا فعلت ذلك كله فأنت صائم لله بحقيقة صومه، صانع لما أمرك، وكلما نقصت منها شيئاً مما بينت لك فقد نقص من صومك بمقدار ذلك (إلى أن قال) إن الصوم ليس من الطعام والشراب، إنما جعل الله ذلك حجاباً مما سواها من الفواحش من الفعل والقول يفطر الصوم. ما أقل الصوّام وأكثر الجوّاع؟! . . .[1].

دور الصوم في بناء النفس:

الصوم عبادة مهمة وقيّمة، إذا أُدي بشروطه الخاصة وبالكيفية التي شرعها الشارع الإسلامي المقدس كان له أثر كبير على تزكية وتهذيب النفس. للصوم أثر كبير على النفس في مرحلة تخلية النفس من الذنوب والأخلاق السيئة، وتجهيزها للتكامل والتحلية، والاستفاضة من الإشراقات الإلهية. الصائم يروض النفس الأمّارة من خلال ترك الذنوب ويجعلها تحت سيطرته، أيام الصوم هي مرحلة تمرين على ترك الذنب ورياضة نفسية، ومرحلة الجهاد مع النفس والتمرين على كيفية حفظها. وإضافة إلى ما يحصل في هذه المرحلة من تطهير النفس من الذنوب والمعاصي فإنه وبالامتناع عن اللذائذ المشروعة مثل الأكل والشرب، ومن خلال غض البصر يعطي لنفسه صفاءً ونورانية، لأن الجوع يوجب صفاء الباطن والتوجه نحو الله. غالباً ما يتمتع الصائم بحالة حبور لا تتوفر له حال التملي من الطعام.

وباختصار للصوم تأثير كبير في تحصيل التقوى، ولهذا بيّن تحصيل التقوى في التشريع بأنه هدف تشريع الصوم.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[2].

الذي يصوم شهر رمضان فيمتنع عن ارتكاب المعاصي طوال الشهر لأنه صائم

---

(١) وسائل الشيعة ج٧ ص ١١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

ويتجنب الأخلاق السيئة، يكون قد سيطر على نفسه، وبذلك يتمكن من الاستمرار في ترك المعصية بعد شهر رمضان.

ما ذكرناه حتى الآن كان يرتبط بتأثير الصوم على تصفية الباطن وتزكيته من المعاصي واللوث النفساني. وللصوم تأثير كبير من الناحية الإيجابية على تكامل النفس وتحلية الباطن والتقرب إلى الله؛ ونشير إلى بعض العوامل بالإجمال:

١ ـ الصوم يعني كف النفس والإمساك عن المفطرات الخاصة، وعبادة توجب تكميل النفس وتربيتها، وتزكيتها، والتقرب إلى الله، إذا أديت بإخلاص وعن قربة، تماماً كسائر العبادات.

٢ ـ عندما يترك الصائم اللذائذ المشروعة ويترك المعاصي، يصفو قلبه ويُصقَل ويطهّر، ويفرغ من أي فكر غير الله، وهكذا يصبح مستعداً للاستفاضة من إشراقات وإفاضات الذات الربوبية ولقاء الله. عندها يصبح مشمولاً لعنايات الله تعالى، وينال قرب الحق من خلال الجاذبيات الإلهية؛ ولهذا جاء في الحديث: تنفس الصائم ونومه عبادة.

٣ ـ أيام الصوم أفضل أوقات العبادة، والصلاة، والدعاء، وقراءة القرآن، والذكر، والخيرات، والمبرات؛ لأن النفس تكون أكثر استعداداً من أي وقت آخر لحضور القلب، والإخلاص، والتوجه إلى الله؛ لهذا أكدت الأحاديث كثيراً على فضيلة شهر رمضان والعبادة فيه.

أوصى أبو عبدالله عليه السلام ولده قائلاً: «إذا دخل شهر رمضان فاجهدوا أنفسكم، فإن فيه تقسم الأرزاق وتكتب الآجال، وفيه يكتب وفد الله الذي يفدون إليه، وفيه ليلة العمل فيها خير من ألف شهر»[١].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم في شهر رمضان بكثرة الدعاء والاستغفار، فأما الدعاء فيدفع به عنكم البلاء، وأما الاستغفار فتمحى به ذنوبكم»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة ج٧ ص ٢٢١.

(٢) وسائل الشيعة ج٧ ص ٢٢٣.

عن علي عليه السلام قال: «إن رسول الله خطبنا ذات يوم فقال: أيها الناس! إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة؛ شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات؛ هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب، فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة، وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فإن الشقي مَن حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه، وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقّروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم، وغضّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم، وعمّا لا يحل الاستماع إليه أسماعكم، وتحنّنوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلاتكم فإنها أفضل الساعات، ينظر الله عزّ وجلّ فيها بالرحمة إلى عباده، يجيبهم إذا ناجوه، ويلبّيهم إذا نادوه، ويعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه. أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفّفوا عنها بطول سجودكم واعلموا أن الله أقسم بعزته أن لا يعذّب المصلّين والساجدين، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لربّ العالمين. أيها الناس من فطّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة، ومغفرة لما مضى من ذنوبه». قيل: يا رسول الله! فليس كلّنا نقدر على ذلك. فقال صلى الله عليه وآله: «إتقوا النار ولو بشق تمرة، اتقوا النار ولو بشربة من ماء، أيها النّاس مَن حسّن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام، ومَن خفّف في هذا الشهر عما ملكت يمينه خفّف الله عليه حسابه، ومَن كفَّ فيه شرّه كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومَن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه، ومَن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومَن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه، ومَن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار، ومَن أدّى فيه فرضاً كان له ثواب مَن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومَن أكثر فيه الصلاة عليّ ثقّل الله ميزانه يوم تخفّ الموازين، ومَن تلا فيه آية من القرآن كان له مثل أجر مَن ختم القرآن في غيره من الشهور أيها الناس إن أبواب الجنان في

هذا الشهر مفتحة، فاسألوا ربّكم أن لا يغلقها عنكم، وأبواب النيران مغلقة، فاسألوا ربّكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم. قال أمير المؤمنين عليه السلام فقمت فقلت: يا رسول الله! ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن! أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله»[1].

وكما يُستفاد من الأحاديث، شهر رمضان المبارك شهر مليء بالبركة والفضيلة؛ شهر العبادة، وتزكية النفس، والدعاء، والتهجد، وتهذيب النفس؛ ثواب العبادة فيه أضعاف ثواب العبادة في غيره؛ تُفتح أبواب الجنة في هذا الشهر أمام المؤمنين وتغلق أبواب الجحيم؛ تقوم ملائكة الله فيه بدعوة الناس دائماً للعبادة؛ خصوصاً في وقت السحر وليلة القدر حيث العبادة فيها وإحيائها أفضل من ألف شهر. أقام الله في هذا الشهر مأدبة عامة ودعا الناس إليها، وقام الأنبياء بنقلها إلى الناس، فالمضيف هو الجواد المطلق، والخدم ملائكة القرب الإلهي، فيها نعيم إلهي وجوائز وكرامات، فيها «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». التوفيق الإلهي ميسّر للجميع، فكيف يكون استعدادنا؟ إذا غفلنا ندمنا يوم القيامة، حيث لا ينفع ندم ولا حسرة.

يمكنكم قراءة أعمال وأدعية شهر رمضان المبارك من كتاب مفاتيح الجنان وسائر كتب الأدعية، والاستفادة منها مع الإخلاص والتوجه وحضور القلب للسير والسلوك والتقرب إلى الله.

وفي الختام نذكر أن سائر العبادات هي مثل الصلاة والصوم والدعاء، حيث يمكنها أن تكون مؤثرة في تزكية وتهذيب النفس، ولكن لم نتطرق لشرحها والتفصيل فيها رغبة في الاختصار.

---

(١) وسائل الشيعة ج٧ ص ٢٢٧.

كلام مع الإخوة العلماء الروحانيين

المقصود بالعالم الروحاني، الشخص المحصل في العلوم الدينية والعامل في عمل من الأعمال الروحانية، أو أنه طالب يدرس، أو يدرس الأدب، والصرف، والنحو، والمنطق، ومعاني البيان، أو يعمل في حقل تدريس الفقه والأصول وكتابة الحاشية أو رسالة عملية، أو أنه صار مرجعاً للتقليد، أو يتولى أخذ الوجوهات الشرعية وتقسيمها بين الطلاب، والإجابة على المسائل الدينية، وإدارة الحوزات العلمية، أو أنه يدرس المنطق والفلسفة والعرفان، أو يدرّس الأخلاق، أو يعمل في مجال قراءة العزاء، أو يكون إماماً للجمعة والجماعة، أو يعمل في مجال كتابة الكتب أو المقالات.

بعض الطلاب يبقون طلبة حتى أواخر أعمارهم، حيث يستمرون في المشاركة في الدروس دون أن يؤدوا أي عمل، وتستمر حياتهم على هذا المنوال معتمدين على سهم الإمام والوجوهات الشرعية لتأمين معاشهم.

يُعد هؤلاء روحانيين وأهل علم وخدام ومبلغين للدين، وغالباً ما يستفيدون من خلال هذه الطرق من وجوهات البرية، وسهم الإمام المبارك عليه السلام لتأمين رزقهم، ويتمتعون باحترام خاص لأنهم يعملون في المجال الديني، وهكذا يعاملهم الناس بمحبة وصدق وود؛ يظهرون لهم حاجاتهم، ويطلبون الدعاء منهم، وينتظرون أن يشفعوا لهم، ويتبركون ويتوسلون بهم.

ومع الأسف، أوجبت محبة الناس للعلماء والأحاديث الواردة في فضيلة العلم والعلماء غفلتنا وغرورنا، فأصبحنا نميز أنفسنا ونغفل عن تربيتها وبنائها وتزكيتها، وكأننا نجونا من النار وأمسكنا بمفاتيح الجنة دونما حاجة للعمل؛ نخال أن الأمر قد سوي، لأننا منشغلين بالقرآن والأحاديث والعلوم الدينية.

صحيح أن للعلم قيمة بحسب نظر الإسلام، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضيلة العلم والعلماء، ويمكن للعلم أن يكون وسيلة في مسير تكامل النفس والتقرب إلى الله، لكن شرطه الأساسي أن يكون بقصد القربة، وأن يترافق مع العمل. إذا كان لدينا أحاديث في مدح العلم والعلماء، فلدينا أحاديث أخرى في ذم العالم الفاسق وغير العامل مثلاً:

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يا حفص يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[1].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «قال عيسى ابن مريم على نبينا وآله وعليه السلام: ويل لعلماء السوء كيف تلظّى عليه النار»[2].

قال أبو جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[3] قال: «هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره»[4].

أمير المؤمنين عليه السلام يحدث عن النبي صلى الله عليه وآله في كلام له: «العلماء رجلان رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإنّ أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه، واتباعه الهوى، وطول الأمل؛ أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة»[5].

قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلامٍ له خطب به على المنبر: «أيها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّكم تهتدون، إن العالم العامل بغيره كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق عن جهله، بل قد رأيت أن الحجة عليه أعظم والحسرة أدوم على هذا

---

(١) الكافي ج١ ص ٤٧.
(٢) الكافي ج١ ص ٤٧.
(٣) سورة الشعراء، الآية ٩٤.
(٤) الكافي ج١ ص ٤٧.
(٥) الكافي ج١ ص ٤٤.

العالم المنسلخ من علمه منها على هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما حائر بائر، لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا، ولا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا، ولا تدهنوا في الحق فتخسروا، وإن من الحق أن تفقهوا، ومن الفقه أن لا تغتروا، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه، وأغشكم لنفسه أعصاكم لربّه، ومَن يطع الله يأمن ويستبشر ومَن يعص الله يخب ويندم»[1].

عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2] قال يعني بالعلماء من صدق فعله قوله ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم»[3].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «أبلغ موالينا عنا السلام، وأخبرهم أنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلاّ بعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بعمل أو ورع، وأن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره»[4].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «أشد الناس عذاباً عالم لا ينتفع من علمه بشيء»[5].

قال النبي صلى الله عليه وآله: «مثل الذي يُعلِّم الخير ولا يعمل به مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[6].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «تعلّموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به، لأن العلماء همتهم الرعاية، والسفهاء همتهم الرواية»[7].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا رأيتم العالم محباً لدنياه، فاتّهموه على دينكم، فإن كل محب يحوط ما أحب» وقال عليه السلام: «أوحى الله إلى داوود: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطّاع طريق

---

(١) الكافي ج١ ص ٤٥.
(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.
(٣) بحار الأنوار ج٢ ص ٢٨.
(٤) بحار الأنوار ج٢ ص ٣٨.
(٥) بحار الأنوار ج٢ ص ٤٦.
(٦) الكافي ج١ ص ٣٦.
(٧) بحار الأنوار ج٢ ص ٣٧.

عبادي المريدين؛ إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم»[1].

عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «مَن طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف وجوه الناس، فليتبوّأ مقعده من النار؛ إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها»[2].

عن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «مَن أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومَن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة!»[3].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «طلبة هذا العلم ثلاثة أصناف، ألا فاعرفوهم بصفاتهم وأعيانهم، صنف منهم يتعلمون للمراء والجهل، وصنف يتعلّمون للاستطالة والختل، وصنف منهم يتعلّمون للفقه والعقل؛ فأما صاحب المراء والجهل تراه مؤذياً ممارياً للرجال في أندية المقال، قد تسربل بالتخشع، وتخلى من الورع، فدقّ الله من هذا حيزومه وقطع منه خيشومه؛ وأما صاحب الاستطالة والختل، فإنه يستطيل على أشباهه من أشكاله، ويتواضع للأغنياء من دونهم، فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله من هذا بصره، وقطع من آثار العلماء أثره؛ وأما صاحب الفقه والعقل، تراه ذا كآبة وحزن، قد قام الليل في حندسه، وانحنى في برنسه، يعمل ويخشى خائفاً وجلاً من كل أحد إلاّ من كل ثقة من إخوانه، فشدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه»[4].

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «مَن طلب العلم لله لم يصب منه باباً إلا ازداد في نفسه ذلاً، وفي الناس تواضعاً، ولله خوفاً، وفي الدين اجتهاداً، وذلك الذي ينتفع بالعلم فليعلّمه؛ ومَن طلب العلم للدنيا والمنزلة عند الناس والحظوة عند السلطان لم يصب منه باباً إلاّ ازداد في نفسه عظمة، وعلى الناس استطالة، وبالله اغتراراً، ومن الدين جفاء، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم، فليكف وليمسك عن الحجة على نفسه والندامة

---

(١) بحار الأنوار ج٢ ص ٣٧.
(٢) الكافي ج١ ص ٤٧.
(٣) الكافي ج١ ص ٤٦.
(٤) بحار الأنوار ج٢ ص ٣٤.

والخزي يوم القيامة»[1].

قال علي عليه السلام: «مَن نصّب نفسه للناس إماماً، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه؛ ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»[2].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن من العلماء مَن يحب أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه، فذلك في الدرك الأول من النار؛ ومن العلماء مَن إذا وُعظ أنف، وإذا وعظ عنف، فذلك في الدرك الثاني من النار؛ ومن العلماء مَن يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف، ولا يرى له في المساكين وضعاً، فذلك في الدرك الثالث من النار؛ ومن العلماء مَن يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين، فإن رُدّ عليه شيء من قوله أو قصّر في شيء من أمره غضب، فذلك في الدرك الرابع من النار؛ ومن العلماء مَن يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغرر به علمه، ويكثر به حديثه، فذلك في الدرك الخامس من النار؛ ومن العلماء مَن يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني، ولعله لا يصيب حرفاً واحداً والله لا يحب المتكلفين، فذلك في الدرك السادس من النار؛ ومن العلماء مَن يتّخذ علمه مروّة وعقلاً، فذلك في الدرك السابع من النار»[5].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قطع ظهري رجلان من الدنيا: رجل عليم اللسان

(١) بحار الأنوار ج٢ ص ٣٤.
(٢) بحار الأنوار ج٢ ص ٥٦.
(٣) سورة الصف، الآيتان ٢ ـ ٣.
(٤) سورة البقرة، الآية ٤٤.
(٥) بحار الأنوار ج٢ ص١٠٨.

فاسق، ورجل جاهل القلب ناسك؛ هذا يصدّ بلسانه عن فسقه، وهذا بنسكه عن جهله، فاتقوا الفاسق من العلماء، والجاهل من المتعبدين؛ أولئك فتنة كل مفتون، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي هلاك أمتي على يدي كل منافق عليم اللسان»[(١)].

قال علي عليه السلام: «إن في جهنم رحى تطحن، أفلا تسألوني ما طحنها؟ فقيل: وما طحنها يا أمير المؤمنين؟ قال: العلماء الفجرة، والقراء الفسقة، والجبابرة الظلمة، والوزراء الخونة، والعرفاء الكذبة، وإن في النار لمدينة يقال لها الحصينة، أفلا تسألوني ما فيها؟ فقيل: وما فيها يا أمير المؤمنين؟ فقال: فيها أيدي الناكثين[(٢)].

قال النبي ﷺ: «ألا إن شرّ الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء»[(٣)].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يكون السفه والغرّة في قلب العالم»[(٤)].

كان هدفنا من ذكر هذه الأحاديث إلفات النظر إلى عدم وجود فوارق بين العلماء وسائر الناس، بل يتحملون مسؤولية أكبر. إذا طُلب من الناس أن يعملوا على تزكية أنفسهم وتهذيبها، فهذا الأمر مطلوب منا أيضاً. وإذا كانت الأخلاق السيئة والمعاصي سبباً للهلاك، فلا فرق في هذا الأمر بين العلماء وغيرهم.

إذا قيل: الإيمان والعمل الصالح هما الوسيلة الوحيدة للسعادة والكمال ولنيل مقام القرب الإلهي، فهذا الأمر ضروري للعلماء أيضاً؛ وكما أن بعض الناس يذهب إلى الجنة والبعض الآخر يعذب في جهنم، فبعض العلماء يعذب في الجحيم أيضاً. إذن إذا كنا نتوقع أن نصل إلى مقام القرب الإلهي وأن نصعد إلى الدرجات الرفيعة للجنة، فهذا يحتاج منا إلى عمل.

---

(١) الخصال، ص٦٩، باب الاثنين، ح١٠٣.

(٢) بحار الأنوار ج٢ ص ١٠٧.

(٣) بحار الأنوار ج٢ ص ١١٠.

(٤) الكافي ج١ ص ٣٦.

أكبر مشاكلنا:

أكبر مشاكلنا أننا نؤصّل العلم ونضعه مكان العمل.

نجعل كل ذلك يتجسم فينا لأننا علماء دينيون، وكل أمورنا ترتبط بالدين.

ونعتبر أنفسنا مهذبة وواجدة لمكارم الأخلاق، لأننا نتحدث عن الأخلاق الحسنة، ونشرح أبعاد الأخلاق السيئة، ولأننا ندرس الأخلاق، أو نكتب الكتب الأخلاقية.

ولأننا نذم الكذب، والغيبة، والخداع، والحسد، وسوء الخلق، والظلم، وخلف الوعد، والتكبر، وحب الذات، والهوى، وغير ذلك من الصفات السيئة، فنحن نعتبر أنفسنا طاهرة منزهة.

ولأننا ندرس العرفان وندرّسه، ونوضح مقامات السير والسلوك النفسي، ونتحدث عن مقام الرضا، والتوكل، والذكر، والأنس، والكشف، والشهود، والفناء. ونذكر ألفاظ الجبروت، والملكوت، والناسوت على ألسنتنا، ونقوم بشرح أحوال العارفين، نعتبر أنفسنا من العرفاء والسالكين، ونشغل أنفسنا بمفاهيم العرفان ونعتبرها عرفاناً عملياً.

نعظ الناس على المنابر ونوجه لهم النصح، ندعوهم للأخلاق الحسنة والعمل الصالح، ونحذرهم من ارتكاب المعاصي ومن الأخلاق السيئة، وهكذا نخال أنفسنا في زمرة الصالحين والمتقين...

نعمل في مجال الفقه والأصول، واستنباط الأحكام الإلهية، وبيان تكليف المقلدين، وكتابة الحواشي على الرسائل العملية، واستلام خمس أموال الناس وتوزيعها بين الطلاب؛ ولكن يمكن أن نكون غافلين كلياً عن ضرورة تهذيب النفس وتزكيتها، وعن أداء الوظائف والتكاليف الشخصية، وتعين وظائف المقلدين، لكن نكون أسارى للهوى والهوس ومريدينا من الناس وحب الجاه والمقام، بحيث نعتبر الاشتغال الدائم ليل نهار أفضل طريق للسير والسلوك إلى الله، دون أن يخطر على بالنا التعرف على تكاليفنا الشخصية والعمل بها. عادةً ما يؤثر بنا تقبيل الأيادي

وطلب الدعاء والتبرك بنا، فيجعلنا نغفل عن ضرورة تهذيب النفس وتزكيتها.

وأكرر مجدداً، أن أهم مشاكلنا أننا نجعل العلم مكان العمل، مع أن العلم ليس عملاً؛ العلم لوحده لا يعطينا استقامة، بل نحتاج للعمل؛ مَثَل العالم بدون عمل مَثل المريض العارف بعلم الطب، وبتشخيص المرض وبيان أدويته وأساليب الوقاية منه، يدرس علم الطب للطلاب الجامعيين، ولكنه يكون غافلاً عن مرض نفسه، فلا يسعى لمعالجتها؛ ومن الواضح أنه لن يكون مصير هذا الطبيب إلا اشتداد المرض عليه وصيرورته مزمناً، والموت في النهاية.

إذا عالج عشرات الآلاف من المرضى، وعلّم مئات الطلاب، وكتب عشرات الكتب، فلن يساعده هذا أبداً على وقف اشتداد المرض واقتراب الموت. نفس الأمر ينطبق علينا نحن أهل العلم؛ إذا كان لدينا مئات وآلاف الخطب الدينية والدروس الأخلاقية، وكان لدينا مئات الطلاب يدرسون الفقه، والأصول، والفلسفة، والعرفان، والتفسير، والأخلاق، وكان الآلاف يستفيدون من رسائلنا العملية؛ إذا لم نكن أهل العمل ولسنا في صدد تهذيب وتزكية وتحلية أنفسنا، فلن نصل إلى السعادة والكمال والحياة الخالدة للآخرة.

طبعاً إذا كان أهل العلم أهل عمل أيضاً، وكانوا يؤدون تعليمهم وتعلمهم بقصد القربة، يكون لديهم موقعية ممتازة، وسيكون لهم قيمة خاصة لدى الله. إذن فإذا كنا نؤمن بما نقول، وكنا طالبين للسعادة والكمال بصدق، يجب أن نرجع إلى أنفسنا فنحللها ونحقق فيها كمِحقق أمين وقاضٍ منصف؛ فإذا وجدناها متطابقة مع أحكام الشرع، فعلينا أن نشكر الله على هذا التوفيق الإلهي، وأن نستمر على هذا المنوال. أما إذا كانت صفاتنا النفسية وأعمالنا وأقوالنا غير مطابقة للموازين الإلهية، فعلينا السعي لإصلاحها من خلال الاستفادة من العلوم التي لدينا، فنسعى لتهذيب أنفسنا وتزكيتها وتصفيتها؛ نصلح أنفسنا ونزكيها أولاً، ثم نسعى لإرشاد الناس وهدايتهم؛ نجعل من القول والكتابة والتفكير والمطالعة مقدمة للعمل في طريق تهذيب النفس، لا في طريق كسب الجاه والمقام ونيل الأمور الدانية والفانية.

وهنا أوجه هذه الأسئلة لنفسي ولأهل العلم:

هل فكرنا إلى الآن في بناء أنفسنا وتزكيتها وإكمالها؟

هل قمنا بأبحاثنا وكانت أقوالنا وكتاباتنا وسائر الأمور الدينية خالصة لوجه الله؟ .

هل سيطرنا على أنفسنا أم سيطرت علينا؟ .

هل طهرنا أنفسنا من الرذائل الأخلاقية؟ .

هل طهرنا أنفسنا من الكذب، الغيبة، الحسد، التهمة، التكبر، الغضب، العجلة، البخل، العجب، حب النفس، التعلق بالمال والجاه والمقام، الغرور، الخداع والتزوير، الرياء، النفاق، الحقد، وسائر الصفات السيئة؟!

هل راعينا العدالة الإسلامية وحافظنا على حقوق الأفراد بصورة كاملة؟ .

هل راعينا العدل الإسلامي في صرف أموال المسلمين وسهم الإمام؟ .

ألم نستعمل المقام والمنصب الذي وصلنا إليه لتحقيق مآربنا الشخصية وفي مصلحة أقاربنا؟ .

هل تشبه حياتنا حياة النبي الأكرم وأمير المؤمنين البسيطة؟ .

هل فكرنا بتأدية صلاتنا بحضور القلب؟ .

ما هو مقدار تقيدنا بالتهجد وبصلاة الليل والنوافل؟ .

ما هو مقدار تعلقنا بالذكر والدعاء؟ .

هل نتوجه حال الذكر والدعاء والصلاة إلى الله؟ .

هل نتعامل بخُلق إسلامي مع عائلاتنا وجيراننا؟ .

هل نراعي الإحسان والعدالة؟ .

هل نهتم بحياة المساكين والفقراء كما يجب؟ .

هل نحن جاهزون للتضحية بشيء من الكمالات لتقديمها إليهم، أو أننا ندعو الناس للقيام بذلك فقط؟!.

إذا انتقدنا أحدهم أو حذرنا، فهل نقبل نقده ونستمع لنصحه، أم أننا نتأذى ونجيبه بحدة.

هل نقبل بالحق وإن كان فيه ضررٌ لنا ولأحبائنا؟.

وخلاصة كل ذلك، هل نعمل بحسب ما قرأنا وعلمنا وكتبنا أم لا؟.

إذا كان جوابكم إيجابياً فأنتم علماء ربانيون، ومن الذين مدحتهم كل الآيات والأحاديث، ومن أمناء الرسل وورثة الأنبياء. وفيهم قول الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾[1].

والذين قال فيهم الرسول ﷺ: «فقيه واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد»[2].

وقال أيضاً: «مَن يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين»[3].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في حقهم: «الشاخص في طلب العلم كالمجاهد في سبيل الله»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «مَن أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين، فوالذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب العلم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة، وبنى الله له بكل قدم مدينة في الجنة، ويمشي على الأرض وهي تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفوراً له، وشهدت الملائكة أنهم عتقاء الله من النار»[5].

وقال: «مَن جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة»[6].

---

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.
(٢) بحار الأنوار ج١ ص ١٧٧.
(٣) بحار الأنوار ج١ ص ١٧٧.
(٤) بحار الأنوار ج١ ص ١٧٩.
(٥) بحار الأنوار ج١ ص ١٨٤.
(٦) بحار الأنوار ج١ ص ١٨٤.

قال الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين، فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[1].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «المؤمن العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وإذا مات ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى يوم القيامة»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رحم الله خلفائي، فقيل: يا رسول الله من خلفائك؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله»[3].

وقال أيضاً: «ثلاثة يشفعون إلى الله يوم القيامة فيشفّعهم: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[4].

أما إذا كان جوابنا سلبياً، فيجب علينا السعي لإصلاح أنفسنا، وتشخيص هذه الحقيقة صعب أيضاً؛ لأن النفس الأمّارة تخدعنا بمئات الخدع والحيل، وتمنعنا عن معرفة الواقع.

يمكن أن تشغلنا بالدرس، والبحث، والخطابة، والتأليف، والتصنيف، وجمع الناس، والقيام بأمور المعيشة حتى لا تبقى لدينا فرصة للتفكير في أمورنا النفسية.

يمكن أن تظهر لنا العلِم مكان العمل فتقول: لأنكم علماء تخدمون الدين فستُغفر ذنوبكم، ولا حاجة لكم للعمل الصالح.

يمكن أن تقول لأحدنا: أنت حجة الإسلام، خطيب قادر وواعظ محترم، أستاذ كريم، إمام جمعة، مؤلف وعلاّمة، فقيه مجتهد، خدماتك للإسلام كثيرة، يرد

---

(١) بحار الأنوار ج٢ ص ١٤.
(٢) بحار الأنوار ج٢ ص ١٧.
(٣) بحار الأنوار ج٢ ص ٢٥.
(٤) بحار الأنوار ج٢ ص ١٥.

الناس إلى الجنة بإرشادك، وبه ينجون من النار، الناس يأملون منك الشفاعة، أنت مدّاح وقارىء عزاء لأهل البيت عليهم السلام، حتى لو كنت عاصٍ فستُغفر ذنوبك وستنال أعلى درجات الجنة، وهل يسمح الإمام الحسين عليه السلام أن يذهب قارىء عزائه إلى جهنم؟!

هكذا تسعى النفس ويسعى الشيطان لخداعنا ويمنعانا بذلك عن تزكية وتهذيب أنفسنا، وعن العمل الصالح؛ لكن يجب أن نكون يقظين واعين، فنقف بحزم أمام خداع النفس.

علينا أن نبدأ بالتدقيق في نوايانا، علينا أن ندقق في أعمالنا العلمية وخدماتنا الدينية، فهل هي لله أو أنها لكسب الجاه، والمقام، والشهرة، وجمع الناس والمال؟ إذا كانت لتحصيل الدنيا فلن تنفعنا في آخرتنا؛ لهذا يجب أن نحرص على أن لا ننخدع بها. أما إذا كنا مخلصين فهي من أفضل العبادات، ويمكنها أن تكون في مسير السعادة والتكامل، لكنها لا تحل مكان سائر العبادات، ولا تقضي حاجتنا لتزكية النفس وتهذيبها.

ثم إن علينا أن لا نتأثر بحب الناس لنا وبالألقاب التي تقال لنا: عالم محترم، حجة الإسلام، فهي لا تؤثر في سعادتنا وكمالنا الأخروي. إذا كنا حجج الإسلام بأخلاقنا وأعمالنا فهذا مفيد، ولا تحصل الفائدة بالعلم فقط.

والشيء الآخر أنه يجب علينا الالتفات إلى خطورة ما قد ينشأ من كثرة الدرس والخطابة والكتابة وغير ذلك، فقد نهدي آلاف الناس ونوصلهم إلى السعادة والكمال، لكن سعادتهم وكمالهم لا يوجبان استقامتنا ونجاتنا. قلنا لهم وعملوا فوصلوا إلى السعادة والكمال. إذا لم نكن أهل عمل فلن تنفعنا هدايتهم وإرشاداتهم. عندما نرى يوم القيامة ما حصل عليه الناس نتيجة لاستماعهم لكلامنا وعملهم به وما هي الدرجات التي وصلوا إليها، نتحسر لكوننا قد حرمنا من ذلك ونندم ويغمرنا الخجل.

طبعاً نحن لا ننكر أن المشاغل العلمية والخدمات الروحية وإرشاد وهداية الناس تُعد من أفضل العبادة، وأنها يمكن أن تقع في مسير التكامل والقرب إذا ما

أُديت بإخلاص، لكنها لا تغنينا عن أداء الواجبات والتكاليف الإلهية، ولا تمحو ذنوبنا وسيئاتنا.

فأهل العلم هم كالآخرين يحتاجون إلى التقوىٰ للنجاة من الهلاك ولنيل السعادة والكمال، ويحتاجون أيضاً إلى تهذيب النفس والجد في العبادة والعمل الصالح؛ لكن أكبر مشاكلنا، الغرور العلمي الذي يملأ كياننا ويسيطر على مشاعرنا، تخدعنا قدرتنا على تبرير الأمور. أحياناً يكون العلم الذي يجب أن يبعث على الوعي واليقظة والخوف والخشية وأن يدفع الإنسان نحو العمل والجد موجباً لغرورنا مع الأسف، فنقع في أحابيل الجهل، وعندها نختلق الأعذار والمبررات. الشيطان يكمن لنا وهو أكثر قدرة على الخداع والمكر من سائر الشياطين، يستفيد من هذه الأساليب لإرسالنا إلى جهنم بدل هدايتنا إلى الجنة.

نعرف المعاصي والأخلاق السيئة ونعرف آثارها وعواقبها، ولكننا نغتر بالأعذار الواهية والمبررات الخاطئة، يمكن أن نكذب ونغتاب، نتهم، نهين الآخرين، نخلف في الوعد، نضيع حقوق الناس، نؤذي أفراد عائلاتنا، نصرف أموال بيت المال لحفظ شخصيتنا، نتكبر، لا نؤدي واجباتنا الاجتماعية، نعيش من سهم الإمام دون أن نقوم بعمل طوال حياتنا؛ ولكن نجوّز كل ذلك ونبرره من خلال مقدرتنا العلمية، وهكذا نقنع وجداننا؛ ولكن يجب العلم بأن هذا التأويل والتبرير والتجويز واختلاق الأعذار هو من حيل الشيطان والنفس الأمّارة، ولن يكون جواباً مقنعاً يوم القيامة حين نُسأل عن أعمالنا السيئة؛ يمكن أن نقنع وجداننا بهذا التبرير، ولكن كيف سنجيب الله يوم القيامة؟

اللهم نجنا جميعاً من وسوسة الشيطان والنفس الأمّارة، واهدنا في طي صراط التكامل المستقيم والسير والسلوك إلى الله.

امين رب العالمين **والحمد لله رب العالمين**

انتهى التعريب بتاريخ ٢٠ ذي الحجة

من عام ١٤١٣هـ. ق

المحتاج لدعائكم: علي محمد زين

الفهرس